SALIM BARAKAT



سليم بركات

هياج الإوزّ

هياج الإوزّ

هياج الإوزّ / رواية عربيّة
سليم بركات / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الأولى ، 2010



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيب ®

لوحة الغلاف : **ميشيل باركس / الولايات المتّحدة الأمريكيّة**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

ISBN: 978-9953-36-352-8



سليم بركات

هياج الإوزّ



تصدير

جرى توثيق أقوال الشخصيات ، في هذه الرواية ، على نحو لايجعلنا مسؤولين عن أيٍّ تحريف ، أو اختلاق للوقائع ، أو حتى كتمان ما لا يجعل المشهَد مكتملاً أحياناً . أسماءُ الشوارع ، في مناطق العاصمة السويدية ستوكهولم ، وضواحيها ، دوِّنتْ كما أُعطيتْ شفهياً ، ولم نحاول ، نحن ، التأكد من وجودها على الخريطة ، باعتبارنا غير معنيين بتحقيق لايتصل بعملنا . أما كيفية اتصالنا بالشخصيات ، وتسجيل أقوالها ، فهما غير مُفْصَح عنهما ، في النص ، وذلك من مقتضيات الاحتراف ، الذي لم يجاوز التسجيل إلاّ إلى بعض الوصف التصويري ، أو النفساني ، وكذلك التعليق المتقشِّف مستوراً بشكل لا يُخلُّ بالتوثيق نفسه . وما قد يُفْهم منه أنه خروج على سياق التوثيق سنعتبره سوءَ تقدير ، أو فهم ، نُعْذَر عليه ، ويُعْذر عليه من يعتبره كذلك . والآراء الواردة على ألسنة الشخصيات لايتحمل تبعتَها سواها . ومَنْ يُردِ التأكد من أمر التبس عليه ، أو الاستفسار عن مُلْغزٍ ، أو معطىً مرتبك ، ففي مقدوره الاتصالُ بالشخصيات الرئيسة ، الواردة أسماؤها في الفصول ، والتي احتُجِبَتْ أسماؤها أيضاً ، لأنها آثرت أن تكون لسان الرَّاوية ، وتبقى محتجَبةً ، على أرقام هواتف منازلها ، لا غير ، بعد ما رفضت إعطاء أرقام هواتفها المحمولة :

تاسُوْ عارف مِيْرانْ بَكْ	(٤٦ سنة) ٣٨٨٤٣٦
نازْلي راكانْ	(٤١ سنة) ٦٦٣١٧٨
شيراز رحمانْ رحماني	(٣٩ سنة) ٧٣١١١٦
راوَتْ خليل	(٤٦ سنة) ٣٣٢٣٢٣
زِنْتانا حسن	(٤٣ سنة) ٦١٥٥٤٣
شتولا جَبْري	(٢٧ سنة) ٤١١٩٨٨
ريحاني محمد سِيْكَر	(٤٠ سنة) ٣٧٨٣٣٩
دَرْخُو خلاص	(٥٠ سنة) ٦٢٣٤٨٤
زليخا عبد القادر	(٤٤ سنة) ٨٢٥٥٧٧
سَلام شيخ غَرْدَق	(٤٤ سنة) ٤٦٦٨٤٤

ثرثرات الأرواح في ثيابها الضيِّقة:
نشأةُ العقل

ضربت تَاسُوْ رأس ابنها رَنْد بظاهر قبضتها اليسرى ، المضمومة . سُمِعَ رنينُ الضربة مرفرفاً حول أقحاف الجالسات في صدر البيت ، فانكمشَن استياءً . «عظامكِ حجارة ، ياتاسو» ، قالت نازْلي راكانْ . حدَّقت إلى ابن الرابعة عشرة : «سيسيل دماغه من أنفه ، بعد قليل» . ابتسم رَنْد : «دماغي سِيْلِيْكون ، يا أُم توفا» .

تلقَّى رند ضربة جديدة من قبضة أمه على رأسه ، وقد مطَّت جسدها الجالس على كرسي لصق الأريكة الخضراء في اتجاهه : «اسم ابنها توفو ، ياابن القحبة» .

نهض رَنْدْ عن الأريكة متحامياً منها : «ابنها يشبه الممثلة السويدية توفا» .

«أنا لستُ مستاءةً ، ياتاسو» ، قالت نازْلي . رفعت وجهها إلى الشاب الصغير ، الواقف : «سمِّني أُمَّ كارولاًّ ؛ أُمَّ هيلينا ؛ أُمَّ مازولاًّ» .

«زيت مازولا؟» ، ساءلتها سلام ، الملتصقة بها على الأريكة الرمادية ، المواجهة للكنبة الخضراء .

«تعال . اقتربْ» نادت تاسو ابنَها الشاب الصغير . أشارت إليه بجمرة لفافة التبغ : «سأكوي خصيتيك . أنت لم تخلع لوحَ اسم الشارع عن جدار العمارة» .

«أُمي تهذي» ، رد الشاب مصحِّحاً وضْعَ نظارته ذات الإطار المعدني .
«كيف أخلع لوحَ اسم الشارع؟!! ظننتكِ تمزحين البارحة» .
هزَّت المرأة الضخمة ، البدينة ، رأسها أسَفاً . رفعت قميصَها الطويل عن نطاق بنطالها الجنز تحكُّ ثنيةً من الشحم على بطنها ، أمام أعين زائراتها التسع . «كيف لي أن أعتمد على هذا القديد المعفَّر بغبار قامشلوكي؟» .
«رند وُلِد في السويد ، ياتاسو» ، قالت راوَتْ خليل المتصبِّبةُ ذهباً من شعرها المُبالَغ في صباغه ، فردت تاسو :
– خصيتا أبيه النَّكرة كانتا مليئتين بغبار قامشلوكي . تفو .
«سأقتلكِ ؛ ذات يوم ، ياأمي» ، قال الشاب النحيل ، المنسلِتُ البنطال عن ردفيه الممسوحين .
«ياالله» ، تمتمت تاسو مستحسنةً كلماتِ ابنها . أدارت عينيها البُنيتين على صويحباتها :
– سأغيِّر اسمَ هذا الشارع .
«غيِّري اسمك ، ياتاسو ، أولاً» ، قالت زليخا عبد القادر ، العريضة الصدر .
«سأغيِّر اسمي يوماً . سأغيِّر ديني ، وفرْجي أيضاً . لكنني سأغير اسم شارع كاترينا باركِنْ هذا ، أولاً . سأطلق عليه اسم الملا علي خابوتْ» .
رسمتْ في الهواءِ حروفاً مقتطعةً من نشيدٍ ضائع : «الملا علي خابوتْ ، وليُّ القشدة في شتاءات قامشلوكي» ، قالت . عضَّت كُمَّ قميصها حَنَقاً .
«لو أكلتُ أمي قبل أن تلدني . لَو أكلتها من جوفها قبل أن تلدني» .
«ماشأن أمك الراحلة ، المسكينة ، بأمورِكِ ، ياتاسو؟ . وزنُك هو الذي يقلق روحك . ادخلي الفرن ساعتين ليذوب عنك شحمُك ، وفكرتُك عن

تغيير اسم الشارع . والله ، ياتاسو ، تبقى مؤخرة السيدة كاترينا ـ وأنا لا أعرف من هي ـ أفضل للعالم من كرامات الملا خابوت ، ولي القشدة ، الذي نفخ بنطالك حتى يكاد ينفجر . هل تستطيعين أن تجلسي القرفصاء؟» ، قالت شيراز رحماني . ولولَتْ : «فلتفتح إحداكن الشباكَ . فلتفتح الحائطَ . بدأت ثيابي تنكمش مختنقةً من دخان تبغكنَّ» . شمَّت طرفَ سترتها السوداء متقزِّزَةً . «الأكراد لايتوقفون عن التدخين . أولادهم مدمنو تدخين من غير أن يدخنوا . روحُهم كانت تبغاً في الأصل . إذا دخلوا الجنة سيطالبون الله بحقول من التبغ ، لابحوريات» .

قرفصت تاسو ، ذات الستة والأربعين عاماً ، وسط الأريكتين . نهضت بخفَّة . هزَّت مؤخرتها هزاً عنيفاً : «لاتستطيع ، حتى شْتُولا ، أن تجاري رشاقتي» ، قالت المرأة الضخمة من بين شفتين مطبقتين على لفافة التبغ . توجهت بجسدها إلى شتولا الواسعة العينين . أمسكت بها وأنهضتْها عن الكرسي الواقع إلى جانب الأريكة الرمادية : «تعالي راقصيني ، ياابنتي» ، فتملَّصت المرأةُ الشابة من يدي تاسو العنيفتين : «إبقي في موضوع تغيير اسم الشارع ، ذلك أفضل من الرقص» ، قالت ، واستطردت جالسةً على الكرسي ، الذي خُطفتْ منه : «خذي سلَّماً ، ومِفَكَّ براغ تخلعين به اللوحَ عن مطرحه . وخُذي مِرَشَّة دِهَان تكتبين به اسمَ وليِّ القشّدة» .

«هذا بلدُ القانون ، ياصغيرة . سأذهب إلى القانون بموجبات القانون» ، قالت تاسو . حكت بطنها .

«كلامك ذهبٌ ، ياأميرة القانون» ، قالت شيراز رحماني ، ذات التسعة والثلاثين عاماً ، العارمة الثديين كصهيل تحت القماش . أردفتْ : «ما قطعة القانون ، التي ستحملينها إلى أير القانون؟» .

تدخَّلت زَنْتَانا حسن ، السمراء الصغيرة العينين :

- تعنين كُسَّ القانون ، الذي ستحمله تاسو إلى . . .

قاطعتْها زليخا عبد القادر ، ذات الأربعة والأربعين ، الحمراء الشعر بفائضٍ من وهج الطلاء :

- عندنا صبيَّان هنا . اضبطْنَ ألسنتكنَّ .

التفتت تاسو إلى ابنها رند : «خُذْ أخاك هُسٌ ، وادخلا غرفتَك . لاتنسَ أن تحمل صحنين من الطعام . حين تنتهي من عشائك التهِمْ أخاك أيضاً ، وكذلك الكومبيوتر ، أيها المكعَّب المغناطيسي» .

«من أين تزوَّدتِ بمكعَّبات مغناطيسية في رحمك ، ياتاسو؟» ، ساءلتها زليخا .

«خُصى الأكراد خُصى مغناطيسية» ، ردت تاسو .

«أنا سأملأ لكما صحنيْ طعام ، أيها الجميلان» ، قالت دَرْخُو خَلاصْ ، امرأةُ الخمسين ، المصبوغة الشعر أحمرَ فاتحاً . جمعت لرند ، وأخيه هس ـ عن السِّماط المُتَّخذ من منضدتين متلاصقتين ، صُفَّتْ عليهما قِصاعٌ من البطاطا المسلوقة ، وأفخاذ الدجاج المقلية ، والبرغل مع حَبِّ الحِمِّص ، والباذنجان المشوي ، والسَّلطة ـ بعضاً من كل شيءٍ ، فاعترضا : «نريد بطاطا وأفخاذ دجاج ، لاغير» . ابتسمت المرأة القصيرة ، الممتلئة . «من عيني» ، ردَّت . نظرتْ إلى تاسو : «أعَلى هُسٌ أن يقضي عمره تحت اسمنت اسمه؟ غيِّريه . بطلبٍ لايستغرق تسع دقائق تستطيعين تغيير اسمه» ، قالت متأسفةً ، فردت تاسو :

- ثلاث سنين ، وشهرين يادرخو ، لم يتوقَّف هذا الكشتبان ، ابن الكشتبان ، عن البكاء ، من ساعة ولادته . اهترأ قلبي . ولو عرفتِ مقدار لوعتي من ذلك لسمَّيته هُسٌ . هُسٌ . هُسٌ ، تسعاً وثلاثين مرةً مكروراً . صبَّ ببكائه اسمنتاً على دماغي لاتستطيع كسَّارات الحجر السويدية

إحداثَ شقٍّ فيه .

ضربت رأسَها براحة يدها ضرباً قوياً : «لو صفعتُ رأسَ شْتولا الصغير هكذا لتفسَّخ . لكنْ ، ليس في جمجمتي غير الأسمنت المصفَّح» . اقتربتْ من شْتولا حِبْري ، ذات السبعة والعشرين عاماً . ضمَّت رأسَها بحنان قاسٍ ، وهي جالسة على الكرسي ، إلى بطنها : «ماذا تفعل حلوة ، صغيرة ، مثلكِ ، بين قُنَّبيط مخلَّلٍ من أمثالنا ، نحن التسعة ، ياحبةَ الكرز؟» .

«لأعرف أنني لم أزل كرزةً» ، ردت شتولا . حرَّرت رأسَها من ذراع تاسو . شربت جرعةً كبيرة من قدح جِعَتها .

اهتزت الستارة من نفخ الهواء عبر النافذة المفتوحة ، في المساء ذاك ، المتدلِّي من عناقيد آخر الصيف السويدي . خشخشَ ورق الشجر ، المتأهِّب للرحيل ، خلف نافذة شقة تاسو ، في الطبقة الأولى من المبنى ذي الطبقات الستِّ ، المشرف بجهته الشمالية على شارع كاترينا باركنْ ، في منطقة رِنْكبي من ضواحي ستوكهولم .

«املأنَ صحونكن ، يابنات الخريف» ، قالت تاسو تحثُّ ضيفاتها التسع على بدء العشاء . «من منكنَّ ظنَّت أننا سنهترىء سريعاً هكذا؟ أعمارنا تتهدَّل كأردافنا» .

«بل تنمَسح كأردافنا» ، أضافت زليخا ، وهي تتحسس عجيزتَها الضامرةَ تحت ثوب يشبه العباءة .

«خريف سنتنا ٢٠٠٨ ، هذا ، سيكون طويلاً . ذلك ما تقوله قارئة الطالع السنوي في مجلة «كليْكْ» . الشتاء سيكون قصيراً» .

«كأير زوجي المطلَّق القتيل» ، انبرتْ شيراز مقتحمةً جملةَ زليخا ، التي التقطت فخذ دجاجة بأصابعها ، ثم أعادتها إلى القَصعة ، كأنما غيرت رأيها :

- منذ متى قُتلَ زوجك المُطلّق ، ياشيراز؟

«ألم يُقتلْ بعد؟» ، تساءلت شيراز بخفة ملتبسة ، ساخرة . ملأت ملعقتَها من البرغل المطبوخ بالحمص . تذوّقتْه : «هذا طعام ينفخ العظامَ ريحاً» . فسارعت نازْلي راكانْ ، الطويلة ، إلى التعليق :

- إذن ، هو طعام ينفع زليخا . ستمتلئ عجيزتك مثل أفريقية . يالأردافهنّ في رِنكبيْ وهي تتحاكُّ وتتساحق في البناطيل إذ يمشين .

«مؤخرات كهذه تجعل من العسير إقناعَ أحد بوجود مجاعات في أفريقيا» ، قالت رِيحانيْ محمد سِيْكَرْ ، امرأة الأربعين ، المزدحمةُ أصابع اليدين بالخواتم الفضة على أنواع ، وأديانٍ في الصناعة .

«وسِّعْنَ لي قليلاً» ، قالت سَلام شيخ غرْدَق ، ابنة الأربعة والأربعين ، الكبيرة الكفل ، وهي تلتقط من الصِّحاف بعضاً من كل صنفٍ مطبوخ . تراجعت حين ملأت صحنها : «عندنا محقِّقة فنلندية في شؤونِ الهجرة ، تسألني أن أسأل من يحضر من المهاجرين للتحقُّق من روايته ، إن كان تناول ثوماً» ، قالت وهي تلقي كلماتها متسارعةً على الأسماع المنصتة إلى الملاعق .

«ها؟؟» ، ساءلتها نازلي ، ابنة الحادية والأربعين ، المقضومة الأظافر قضْماً حتى اللحم . أردفتْ : «فنلندية؟ أتعنين شولاً تاكينِنْ ، الضئيلة الحجم كـ» ، وتفكَّرت برهةً في إيجاد شَبَهٍ ، فعاجَلَتْها سلامْ : «كالذي بين فخذيك» .

«لابأس . مابها هذه الضرطة العابسة دائماً؟» ، قالت نازلي .

«كيف لي أن أسأل الشخصَ المهاجر ، طالبَ اللجوء ، إنْ أكل ثوماً؟ وقاحة . قلت لها مرةً : اسمعي : السويديون ، الذين احتلو فنلندا ، لايحتقرون الثوم ، فلماذا تحتقرينه أنتِ؟ . نحن الغرباء نحب الثوم . نحبُّ

القُبَلَ بنكهة الثوم» ، قالت سلام بصوتها المرتفع ، فسارعت راوتْ ، ذات التجاعيد الكثيرة في شفتها العليا ، إلى استطرادٍ ساخرٍ :

- لماذا لم تُضيفي : نحبُّ الأيور مُدلَّكةً بالثوم .

«سأضيف ذلك إلى كلامي حين تستدعيني القحبة في المرة القادمة» ، قالت سلام راضيةً .

«إن قلتِ لها ذلك ، لن تتصل بك دائرة الهجرة للترجمة من جديد» ، نصحتْها زنتانا العابرةُ قربها إلى كرسي مسنود إلى الحائط .

«طالبو اللجوء الأكراد يتناقصون . ساعات الترجمة للمحقِّقيْن تتراجع . يستدعون المترجمة مِنّا مرة ، أو مرتين كل أسبوع . لم يعد مهمًا عندي هذا العملُ السخامُ . يكفيني ماأحصِّلهُ من نقود في ترتيب أَسِرَّةِ دار العَجَزة ، في منطقة آلفيك» ، قالت سلام الصغيرة الثديين . أردفت : «سأخبر المحققة الفنلندية عن الأيور مُدلَّكةً بالثوم» . تجرَّعت قليلاً من الجعة : «من اختار فنلندية للتحقيق مع طالبي اللجوء في السويد؟ . فهمتُ الآن : صقيعيَّة تجمِّد لسانَ طالب اللجوء» .

«سأذهب إلى القانون بموجبات القانون» ، قالت تاسو ، راجعةً بخيال المحاورات ، وسط الصحون المُترفة ، إلى ذبابة خيالها الساكنة فوق حرف من اسم الشارع ، فاستنكرت درخو بصوتها الخشن ذلك الإلحاحَ من صاحبتها :

- لماذا أنت غاضبة ، إلى هذا الحد ، من اسم الشارع؟ .

«أخاف البقاء بقية عمري ، في هذا الشارع» ، ردت تاسو وهي تمضغ ماتلقَّمته من صحنها .

«ماالذي سيتغير إنْ حمل الشارعُ اسمَ وليٍّ القِشدة؟» ، ساءلتها درخو .

«سألتهم بقيةَ عمري بسرعة» ، ردت تاسو .

«لاتغيِّريه ، والتهمي نفْسَك ببطء . نحتاج أن تشيخ فروجُنا معاً» ، قالت درخو .

«لقد شاخت ياعديمة الذاكرة . لم تعد نافعةً إلاَّ في أنشطة مشبوهة» ، ردت تاسو .

«ماالأنشطة المشبوهة لفرجك ياتاسو؟» ، ساءلتها زنتانا .

«البول» ، ردت تاسو .

نقرت شتولا الفتيَّةُ طرف صحنها ، واقفةً ، بالملعقة : «مابالكنَّ تتكلَّمن يائسات؟ ألا تتصَيَّدنَ أحداً ، يامطلَّقات السويد ، الكرديات؟» .

«بمَ نتصيَّد زُبًّا؟ بالشوارب ، التي ظهرت تحت أنوفنا؟» ، قالت كبرى الصديقات درخو خلاص . تقدمت حتى لامست بصدرها صدرَ شتولا :

- إذا ضاجعتِ رجلاً ، ياشتولا ، تعالي إليَّ لأشمَّكِ . قد اتذكَّر رائحةَ النَّيك .

«ألا تشمِّين شيئاً ، الآن ، يادرخو؟» ، ساءلتها شتولا غامزةً بعينها . ضحكت .

«أفعلْتِها منذ عهد قريب؟» ، ردت درخو . تشمَّمتْها .

«منذ خَمسة أسابيع» ، قالت شتولا . تنهَّدت . «عِلْمُ جسدي بالنيك يضمحلُّ ، يادرخو . صار فرْجي أُميًّا» .

«سأُحْيي فَرْجَ هذا الشارع» ، قالت تاسو . وضعتْ صحنَها على المنضدة وسط الأريكتين . استدارت تصحِّح المَيْل في إطارٍ معلَّق بسلك قصير إلى عقفةٍ من البلاستيك مثبَّتة إلى الحائط بلاصقٍ . صححتِ الميلَ ، لكن العقفة انكسرت ، بغتة ، فسقط الإطار بالصورة السوداء والبيضاء فيه . تهشم الزجاج على حافةِ كرسيٍّ . جمدت النساءُ برهةً ، ثم

ضحكن . دفعت تاسو الزجاجَ الهشيم ، والإطارَ ، بقدمها الحافية إلاَّ من جوربها ، أسفلَ الأريكة الرمادية : «اختبئا ، ياأمي وأبي هنا ، الآن . سأعود إليكما صباحاً» . تأوَّهتْ . عضت على أسنانها . جلست على الأرض تتحسس قدمها . أخرجت شظية زجاج صغيرة من إبهام القدم : «ياقحبة» ، تمتمت . وضعت الشظية في منفضة الرماد ، على المنضدة . «سأدعوكنَّ إلى التظاهر في ساحة رِنْكبيْ لتغيير اسم الشارع . هذا يحفظه القانون . سأذهب إلى القانون بجورب القانون» ، قالت وهي تخلع جورَبها ، فوجدت الجرحَ هيِّناً . أعادت لبسَ الجورب : «سأدعو أكراد ستوكهولم ، وأُبْسَالا إلى التظاهر» .

«أليس الأجدى رفْعُ طلبٍ بتغيير اسم الشارع إلى البلدية ، ياملكة السويد؟» ، ساءلتها زليخا الممسوحة الردفين ، بسخرية لايحجبها صوتُها الرقيق ، الجاد .

«بلدية؟! . أية بلدية؟» ، ساءلت تاسو نفسَها باستغرابٍ مُلفَّقٍ . تلفتت بوجهها ، من مجلسها على الأرض المغلفة بقشرٍ من الخشب الصقيل : «إلى أية بلدية تتبع رنكبي ، في السويد؟» .

«بلدية مَقديشو» ، ردت ذات الأظافر المقضومة ، الدعجاء العينين ، نازلي .

«يامقديشو ياقلبي» ، ترنَّمت شيراز رحماني ، المحتفظة برشاقة ملحوظة ، فاستثارت خُبثاً في لسان زنتانا حسن ، التي تظن أن لها نَسَباً إيرانياً :

– الواضح ، ياناز لي ، أنك تذوَّقتِ قضيباً أسودَ ، طويلاً ، تستطيع درخو أن تدون عليه تسعة عشر سطراً من شِعرها الكردي .

خشخشت أساورُ الخرز في معصم درخو وهي تدفع بصحنها في ظهر

زنتانا : «الواضح أنك تذوَّقت قضيباً أسود دوَّنت عليه ، بفمك الواسع ، تسع عشرة قُبلة ، من كمرته إلى خصيتيه ، يامخلَّلة الفرج» ، في تلميح إلى كرديَّيْن تزوجاها تباعاً ، كانا يستوردان مخللات من تركيا .

«أوقِفْنَ قليلاً كلامَ القِحَاب هذا . ظننتُ الصغيراتِ ، فقط ، يتحدثن هكذا» ، قالت شتولا ، وهي تفتح علبةَ جعةٍ صفيحية .

«منذ متى تعاشريننا ، ياشتولا؟» ، ساءلتها شيراز ، التي لاتتبرَّج إلاَّ بكحل على أجفانها . «ثلاث سنين» ، قالت مستطردةً . «ألم تلحظي أننا كلَّما خذلتنْا أجسادُنا باتت السنتُنا أكثر طلاقة في التعويض على هذه الفروج المخذولة بين أفخاذنا؟» . ضحكت . «نتحدث مثل قحاب . نعم . جسدُكِ الفتيُّ يتصرَّف كقحبة في السرير . أما أجسادنا فلها الوحدة الطاهرة . أسِرَّتنا للنوم الطاهر . فروجُنا للنوم الطاهر» . ضربت براحتها على صدرها العارم الشرس : «أسعفيني بقضيبٍ مجاهدٍ ، ياشتولا ، وخذي مني لساناً عفيفاً كلسانِ وليٍّ» .

«لاتوجد قحبة في هذه الحياة» ، قالت تاسو . رفعت طرف قميصها عن شحم كشحها الأيمن ، المنفلت من نطاق البنطال . حكَّت الشحمَ : «لم يخلق الله قحبةً ، في هذه الحياة ، بعدُ» .

«في أية حياة ستوجدُ القحبةُ ، إذاً؟» ، ساءلتها نازلي .

«في الآخرة» ، ردت تاسو .

سقط بعضُ الأسطوانات المدمجة ، الصغيرة ، من رفٍّ في المستطيل الخشبي ، الثابت على قاعدته ، حين سحبت راوَتْ خليل ، المتصبِّبة ذهباً من شَعر المبالَغ في صباغه ، قُرصاً . «سأسكتكنَّ بموسيقى تخطف البظرَ من عرين الأسد بين أفخاذكنَّ» . وضعت القُرصَ في الآلة الرقيقة الجسم ، المسطحة ، المتقشِّفة الأحشاء .

انطلقت حنجرةُ المغني ، بزعيقٍ لاتمهيد له . ارتعشت أوتار الطنبور هلعاً من حنجرة المغني ، الشعبي ، ملك أناشيد الغربة ، واللوعة ، والهجران ، والغرام الطاحن كالمثقاب الكهربيِّ الرَّجراج في حَفْرِ الإسفلت . تقوَّض الصوتُ في الآلة مطحوناً بعضهُ على بعض . التحم الصوتُ . تجانسَ ثم انخلع كعصبٍ . صراخُ المغني ، حارسُ الروح الكردية الشعبية ، زلزلَ فراغَ الآلة الهَلعة . صوتُه الهياجُ بلغ بذبذباته اللاسِعة حديدَ الأساسات في العمارة . اتَّسع الطربُ وَهَجاً .

ردَّد بعضُ النساء تأوُّهات متزحلقةً على زيت قلوبهنَّ . «مزِّقْ أكبادَنا» ، هتفْنَ بالمغني ، الذي كاد يفتِّتُ الآلةَ بانتفاخ حوصلة غنائه .

«مزِّقِ اللوحَ ، الذي يحمل اسمَ الشارع» ، صاحتْ تاسو .

« إذا غيَّرتِ اسم هذا الشارع ، سيطالب الصوماليون بتغيير أسماء الشوارع كلها في رِنْكبي ، ياتاسو . ستظهر جمهورية صومالية في رِنكبي» ، قالت ريحاني ، وهي تشعل لفافة تبغ من أُخرى ، بفمها نصف الممتلئ طعاماً .

«سمعت أن الصوماليين يطالبون بمراحيض إسلامية في أماكن عملهم» ، قالت زليخا .

«أماكن عملهم؟ . أين يعملون؟» ، ساءلتها تاسو .

«ليس الصوماليون من يطالبون بهذا . أنتِ تخلطين ، يازليخا . في بريطانيا يطالب الباكستانيون المتدينون ، والمغاربة المتدينون ، وأشقاؤهم ، وأخواتهم ، بمراحيض إسلامية في المعامل ، والمصانع» ، قالت ريحاني .

«ماالمراحيض الإسلامية؟» ، تساءلت راوَت .

«لاأعرف» ، ردت ريحاني .

«هل ستصل عدوى بريطانيا إلى رنكبي؟» ، تساءلت راوت .

«ربما . قد يصل الأمر إلى مطالبة البعض بمساجد في مدارس السويد ، ودور الحضانة» ، قالت ريحاني .

«مطَّت شيراز رحماني قميصَها القطني على جانبي صدرها كي يتنفَّس ثدياها العارمان : «كم مسجداً في رنكبي؟ ثمانية وثلاثون؟» ، تساءلت .

«ثمانية وثلاثون؟ أأنتِ جادة؟» ، ساءلتها راوت .

«أقل بقليل من ذلك . رنكبي هي مكَّةُ الدول الإسكندنافية ، وثلاثة أرباع أوروبا» ، قالت تاسو . رفعت إلى فمها كأسَ النبيذ الأبيض ، الذي لايشربه غير درخو . تذوَّقته ممتعضة من مذاقه . خطفت درخو الكأس من يدها : «لاتلوِّثي ماءَ الفردوس . لايليق بك إلاَّ شراب نُقعَ فيه التبغ» .

«سيصل قراصنة الصومال إلى بحيرات ستوكهولم ، قريباً» ، قالت ريحاني ، ذات الشال المنسدل عن كتفيها .

«وصل الأكراد ، فلماذا لايصل الصوماليون؟» ، ساءلتها سلام ، ذات الشعر البنيِّ المصبوغ بعض خُصله فضَّةً .

«وصل أكراد ، لكن ليس قراصنة أكراد» ، ردت ريحاني .

«الأكراد قراصنة ، أبداً . ألم يكن نابليون قرصاناً؟» ، ساءلتها سلام .

ضيَّقت ريحاني بين أجفانها استغراباً . مسحت فمها بمنديل ورقيٍّ عليه نجوم ذهبية مخذولةُ الرسوم .

«نابليون؟ كيف خطر لك نابليون؟ صديقاتك يشربن نبيذي القاتل ، وأنتِ تسكريْن» ، قالت ريحاني .

«أأنت تقتليننا بالنبيذ الذي تصنعينه في بيتك ، ياريحاني؟» ، ساءلتها نازلي ، فردت ريحاني : «أنت تشربين الجعة . لم تجربي نبيذي بعد . يُسْكِر من لايشرب وهو على بُعد مترين من كأسٍ منه ، مثل سلام ،

التي جاءتنا بنابليون» .

«أمُّه كردية» ، قالت سلام .

«أمُّ نابليون؟» ، ساءلتها زنتانا وهي تبعج في قبضتها علبةَ الجعة المعدنية الفارغة .

«ربما تعني أمَّ الإسكندر الكبير . أمُّ الآسكندر كردية ، ياسلام ، وليست أم نابليون» ، قالت درخو مصحِّحةً نوافلَ التاريخ الصغيرة .

«والله ، كل شيء كان كردياً في هذا العالم قبل انقلاب الأكراد على الله» ، قالت تاسو .

«أيُّ انقلاب ، أيتها العالِمة الإلهية؟» ، ساءلتها درخو ، وهي تملأ كأساً من نبيذ ريحاني معبَّأً في حاوية 7up بلاستيكية .

«أن يحافظوا على أنفسهم بلا تاريخ . كل من لاتاريخ له يُعِدُّ انقلاباً على الله» ، قالت تاسو .

«التبغ التركيُّ المهرَّبُ إلى السويد يُلهمكِ الفلسفةَ ، ياتاسو» . هزَّت درخو رأسها مع كلماتها .

فكَّت تاسو زرَّين في نطاق بنطالها ، فوق البطن : «لاتاريخ لنا ، لذلك يحقُّ أن نسرق أمَّ نابليون ، وأم الإسكندر ، وأمَّ البشرية» ، قالت .

«لماذا تكتَفين بالأمهات؟» ، ساءلتها زليخا ، ذات القبعة المخمل السوداء ، الأيرلندية ، الممسوحة الردفين ، فردت تاسو :

- إن ذكرتُ آباءَ البشرية ، فلن يضيف ذلك شيئاً إلى عظمة الكرد . الأكراد آباءٌ دائماً . ولدوا آباءً .

«وماذا عن الأمهات الكرديات؟» ، ساءلتها ريحاني .

«الكردياتُ آباءٌ . ولدن آباءً . تخرج الكردية من فرج أُمها أباً ، لاأُماً» ، ردت تاسو .

«أرِنْنا زُبَّكِ ، ياتاسو» ، قالت درخو .

فكَّت تاسو زرين آخرين في بنطالها فانكشف طوقُ سروالها الداخلي . تحسَّستْ ملتقى فخذيها . هزَّت رأسها أسفاً : «أنتنَّ غيرُ مثيرات . لم ينتصب زبي بعد» .

رن هاتف تاسو المحمول ، في جيب بنطالها . رنَّةُ الصوت مضبوطةٌ على الإيقاع ذاته لترنيمة بوق سيارة بيع «الآيس كريم» الجوَّالة . صوت تعرفه مملكة السويد في أركانها الظاهرة والباطنة ، كل يوم من أيام السنة . القشدةُ المجلَّدةُ ، بنكهتها الملتزمة والعدمية ، تلطِّف من خيارات الجليد في الذهاب بعيداً إلى الفوضى ، وتلطِّف من خيارات الصيفِ الرطب ، المطر ثُلُثُه ، في الذهاب بعيداً إلى العصيان . تاسو تأنسُ إلى الرَّنَمَة القصيرة ، المكرورة ، في النشيد المُعْلِن نداءَ النكهات الباردة الجوَّالة . «أسمعُ قامشلو» ، تقول . لايعنيها تدبير مايؤكِّد رقمَ المصادفةِ الجامعَ بين أرقام مَوْلِد سيارة القشدةِ الحلوى المجلَّدة في السويد ، وبين أرقام ينتسب إليها تاريخُ ظهور قامشلو كصوتٍ ، بعد ظهورها أرضاً عُمراناً غادرتها تاسو قبل أربع وعشرين سنة . «أسمع قامشلو» .

– ماذا يشبه صوتُ قامشلو؟

– يشبه مأفكر به من غير أن أفكِّر .

تسعة أيام ، بجَمْع شذرَةٍ من النغم إلى شذرة ، تدبَّر كُوسْتَاكُوستاليادي ، اليوناني الأَصل ، تِقَنيٌّ الخصائص الثعبانية في طباع الهَواتف المحمولة ، ترنيمةَ هاتف تاسو ، مسْتنسَخةً عن النداء المُحْكَم لمرْكَبة بيع القشدة المجلَّدة ، ذات الطبع الجوَّال .

«ألو» ، همست تاسو في أذن الغيب الصُّلبة .

رنَّ ، في البرهة تلك ، هاتف درخو : صياحُ ديكٍ أَعلن ، من جوف

الآلة الصغيرة ، فجرَ الصوت الخالد . رنينُ هاتف درخو مضبوط على النَّبر الواثق في حنجرة الديك . هاتفُها ديكٌ . الوقتُ ، بجلاله وطيشه ، مقسوم مناصفةً بين الفجر والمغيب . ليس بين الفجر والمغيب سياقٌ غير أَشعار درخو تكتبها بالكردية صاخبةً ، وتترجمها إلى السويدية مهموسةَ .

«ألو» ، قالت درخو بصوتٍ مستنكِرٍ ، كأنما اعترضتْ خيالَها المُحَلّى فقاعةٌ من صورٍ مُرَّة .

رن هاتف شتولا الفضي : صوت منشار وتأوُّهات ، في نسقٍ لاضابطَ لمزيجه . صرختْ زليخا : «ألم يتناقص عددُ العاهرات في هذا المبغى ، الذي تستمعين إلى أسرَّته؟ مايُطربكِ في صوت المنشار ، وصوت غَلَيان المنيِّ؟» .

«أُحب رؤية تلك المباغَتة في العيون حين يرنُّ هاتفي في القطارات ، وأنفاقها : المفاجأةُ أولاً ، ثم الإعجابُ الخافت من ابتسامات ينتعظ بظرُها . هاتفي مُسلٍّ . ماالهاتف إن لم يكن مسلياً؟ ضعي نحيباً ، يازليخا ، في خصية هاتفك ـ نحيبَ مُطلَّقةٍ بلا ردفين» ، قالت شتولا الواسعة العينين . ازدردت نبيذاً بنهمٍ ، وأعقبته برشفة من علبة الجعة .

«أتسخرين منّي ، يامفلوجة البظر؟ . لم ينفعك ردفاك القويان ، الفَتِيَّان ، في استدراج أير إلى مزاد اللحم فيهما» ، قالت زليخا المُهانة .

«أوقفن هذه الهواتف ، التي أشعلت حرباً» ، صاحت نازلي من فمها الواسع . «كيف بلغت هواتفكن هزَّةَ النيك ، في البرهة ذاتها؟» ، أضافتْ .

«حبذا لو قَدِرَ هاتفي أن يبلغ هزةَ النيك ، يانازلي . اشتريتُه باثني عشر ألف كرون ، ولم يزل صامتاً منذ يومين» ، قالت سلام ، الصغيرة الثديين .

«إثنا عشر ألفاً؟!!» ، تساءلت زنتانا بذهول . قلَّبت بصَرها بين وجوه صاحباتها : «من أيِّ فرْجٍ جمعتِ ثمن هذا الهاتف؟ . أتتصلين منه بالله ،

وبأسلافك الموتى؟» .

موَّجت ريحاني ، بأصابعها المطوقة بكثير من الخواتم الفضة ، طوقَها الذهبيَّ المتدلي على صدرها ، اعتراضاً بالصوت الذهبيِّ على أصوات النداء الفظَّة ، المهرِّجة ، في أعماق الهواتف الثلاثة الناطقة . «كنتُ سأسجِّل هذه الخشخشةَ رنيناً لهاتفي ، لكن حمقاوات كثيرات لن يفرِّقن بين المعادن الخسيسة والمعادن المَلكية» .

«المهم أنك تعرفين أنها خشخشة الذهب ، ياريحاني» ، قالت زنتانا ، الواسعة الفم أيضاً كصاحبة العينين الدعجاوين نازلي .

«لايكفي ذلك» ، ردت ريحاني .

«كفاية ، أمْ غير كفاية ، لايهم . الذهب الذي في عنقك زائد عن اللزوم» ، قالت زنتانا .

«خُلقَ عنقُ المرأة للذهب . خُلقَ الذهبُ ليكون أوَّلَ من يلمس ثدييها» ، قالت ريحاني .

«بل خُلقَ الذهبُ للتهريب» ، قالت تاسو ، وهي تغلق هاتفها .

«كيف التقطتِ حديثَنا ، وأذنُك على كَمَرة هاتفك ، ياتاسو؟» ، ساءلتْها سلام ، وهي تمسِّد بهاتفها المزعومِ ثميناً ملتقى فخذيها بحركةٍ ساخرة .

حكَّت تاسو ، بدورها ملتقى فخذيها بالهاتف رداً على حركة سلام . أكملت مابدأته : «خُلقَ الذهب للتهريب . النساء السريانيات ينقلن نقودهن ، المخزونة تحت الأسِرة ، إلى سوريا ، وقد اشترين بها ذهباً يطوِّق أعناقهن ، وسيقانهن ، ومعاصمهن ، وبطونهن . لاتستطيع شرطة الجمارك السويدية حجز ذهبهن . إنها مقتنَيات شخصية ، مثل العطر ، وأحمر الشفاه ، والجوارب . النساء السريانيات سيستنفدن خزائنَ الذهب عند

صائغي السويد» .

«أتظنين أن الجمارك لاتعرف ماتعرفين ، ياتاسو؟ . الذهب ذهب . كثرته في عنق امرأة مسافرة إلى سوريا تثير الشبهة» ، قالت ريحاني ، وهي تداعب السلسلة السميكة الحلقات على صدرها .

«تعرفين السويد ، وأهل السويد . يحذرون المساسَ بأي شيء يعتبر مقدساً عند الغريب ، أو هو من تقاليد الغريب في أرض أمه وأبيه . قولي للجمارك السويدية إن الذهبَ شرفُ المرأة . هذا يكفي لكي يتغاضوا عن نَقْل طُنٍّ من الذهب إلى سوريا . يشترون الأراضي في سوريا بذهب السويد» ، قالت تاسو .

«أتكرهين أُمَ الأرض كلها ، ياتاسو؟ مايصنعه السريان من رقائق العجين باللحم ، في منطقة فِتْيا ، يعيد الروحَ إلى اللسان» ، قالت راوت الذهبية الرأس ، فردت تاسو باحتقار :

– أم الأرض؟ . كل أُمة ، إذا لم تقدر أن تنهب الأمة الأخرى عَلَناً ، تتحول إلى أُمة لصَّة فتنهب . هذا قانون . كلنا ولدنا إمَّا غزاةً ، أو لصوصاً .

«في أية جامعة حصلتِ على علومك هذه ، ياتاسو؟» ، ساءلتها درخو ساخرةً ، من تحت أنفها ، ذي القصبة المتقعرة .

«درستُ هذا على مسام جلدي ، من سُرتي حتى حفرةِ عُمري الجافة بين فخذي» ، ردت تاسو .

«خشخشْ ، أيها الذهبُ» ، قالت ريحاني كأنما تقاطع حوارَهما ، وهي تداعب السلسلة ، السميكة الحلقات ، على صدرها ، بخشونة : «أسْكِتْ نساءَ الكرد ، أيها الذهب» .

«ياريحاني ، سترجعين إلى بيتك ، ذات يوم ، بلا عنق . سيخطفهُ ، بالذهب المُعلَّق إليه ، كرواتيٌّ ، أو بولنديٌّ غجريٌّ ، أو فنلندي ، أو بلغاري ،

أو هنغاري ، أو روماني ، أو ليتوانيٌّ» ، قالت نازلي ، وهمَّت بالاستطراد فقاطعتْها تاسو مضيفةً :

– أو سرياني ، أو أرمني ، أو إثيوبي ، او باكستاني ، أو بنغالي ، أو سريلانكي .

أبدت ريحاني مَرَحاً : «سترجعين إلى البيت حاملةً رأسك تحت ثوبك» .

أعادت درخو سيرةَ الكلمات المتفجرة رملاً إلى السطر ، الذي بلغته تاسو :

– من ذكرتِهم ليسوا أوروبيين . فلنبقَ في أوروبا ، ولنرَ من المرشَّح الأوفر حظاً لخطف عنق ريحاني .

لم تتمهل تاسو . ردت :

– تركيٌّ ، أنا واثقة .

«لم يصرِ الأتراكُ أوروبيين بعد» ، ردت درخو .

«ماهي أوروبا؟» ، تساءلت تاسو باستخفاف ، فاتحةً راحةَ يدها اليسرى تتلقَّف قارَّةً منتزَعةً من غيهب الأعالي المائية : «والله ، يلزم أوروبا ألفُ سنة أخرى لتعرف ماهي أوروبا . إسرائيل صارت أوروبية في مجْمَع الأغاني . مملكة المغرب تطالب بالجنسية الأوروبية . قدمُ تركيا عالقة بين دفتَيْ باب أوروبا . أولادي أوروبيون ، الآن» .

قرقعت علبةُ الجعةُ الصفيحُ في يد شتولا منفتحةً عن رغوة العقل الأشقر لشراب الشمس : «الأكراد هم آلهةُ أوروبا» ، قالت الشابة ، ذات القميص القطني المتقلِّص عن سُرَّتها السَّكْرى .

«ماذا؟» ، ساءلتْها زليخا من وجه غطى نصفَه دخانُ لِفافتها .

لم ترد شتولا على زليخا . حدَّقت إلى الرغوة سائلةً من العلبة

الصفيح على أصابعها المُطبقة عليها . لعقتْها : «فُوري . آخر قضيب طوَّقته بيدي فارَ هكذا» .

«قحبة» ، تمتمت زليخا .

«ماذا قلت؟» ، ساءلتْها شتولا بعينيها الكبيرتين وقد تثاقلت أجفانُها قليلاً من خلْط الأمزجة الشمسية في الجعة والنبيذ .

«الأكراد . مابهم الأكرادُ؟» ، قالت زليخا .

«خلقوا أوروبا . الميتانيون الكردُ سموا أوروبا باسمها حين كان واضحاً أن اليونانيين لايعرفون أين تقع بلادهم ، بالتحديد . الأكرادُ تعلَّقوا بأرض اليونان الطائرة في الهواء فأنزلوها لتستقر على ماء المتوسط . الكردُ هم آباء أثينا» ، قالت شتولا . تجشأتْ . «فلتُعِرْني إحداكن لفافةَ تبغ . نفدت علبةُ تبغي ـ الخصية» .

«سمعتُ شيئاً من هذا» ، قالت تاسو معقِّبةً ، وهي تضع صحوناً عليها بقايا طعام فوق صحون أُخرى .

«لم تسمعي شيئاً من هذا ، قبلاً» ، قالت شتولا . أردفتْ : «أنتِ لاتسمعين» .

«مابكِ ياعصفورة السويد؟ سمعي أكثر حدَّة من سَمَع فرْجك» ، قالت تاسو مبتسمةً .

وسَّعت درخو لساقيها امتداداً بين الصحون المُهملة ، بعد الشبع ، على المنضدة بين الأريكتين ، فأعانتها تاسو بإبعاد بعض الأكواب ، والمناديل الورق : «أراك تنامين . لم تبلغ الساعةُ التاسعة ، بعد يادرخو» ، قالت .

تنهدت درخو : «أمضيتُ عمري أكتب شِعراً عن الفجر ، ولايلتفت إليَّ أحد . تأتي أنثى شرقية ، فاشلة في ارتداءِ ثيابها ؛ فاشلة في الطبخ ؛ فاشلة في النيك ؛ فاشلة في التدخين ، إلى سوق الأدب كملاذ أخير

لإنقاذ نفسها من الفشل . تكتب شيئاً عن طاحونة فرْجها ، فيحصل مايحصل . أتعرفن مايحصل؟ : ترتمي أوروبا مذهولةً على قدميٍّ الكاتبة الإلهية بالترجمات ، والدعوات ، والصلاة لها في مجالس نوَّاب دولِها . تُفاجَأُ أوروبا ، كلما تحدَّثت كاتبة شرقية عن فرْجها ، أن هنالك شيئاً يُدعى الفرْج . أوروبا لم تسمع بالفرْج . كاتبات الشرق الرديئات فتحن عيون أوروبا على قارَّة جديدة في هذا العالم ـ قارَّة من لحم ؛ قارَّة صغيرة من لحم إن أكلتْها قطَّة سويدية لماتت مسمومة . تفو علَى القارات» ، قالت درخو باستياءٍ جافٍّ كطعم النبيذ الأبيض ، المصنوع في حمَّام ريحاني . أنزلت ساقَيْها عن المنضدة متحفِّزةً لاقتناص جرح حائم حول قلبها : «أوروبا تنتظر من يصف لها فرْجاً ، مُذْ صارت بلا خيالٍ في النيك» .

«كيف تجمعين كلماتٍ كهذه ، يادرخو؟ . أنت أفضلنا كلاماً» ، قالت نازلي ، وهي تقضم بقية أُظفرٍ نجا من أسنانها . نقرت شتولا بعقبِ علبةِ الجعة الصفيح على مسندِ كرسي بجوارها :

- انتظري . انتظري يانازلي . قالت درخو شيئاً فيه تزوير .

«تزوير؟» ، قالت درخو ، التي تكتفي بالمراهم العَطِرة على جلدها ، ولاتستخدم عطراً . «تزوير ماذا ، ياعصفورة السويد ـ شتولا؟» .

«لاخيالَ لأوروبا في النيك؟ . أوروبا ربَّةٌ من قدَّم للعالم فنون اللَّعق ، والَمصِّ . ألم تشاهدي فِلْماً إباحياً؟» ، قالت شتولا الناعسة العينين .

«هذا ليس فناً . لاخيال في هذا» ، قالت درخو بلا حماسةٍ في الشرح .

«والله ، يادرخو ، أنتِ شاعرة تبدأيْن مما لاتعرفين ، وتنتهين إلى مالاتعرفين» ، قالت نازلي ناظرة إلى ساعة يدها . مسَّدت فَخذَ درخو المثلثة براحة يدها : «تاسو حاقدة على اسم الشارع . لم نفهم . أنت

حاقدة على أوروبا . لم نفهم» .

«أنا حاقدة على أيري» ، قالت درخو في كسل ، ناظرة بدورها إلى ساعة يدها .

«لكِ أير . لتاسو أير . أكشفا لنا عن سنتيمتر منهما يَعْفُ الله عن آثام أسلافكما كلهم» ، قالت زليخا .

«سأمضي إلى البيت» ، قالت راوت . «قطارات السبت تتلكأ بعد التاسعة ليلاً» . قبّلتْ تاسو مودّعةً . ارتدت سترتها الخضراء ، الضيقة عند الخصر . ارتدت حذاءَها . لوّحت للأُخريات . «نلتقي عند نازلي ، مساء السبت القادم» . أطبقتِ الباب خلفها في هدوء ، منسلّةً على وهج شعرها الذهبي .

صمتت صالةُ الجلوس المستطيلة قليلاً . مالت درخو على شتولا : «بيتك بعيد ، ياعصفورة» . لم ترد شتولا الناعسة العينين .

«دعيها» ، قالت تاسو . «أرى الأفضل أن تنام عندي . نبيذ ريحاني كافرٌ» . تقدمت صوب آلة الطرب لتلقّمه قُرصاً جديداً من الموسيقى - العويل ، فاعترضت درخو : «إعفي جلودَنا . بدأتْ جلودنا تتقرَّح حزناً» ، فرفعت تاسو كتفيها حياداً : «لاموسيقى يعني لاموسيقى» . غابت في المطبخ لتعود بقدح كبير من القهوة . جلست على كرسي ، إلى جوار الأريكة الرمادية ، فطقطقت مفاصلُ الكرسي . فتحت شتولا عينيها على وسعهما تستعيد الخيوطَ المنفلتةَ من يقظتها جديلةً : «سأنام هنا . إملأي قَدَحي ياعزيزتي درخو» .

امتلأ القدحُ الخاص بشرب الماءِ نبيذاً سقسقتْ فقاعاتُه الخفيفةُ بلسان الخميرة القوية . اعتدلت شتولا ، المرتخية ، في جلستها :

- باتوا يشرِّعون في بلاد المغاربة ، على الأنترنت ، زواجَ البنات في

العاشرة من أعمارهن . خُصى أئمةٍ مسعورةٌ . سيأتي يوم يفضُّ فيه ذوو اللحى كلَّ طفلة في شهرها العاشر .

«فُروج طرية ، ياشتولا» ، قالت درخو . «فروج طرية ستنضج ، في هدوء ، على جمر أيورهم» .

«أوافقك ، إذاً» ، ردت شتولا .

«ياقحبة» ، تمتمت زليخا همساً .

«ماذا قلتِ؟» ، ساءلتها شتولا غير متأكدة من الكلمة ، فألهتْها زنتانا ، اللامدخِّنة ، التي تستطيب استنشاق دخان التبغ :

– الدِّين يسمح بذلك .

«مادمتِ فقيهة في الدين ، ماذا سيحدث لفروجنا في الجنة؟» ، ساءلتها شيراز المكتفية من التبرُّج بكحل حول عينيها الخضراوين ، المشوبتين بصُفرة ، فردت زنتانا :

– لقد فاتَها أن تصلحَ للجنة . فَرْج جاوزَ الأربعين فرْجٌ منتحرٌ .

«معك الحقُّ» ، قالت سلام . «مانفْع فُروج كفروجنا في الجنة؟ لاوقت عند الرجال من أجلنا . تنتظرهم فروجٌ ضيقة كشرج الدجاجة . لاقُبَل . الرجال لايحتاجون في الجنة إلى تقبيل الإناث . لاوقت للقُبل . صفوف الفروج المنتظرة لاتسمح بإضاعة وقت في التقبيل . أيورٌ لاترتخي» .

«كأنك عدت من هناك ، ياسلام ، تواً» ، قالت درخو . أردفت مرتشفةً نبيذها : «سنكون في الجحيم حتى لو دخلنا الجنة . سأصلِّي ، في هذه الحياة ، أن تصلني جِلْدةُ أير يفجِّر نفْسَه منتحراً» .

«أين؟» ، هتفت تاسو» . «دليني على أَير ينتحر متفجِّراً . سأقدم له أعضائي كلها بطيبة خاطر . سأدله على مكان يُحْدِثُ انفجارُهُ تدميراً يصل دويُّهُ إلى سماء الجنة» .

«إذهبي إلى أفغانستان ، أو باكستان ، أو العراق» ، ردت سلام . تنحنحت درخو : «يابلهاء ياسلام . وصل الانتحاريون إلى كل شارع في أوروبا . أيور تنفجر على الأرض فتقذف بشظايا خُصاها إلى ممرّات الجنة . ربما تلمحين ، كل يوم ، بعضَ من ينتظرون تفجير أيورهم ، ولاتنتبهين . رأيتُ رجالاً في القطارات بثياب طالبان ولِحاهم . ياالله . أوروبا انتهت» . تجرَّعتْ بقيةَ النبيذ في قدحها : «قلت للمحقِّق السويدي مع طالبي اللجوء ، اسألْهم إن كانوا يقبلون بتزويج بناتهم لسويديين ، فتأبَّى حَذراً من الخروج على قواعد الأسئلة . ردَّ : ليس من صلاحياتي طرْحُ سؤال يبلبل طالبَ اللجوء» . مطَّت صوتَها الخشن : «صلاحيات؟ . بعض طالبي اللجوء يسألون ، وهم يطلبون منَّا مَلءَ استمارات طلباتهم : أين المسجد؟ . ستصير السويد مسجداً على أعمدة من جليد وإسمنت ، من لابلاند إلىَ لُوْنْد ، وستطير في باحات هذا المسجد عقاعيقُ ABBA بدل حَمام مكة» .

تَنسَّمتْ زنتانا بلاغةَ الدخان الصارمة وهي تنتشل الهواءَ الركيكَ ، في الصالة ، من ركود تاريخه . لدخانِ التبغ منطقُ المستبدِّ بلا صلافة . دخانٌ يرضي الخصمَ بلباقة انتسابه إلى مالايشبه دخانَ الحرائق . البخُّور ، وحده ، يُسْتَنشق بأريحيَّةٍ في نشأته كعقلٍ من صمغ الشجرة الأولى ، المفقودة من حدائق الفردوس المفقود . وهاهو دخانُ التبغ يختلس من البخُّور أحدَ أختامه ، ليدعم برُسُله ، محموليْن بهذا الختْم ، سطوةَ قضمٍ متواصلةٍ لجغرافيا الروائح المُصنَّفة بشارةً بميثاق الحريق .

مايحترق لايُسْتساغُ دخانُه عادةً : الرمادُ عقابٌ في منطق النار على جراءته أن يكون خيالَ النار ، وصداقتَه اللامُحْتَملَه . دخانُ مَايحترقُ هو لوعةُ مايحترق ، إلاَّ البخور : دخانُه جلالُ ابتكاره الرمادَ ذاكرةً لرائحة الجلال في الغامض الجليل .

بدأبِ النَّبات العارف خصِّيصَةَ القويِّ فيه مهَّد التبغُ لنفْسه نبوءةَ المُرشد إلى بلاغةٍ أخرى للدخان على تخوم البخور . تمدَّد بلا قهْر . توسَّع وغَلَبَ بلا صلافةٍ . طوَّق البخورَ في أرجاء شاسعة من إمارات البخور ، ومقاطعاته ، ودُوْرِه المشرَّعة الأبواب والموصَدة . أرْضَخَه ، بلا صلافةٍ ، لقِسْمة النشأة الجديدة للدخان المعجزة .

نُسِب إليه المكر . نُسِبتْ إلى التبغ مجازاتُ المكر ـ اللذةُ والقتْل . حوصِر كدِيْنٍ مبشِّراً بإله لخيالِ الدخان . لم تتفق أُمٌّ ، هكذا ، على مجابهاتٍ توحِّدها كمجابهاتها التبغَ : حوصِرَ مريدوه . اعتُقلت الأمكنةُ ، التي تواطأت معهم على تَرَف الدخان الجديد ، حتى التجأوا إلى كهوفهم الأولى هرباً من نمور الشرائع ؛ هرباً من استرقاقهم في الحلبات كخَلْقٍ ارتدُّوا عن ميثاق العافية . لكن لن يزعم أحد ، حتى بزوغ فجرٍ جديد من علوم الدخان الساحر ، وغواياته ، أن المسألة سُوِّيتْ ، وأُغْلِق السجلُّ .

علا صوتُ الإيذان بقدوم مركبة بيع المثلَّجات قوياً ، مقاطعَ موزونةً كالساعات ، في ذلك الليل المتهيِّىء للتشدُّد ، مذ عاد النهارُ متقشِّفاً آخرَ الصيف ؛ ضيِّقاً ؛ نحيلاً من صيام النّور المُبكر في شمال الأرض . «ضلَّ بائع المثلجات طريقه إلى البيت» ، قالت تاسو . هزت رأسها امتناناً : «لكن مركَبَته تنعشني بمذاق الزنجبيل في ترنيمتها» .

نهضت شيراز عن الأريكة الخضراء لتجلس أرضاً ، مستندة بظهرها إلى الحائط : «الجلوس على الأرض ينفع عظمَ الحرقَفة في وَرْكي اليمنى . ياالله . جسدي يتذكر ، بعد كل هذه السنين ، طعنةَ المدية يغور نصلها من الردف حتى عظم الورك . انخلع قسم منه ولم يلتئم» ، قالت .

«أنتِ تتوهمين» ، قالت ريحاني .

«مالوهم في إحساسي بالألم؟» ، ساءلتها شيراز .

«من أخبرك بحكاية الشاب ، الذي طعن بطن أمك وهي حاملٌ بكِ؟» ، ساءلتها ريحاني ، فردت شيراز :

– أمي .

«قلتِ ، قبلاً ، إنَّ زوج أمكِ أخبركِ» ، قالت ريحاني ، فردت شيراز مستغربة :

– لم أقل ذلك .

«كل مرة تسردين حكاية الطعنة هذه تضيفين تفصيلاً جديداً ، ياشيراز» ، قالت ريحاني .

«سأخرس» ، قالت شيراز ممتعضةً . «صار معيباً أن أخاطبكنَّ» . أنزلت بصرها إلى الأرض بإعلانها قطيعةً لن تدوم . همهمت بصوت منتفخ : «هاتي قدحاً من القهوة ، ياتاسو . تحرَّكي كي تحرقي قليلاً من الشحم» .

نظرت اليها تاسو بلا عتبٍ : «أتريدينها بالحليب ، كالعادة؟» ، ساءلتْها .

«لماذا تتظاهرين دائماً أنك تنسين كيف أشرب قهوتي؟» ، قالت شيراز ، فأبدت تاسو استسلاماً : «بالحليب ، طبعاً ، ياأميرة» .

« وبقليل من المنيِّ» ، أضافت شيراز موبِّخةً .

«سأستمني لك في القدح ، إذاً» ، قالت تاسو متوجهةً إلى المطبخ .

تثاءبت نازلي . غطت فمها بزَندها . «دخنتُ كثيراً هذا اليوم . علبتان ونصف العلبة من التبغ . أشمُّ من عظامي رائحة التبغ» ، قالت . نهضت . صحَّحت نطاقَ ثوبها ، الأسود الطويل ، حول خصرها : «لماذا نعيش في بيوت ، وليس على الطرقات؟ . في مستطاعي أن أتمدد على رصيفٍ هذه الليلة» .

«لسان البلاهة» ، علَّقتْ ريحاني ذات الشعر الشديد السواد صِبْغةً :

«لافراش يعادل فراش البيت» .

مطَّت نازلي مفاصلها ، كأنما استيقظت تواً من نوم مريح : «الطريق إلى البيت مرصوف بأعقاب لفافات التبغ . سأحتمل المسَّافة مادمت أتنشَّق رائحتها» . نثرتْ حفنةً من القُبلات المجفَّفة في اتجاه صويحباتها ، وهي ترتدي سترتها السوداء ، وحذاءها ، خارجةً من الباب .

صفَّرت نازلي بفمها قرب المصعد ، الذي لايحوجها أن تستخدمهُ ، نغماً خافتاً . ابتسمت الردهة الكئيبة للعمارة ببلاطها الرمادي ـ أسيرِ العقلِ الشاحب .

أُوصدت تاسو البابَ وراءَ كلماتِها المودِّعة . أدارت عينيها على الوجوه : «من منكنَّ تريد قهوةً؟» ، ساءلتِ النساءَ المسترخيات ، فلم تردَّ أيٌّ منهنَّ . «مامِنْ كرديةٍ ينتعظ بظرُها ليلة السبت» ، قالت ساخرةً . توجهت إلى المطبخ لجلب قهوة لنفسها .

طقطقت زليخا بأصابعها طقطقاتٍ ـ إيقاعاً ساخراً : «نريد أُغنية تبلِّلنا ، ياتاسو . بدأنا نجفُّ» .

خرج ابنا تاسو ، رند ، وَهسْ ، من إحدى الغرف إلى الصالة . جمعا لنفسيهما شراباً ، وبعضاً من كُرات اللحم المقلية ، ثم عادا إلى حصنهما المطوَّق بملائكة الكمبيوتر وألعابه الإلهية . غمزتهما شتولا قبل أن يغيبا في الممر الصغير : «ألا تريدان لحماً طرياً» ، ساءلتهما بخبث نعسانَ كعينيها ، فلكزتْها درخو موبِّخةً : «ستقتلك تاسو . خُصاهما فسّتقٌ لم يُحمَّص بعْدُ» .

«يكفيها أن تُمَلَّح» ، ردَّت شتولا . قهقهتْ . ازدردت جرعة من الجِعة ، ثم أتبعتْها برشفةً من النبيذ : «كلما مصصتُ لفافتي ارتعش شيءٌ في باطن فخذي اليسرى . التدخين قلمٌ يكتب شيئاً ، يامطلَّقاتِ الله» ،

قالت ، وهي تنظر إلى قدحها .

«ماذا يكتب ، ياناقصة العُمْر؟» ، ساءلتها درخو ، فتدخلت تاسو ، العائدة تواً من المطبخ : «اسأليني أنا» .

«حسناً ، ياتاسو ، ماذا يكتب؟» ، سألتها درخو .

«يكتب لي ولادة أير» ، ردت تاسو .

«لماذا لم يخلقك الله رجلاً ، ياتاسو؟» ، ساءلتها سلام ، فردت تاسو :

- مأدراك أنني لستُ رجلاً؟

«هذه أول مرة أعرف فيها أن للرجل رَحماً تلدُ» ، قالت سلام .

«نعم . أنا رجل له رحم . أتتهكمين بالله إنْ خلق رجلاً له رحم؟» ، ساءلتها تاسو .

«لا ، والله . سيتهكم بالله من يظنك امرأة ، ياتاسو» ، قالت سلام .

وضعت تاسو قدح قهوتها الكبير على طرف المنضدة ، وسط الأريكتين . تمتمت : «ياعمري ، ياتاسو» ، قالت لنفسها بنبرة أسى . «قلبي قلب رجل . رئتاي رئتا رجل . شَعْر عانتي شَعر عانة رجل . بكائي بكاء رجل» .

«كيف تفرِّقين بين بكاء امرأة وبكاء رجل؟» ، ساءلتها زنتانا الواسعة الفم ، المتذوِّقةُ دخانَ التبغ برئة قلبها ، فردت تاسو :

- حين تبكي المرأة تبكي حتى تستنفد دموعَها ، ثم تدعي ، بعد ذلك ، أنها تبكي من حنجرتها لامن عينيها . الرجلُ ، إن بكى ، يحرص على الإبقاء على شيء من الدمع فلا يذرفُه كلَّه . الرجلُ خزْنةٌ ، والمرأةُ حَوْشٌ .

«ياابنة الباميا المصرية ، ياتاسو» ، خاطبتها زليخا بتهكم يمازجه إعجابٌ بمنطقها ، فردت تاسو :

- آكلُ باميـا تركـية ، ياروحي . لاتخلطي الأمـور . البـاميـا المصـرية مقطوفة من عهد الفراعنة . باميا مثل المومياءات . خشب . ألياف . جلود يابسة . تَنَك . حديد . أظلاف ماعز . رمل . ياالله . كيف تكبر حبَّة الباميا المصرية حتى تصير في حجم القرْع؟ . لايُلام المصريون . يلام السويديون على استيراد هذه الباميا المومياءات ، ذات البزور الكبيرة كنصف كرون .

«أليس الأفضل أن نشتري باميا عربية من أن نشتري باميا تركية ، ياكـردية ، ياتاسـو؟» ، سـاءلتـهـا زليـخـا بحـرص الإشـارة إلى خللٍ في مفاضلات تاسو بين مذاهب الباميا ، وغزو الباميا للسويد من أرضيْنِ لهما دِيْنُ البحر الواحد .

«أتعرفين من أي حقل قطفت الشركةُ التركية الباميا ، التي تصدِّرها معلبةً إلى السويد؟ . ربما من حقل خالة أمك في ماردين ، يازليخا» ، قالت درخو ، فزاحمتْها تاسو بإضافاتٍ إلى منطقها :

- باميا تركية كرأس القلم الرصاص ؛ كأنملةِ أصبعك . ماذا تفضِّلين؟ لسان العصفور التركي ، أم لسان الجاموس المصري؟ . إذا استوردنا حماراً ، من بادية حوران ، غداً ، بعد تقديم أوراق قانونية حول صحته ، وعمره ، وذوقه ، إلى دائرة استيراد الحيوانات في السويد ، ووصل الحمار ، فأنزلناه إلى قبو عمارتنا هذهِ ؛ إلى المكعب السلكيِّ المخصص مستودعاً لشقتنا ، فربطناه هناك ، وخيَّطنا فمه أربعة أيام . ثم مرَّرْنا أمام عينيه ومنخريه حزمة ضخمة من البرسيم . .

«من البـرسـيم؟!!» ، قـاطعـتـهـا ريحـاني . «من أين البـرسـيم؟ من إمبراطورية IKEA ؟» .

«إمبـراطورية IKEA ؟ هل إيكيـا أكبـر من مملكة السويد؟» ، سـاءلتهـا زنتانا الجازمة أن لها أصولاً إيرانية .

«نعم» ، ردت ريحاني .

«تبالغين» ، قالت تاسو . «ربما ، إذا جمعنا عدد الأمتار المربعة ، التي تشغلها فروع IKEA في العالم ، لبدت أكبر مساحةً من الإمارات العربية المتحدة ، لكن ليس أكبر من السويد . السويد قطعة مثل صناعات IKEA : جزيرة مشدودة بخيط إلى جزيرة ؛ غابة مشدودة بمسمار إلى غابة ؛ حقول ملتصقة بالصمغ إلى حقول اخرى . مدن تتداخل مع مدن بمفاصل يكفي لتثبيتها لولبٌ صغير . أوّل برغيٍّ سيفلت من مكانه هو برغي رنكبي . كل قطعة من صناعات IKEA تشبه مملكةً حين تُركَّبُ أجزاؤها ، ثم تنفرط ، بعد يومين ، مثل يوغوسلافيا» .

«نسينا الحمارَ والبرسيم» ، قالت ريحاني ، فحاولت تاسو التنازل قليلاً :

- حسناً ياريحاني . لو مرَّرنا أمام عيني الحمار ، ومنخريه ، حزمة من شتلات الفاصوليا الخضراء ، الطرية . .

قاطعتها ريحاني : «شتلات فاصوليا خضراء؟» . ابتسمت من وراء دخان لفافاتها . «أيأكل الحمار فاصوليا خضراء؟» .

«سيأكل فرجك ، إذا جاع الحمار أربعة أيام . لكن دعيني أكمل ، ياريحاني» ، قالت تاسو مستاءةً من وقوف صاحبتها بين الجُمَل . استرسلتْ : «لو مرَّرنا أمام عينيه ومنخريه سلَّةً من الخسِّ الطازج - أيْ : حرْقنا قلبَه جوعاً فوق جوع ، ورغبة فوق رغبة ، ثم فككنا الحبل عن سيقانه ، ثم أطلقناه على مزود من الباميا المصرية لفضَّل الصيامَ حتى الموت . لن يأكل الباميا المصرية» . تساءلت بوجهٍ فيه ذهول : «ماذا يطعمون شجيرات الباميا هذه؟ ماالسماد ، الذي يستعملونه؟ سماد من رمل ، ونِعال أحذية ، وبقايا ثياب . و . . تأتي الباميا إلينا في أكياس صغيرة ،

ناعمة ، مفرَّغة من الهواء كخصية خوفو ، متوافقةً مع أصول التصدير ، مُراعيةً لحقوق الخضار وفق قوانين الأمم المتحدة» . صرختْ : «ياالله . من يسمح بتوزيع هذه الباميا في السويد؟» .

«أنا أعرف» ، قالت درخو . «مفتشو الأغذية المستورَدة لايتعرَّضون للباميا ، والملوخية ، حتى لايُتَّهموا بإهانة خضار إسلامية» .

«خضار إسلامية؟» ، تساءلت شتولا متكئة برأسها على مسند الأريكة .

«بالتأكيد» ، أضافت درخو . نفثت دخاناً من فمها يكفي لرفع سماءٍ إلى أبعد من أن تُرى . «إنها مثل اللحم الحلال ، والأكياس الحلال» .

«أكياسٌ حلالٌ؟» ، تساءلت زنتانا مبتهجة بالفكرة .

«حلال . اكتبي على الكيس كلمة «حلال» ؛ على المبنى ؛ على الشارع ؛ على فرْجك . كل شيء يغدو حلالاً إذا كُتِبتْ عليه كلمة «حلال» . لامسلم يتزوج إلاَّ من خارج السويد فرْجاً حلالاً . لامسلمة إلاَّ تستورد من خارج السويد أيراً حلالاً . الشبَّان المسلمون ، في السويد ، لاتفكر أيورهم وفق الشرع مع صديقات شقراوات ، سويديات . لكنهم ، حين يأتي وقت الزواج ، تعود الهدايةُ إلى أيورهم ، فيتبعون الطريقَ القويم ، ويتزوجون فُرُوْجاً حلالاً من أرض آبائهم الأولى ، ذات التُّربة الحلال . .» .

تدخلتْ زنتانا : «والماء الحلال» .

«والمطر الحلال» ، قالت زليخا .

«والمني الحلال» ، أضافت شيراز .

«يابنات طَالبانْ» ، هتفت زنتانا بردّة فعل متأخرة قليلاً : «لاأحب الباميا» .

«دخِّني ، إذاً . دخِّني كثيراً . دخِّني كأنك تأكلين ذُرة مشوية ، أو

بُرغلاً بشحم مقلي ، يازنتانا . نكهة الدَّسم على الشفتين لاتعادلها إلاَّ نكهة التدخين . للتدخين طعْمُ الروح» ، قالت درخو .

«طعم الروح؟ . ماطعمه؟» ، تساءلت زليخا .

فتحت شتولا عينيها الناعستين تتدرب على ترويض الصور قبل أن تعلن الصور عصيانَها : «حصل لك ، يازليخا ، أنك مصصْتِ كَمرةً» ، قالت ، فاهتاجت زليخا :

- ياقحبة .

«ياحمقاء . إذا بلغت رعشةُ النيك أقحافَنا ، في الأسِرَّة ، صارت الحياةُ كلها قحبة . لاأكثر متعة من الحياة وهي قحبة . انظري إليها في عمرك الآن : لاسريرَ حتى لو تمدَّدتِ على ألف سرير . لاسريرَ يعادل أيراً في انتفاخه قبل القذف» ، قالت شتولا ، ثم تجرَّعت الجعة من العلبة الصفيح ، مع وصول الكلمةِ المنتهَكةِ ذاتها من فم زليخا إلى سمعها :

- ياقحبة .

«جيئيني بأير لايخذلني ، وسمِّيني ماتشائين» ، ردت شتولا .

«أوووه» ، همهمت درخو منتعشةَ الخيال : «يخطر لي ، أحياناً ، أن أجلس في حضن شاب ، على مقعد في القطار ، متذرِّعة بأنني لم أره» .

«ألا تتنازلين قليلاً؟» ، ساءلتها تاسو . أضافت : «ماذا لو كان كهلاً؟» .

«لابأس» ، ردت درخو من فورها . استدركَتْ : «لكن ليس له شاربان ، ياتاسو؟» .

«حسناَ . خفِّفي عنك . في عمري هذا سأتنازل وأقبِّل فمَ رجل له شاربان» ، ردت تاسو .

«ياللوسَخ» ، علَّقتْ درخو .

«سألعق شاربَيْ رجل يتمدَّد فوقي الآن» ، قالت تاسو متمادية في استثارة صديقتها الشاعرة ، لكن زليخا هي التي ردت معقِّبةً :

- أنا ، نفسي ، بدأتُ أتقزَّز من فم بشاربيْن .

«أتتقزَّزين إذا نزل رجل بفمه ذيٍ الشاربين إلى فرْجك؟ . لكل امرأة فمان . لافمَ يرفض مايقبَلهُ الفمُ الآخر» ، قالت شتولا ، وهي تداعب سُرَّتها .

«ياقحبة» ، ردت زليخا .

«ليتني كنتُ القحبة الوحيدة من بداية الخَلْق إلى نهايته ، لايتعفَّف عني رجلٌ ، ولاأتعفَّف عن رجل» ، قالت تاسو .

ازدردت درخو رشفةَ النبيذ من قدحها : «تريدين ، ياتاسو ، أن تكوني تاريخَ البشرية» ، قالت المرأةُ ، التي نذرت شِعرها للفجر ، لالأيٍّ وقت آخر .

«لم أفهم» ، قالت تاسو .

خَمَد الهواءُ من تراكم طبقات الدخان عليه . فتحت سلام النافذة على آخرها . صلصلت السلسلةُ الذهبُ في عنق ريحاني . أطلقت سؤالاً بلا سياق :

- ألاً تبغَ في الجنة؟

«تذوق آدم التبغ ، في الجنة ، فطرده الله حِرْصاً على السر . لكن هناك من خذلَ الله ، وأشاعَ التبغَ في الأرض . التبغ سِرُّ الحقيقة» ، قالت درخو .

«أكان لآدم شاربان؟» ، تساءلت تاسو بلا موجبٍ ، فردَّت درخو :

- لا . قبل أن تولد حواء من ضلعه كان يستخدم Gillette G II .

«أأنت مع الشوارب ، أم ضدها ياتاسو؟» ، تساءلت شتولا ، فردَّت تاسو :

- أنا مع الفم .

نهضت شتولا متبرِّمةً من نهوضها . قادت نفْسها ، بثقل الخمول البهيِّ في أعضائها ، إلى المطبخ . غابت فيه . تناثر شيءٌ مَّا متهشِّماً . رنينٌ معدنيٌّ انسكب على الأرض . أصغتِ النساء وقد اعتقلْنَ أنصافَ كلماتهنَّ على الألسنة . عادت شتولا بعينيها الكبيرتين ، الناعستين قليلاً : كانت تحمل علبةَ جعة باردةً في يد ، وشظايا ملوَّنة في يدها الأخرى . فتحت راحتَها المضمومة : «سقط هذا عن باب البرَّاد» ، قالت معتذرة إلى تاسو .

عَلَمٌ معدنيٌّ صغير تبدَّى في راحتها . عَلَمٌ ذو لاصِق مغناطيس ، ذهبيُّ الحواف على أطرافه المتماوجة كَعَلَم في ريح البزوغ البشريِّ على كبرياء البشرية ، المستندة ، بارتخاء ، إلى الكُرَةَ القلقة للتاريخ .

دهان أحمر . دهان أبيض . دهان أخضر ، بنِسَب متساويةِ التراتُب ، متوازيةٍ ، يتماوج يقينُها كألوانٍ تليق بالمنطق العاصف لألم كبير ، وأملٍ كبير حتى الغرق ، وآتِ فردوسٍ . وسط البياض ، تحديداً ، شمسُ الأرض الأكثرُ كمالاً بشعاعاتها الحلْوى يتجاذبها أطفالُ الجهات الخفيُّون مستقيمةً ، هندسيةً ، كنظام الضوء المسعور في نهارٍ بلا نهاية . تلك الشمس هي ، التي وطَّد الكرديُّ عليها دعامتين من دعامات روحه التسع المنسيَّة ، كما ينبغي للأم التائهة ، في ممرٍّ ضيقٍ من الكلمات ، أن توطِّد الأُسسَ الأولى لروحها .

تلك الشمس الذهبية ، هي التي انفصلت عن بياض العَلَم المعدني في سقوطه ، حين فتحت شتولا بابَ البراد بعنفٍ لم تتحوَّطَ له يدُها الناعسة . جمعتْ شتولا العَلَمَ الصغير ، ذا الظهر المغناطيسي ، وشمسَه المنفصلة بعد السقوط ، في راحتها . قدَّمتِ العَلَمَ ، باعتذارٍ غير مُعْلَن ، إلى

تاســو ، التي دحــرجت القطعــتين الملونتين إلى الظلام ، تحت الأريكة الرمـادية ، حـيث إطار صـورة أبويهـا وزجـاجـه المهـشَّم : «سـألمُّ كلَّ شيء صباحاً» ، قالت .

تثـاءبت زنتـانا من فـمـهـا الواسع . نهـضت واقـفـة على سـاقـيـهـا السـمينتين ، مصـغيـةً من عينيهـا إلى الهـمس المعدنيِّ للوقت في ساعة يدها . نهضت شيراز مرفوعة بالجناحين القويين في ثدييها العارمين . «إنها لعنة قطارات الأنفاق الأرضـيـة والسـمـاوية . لا أريد الذهاب إلى البـيت ، لكنني سأذهب» .

خـرجت زنتـانا ، وشيـراز ، من شـقـة تاسو ، في التـاسعة والنصف من تلك الليلة . ودَّعتهـما سلامُ شيخ غَرْدقْ بكلمات مقذوفة كأعقاب لفافات التبغ ، قبل أن تودعهـمـا تاسـو . «اخطفا رجلاً ، واتَّصـلا بي هاتفـياً لألحق بكما» ، قالت سلام . نهضت ، بدورها ، عن الأريكة الخضراء ، بعد انتقال متـتابع بين الكراسي . حشرت يدها في نطاق بنطالـها المخمل البُنيِّ نزولاً إلى عانتَها بتلذُّذ مُسْتَرسِل . حدَّقت إليها تاسو العائدة بعد إغلاق الباب خلف صديقتيها : «ماذا تفعلين؟ أنزل عليك وحيٌ من لحم منتصِب؟» . هزَّت رأسَها متفاخرة بأمرِ سلام في الحكِّ : «هذا أول فرْج يشْهد معجزة في القرن الجديد» .

«يالَكِ» ، ردت سلام ، وهي تسحب يدها من نطاق البنطال . «شَعر عانتي بات طويلاً» .

«احلقيه» ، تساءلت تاسو .

«لِمَ؟» ، تساءلت سلام .

«للطوارئ . من يدري؟» ، قالت تاسو .

«لاطوارئ . لاتوقُّعات . لااحتمالات» ، ردت سلام . صرختْ في

مرح : «لا رَجُل . لا أير . لا ترجمة» . جلست من جديد : «لم أكن مُوفَّقة في الترجمة ، أمس ، بين بعض طالبي اللجوء والمحقِّق» .

«ماذا تعنين؟» ، ساءلتها زليخا ، فردت سلام :

– أناسٌ ادَّعوا أنهم عراقيون ، لكنهم يتحدثون بلهجة ليست عراقية . ترجمتُ للمحقِّقيْنَ لغةَ طالبيْ لجوءٍ أكراد من لهجات شيطانية ، وجبرائيلية ، وميكائيلية . ترجمتُ لهجاتِ عربٍ حتى من الموزامبيق . .

قاطعتها تاسو : «عرب من الموزامبيق؟ مالهجتهم؟» .

نظرت إليها سلام باستخفاف من المزاح المُتبادَل : «الذين حضروا أمس ـ رجل ، وزوجته ، وابنتان له ـ لم تكن لهجتهم . .» ، هزت رأسَها إعلاناً أن الأمر استعصى على التحديد ، فبادلتْها زليخا هزاً من رأسها تنبيهاً : «ربما ليسوا عراقيين . أكراد كثيرون ادَّعوا ، أمام المحققيْن ، أنهم من كردستان شمالِ العراق وكانوا من تركيا . لهجة صورانية . لهجة كُرْمانجية . لهجة توتِنْجيَّة» ، قالت .

«توتِنْجية؟!» ، قهقهت تاسو .

«توتنجية . نعم . تنشأ من كثرة التدخين» ، قالت زليخا بتوضيحٍ ساخر . أدارت وجهها إلى سلام : «كيف تعرفين أنهم عراقيون ، ولمْ تفهمي لهجتهم؟ ألأَنهم ادَّعوا ذلك؟» .

«فهمتُ رعبَهم» ، ردت سلام الطويلة الأظافر .

«فهمتِ رعبَهم؟» ، ساءلتها زليخا . «بأية لهجة تحدَّثَ رعبُهم إليكِ ، ياسلام؟» .

«فهمتُ رعبَهم . نعم . كانوا سيأكلون أنفسَهم إذا لم أدَّعِ أنني أفهمهم ، وأفهم أنهم عراقيون ، وأن أُقْنع المحقِّق بذلك . اليأسُ في أصواتهم لمسَ عظامي . اختلقْتُ الكثير من الكلمات ، التي لم يقولوها . أيهمُّ ذلك؟ المحقِّق

السويدي دوّن على الكومبيوتر ما قدّمته له . والمحامية الجالسة إلى جواري كانت تحصي الوقتَ لتتقاضى أجراً أكبر كلما أطلْنا الثرثرة» ، قالت سلام .

همست درخو : «وأنتِ كذلك» .

«نعم . لكن مهنة التَرجمة ، هذه ، ستؤول إلى ركود ، يابنات طالْبانْ» ، قالت سلام . ضربت بعقبي قدميها المجرَّدتين من الحذاء ، على خشب الأرض الصقيل : «أحسنتْ زنتانا في وصفهْا لكنَّ ببنات طالبانْ» . استدركتْ : «لم أعدْ أُستدعى إلى المطار حين يقدِّم البعض طلب اللجوء فور دخوله إليه . يجري تصريف الأمور من هناك على نحوٍ لا أفهمه» .

«بل يتصلون بنا . كنتُ في المطار قبل عشرة أيام» ، قالت ريحاني وهي تداعب السلسلة الذهب متدلية من العنق على صدرها .

«قبل عشرة أيام؟ كانوا يستدعونني كل يومين» ، قالت سلام مستاءةً . أضافت : «كم باتت الساعات ، التي يستدعونكنَّ فيها للترجمة بين المحققين وطالبي اللجوء؟» .

«مهاجرون أغبياء» ، علَّقت درخو . «لماذا لايتصلون بنا قبل قدومهم ، لنقدم لهم نصائح حول ماينبغي اختلاقه من أسباب للهجرة لايستطيع أي محقِّق دحْضها؟» .

«أنت ، يادرخو ، لك لسان قوي . وأنا أصدق أنك تستطيعين تدبير أسباب خارقة لقبول اللجوء» ، قالت تاسو بإعجاب من عينيها الصغيرتين ، العسليتين .

هزت درخو يدها ، أمام وجهها ، اعتراضاً ، فجلجلت أساورها الخرزُ :

– لا أسباب عادية . لا أسباب خارقة . لا ذكاء . لا أير . على طالب اللجوء ادِّعاءُ البلاهة ، وسيحصل على مايريد . البلاهة هي الطريق إلى أوروبا .

«أوروبا؟ . مــابهــا أوروبا؟ أيُّ شـيء سـتكونين من دون أوروبا ، يادرخو؟» ، قالت شتولا بلسانٍ سارح الخيال في نبيذٍ من صنع ريحاني .

دقت درخو براحة يدها على صدرها : «ياعصفورة ، لقد غزوتُ أوروبا ، وانتهى الأمر . أنا أوروبا» .

تأوَّهت ريحـاني في هدوء . وضـعت يديهـا أسـفل بطنهـا : «عليَّ أن أذهب ، الآن . الدم يتحرك . دورة الشيطان» ، قالت ، ثم طوت نفْسَها قليلاً منحنية بصدرها على فخذيها ، وهي جالسة .

للجاذبية الأرضية قلقُها . شيءٌ ما لايكتمل ، كي تسقط ، باكتماله ، إجّاصة الزمن في راحة المكان : هكذا تمهِّد الحياةُ لنفْسها انكفاءً . تجفِّف ظلَّها الرطبَ في رحم الأنثى ، وتستردهُ ، قطرةً قطرةً ، من المهبلِ دماً .

صـداعٌ خفـيف ، ومغص ، تعلن بهـمـا الحـيـاةُ أنها خُذِلتْ ببـذرة لم تكتمل : لم تمنح المرأةُ الرجلَ خيـالَ الكاملِ في دورة جسـدها . لم يمنحـها الرجلُ تمامَ فكرةِ الماءِ فيه .

يغدو واضحاً ، حين تكتمل الدورة الشهريةَ بلا عائقٍ مُخْصِبٍ يلجم الدمَ ، أو يردُّه منذوراً لنشأة النطفة فالعَلَقة ، أن الحياة لا تُحسن الحسابَ بدقة . لاماضيَ لخيال الحياة في الحساب . لاحاضرَ : الأنثى الرطبةُ بِذرَّتها المُخْصِبة تجتهد في جمْع الأرقام متجاورةً لتحديد صيرورات الجسد . جسدُها يخطئ أحياناً . بذْرَتُها ـ الذَّرّة تخطئ أحياناً . لكن الخطأَ ذاته في الحساب هو الوجود ، الذي تلد به صوابَ الممكنات كلِّها .

ريحاني لم تحمل ممكناً من رحمها إلى العالم . سينزف الممكنُ الممكنَ قطرةً قطرةً ، في الغد ، إلى هبائه ، وستهمس ريحاني ، ربما : «إنها خزانتي انفجرت ؛ فيها أرواح كثيرة لم يُرِدها اللهُ» .

نهـضت ريحـاني . نطرت إلى سـاعـة يدها نظرةَ المتـثـبِّت من طيش

الرقم. هزت رأسها أسفاً: «منذ يضع الإنسانُ ساعةً في معصم يده يغدو عبداً».

«لا الساعات في المعاصم، لا آلهة الساعات هي مَنْ تجعل الإنسانَ عبداً، بل الطمث»، قالت زليخا. ألقت نظرةً من فوق أنفها الكبير على أشباح الأقدار حول وجودها: «لماذا قبِلنا هذا، يانساء؟».

«من تخاطبين؟»، ساءلتها درخو.

«أخاطب مؤخراتكنَّ»، ردت زليخا.

«لم نُستَشر. خاطبي الله»، قالت درخو.

«ياالله. أنت لاتعرف ألم الطمث، وخيبة الطمث، وصداع الطمث، ومغص الطمث. لو أعطيتنا بزرةً غيرَ الدم. لو جعلت قُبلةَ الرجل كافية للحَبَل. لو جعلتَ لمستَه كافيةً. لو جنَّبْتنا بويضات تنفجر إذا لم يسارع الرجلُ - ابنُ القحبة إلى قَلْيها بزيت منيِّه. الرجلُ - ابنُ القحبة لايتألم»، قالت زليخا تناجي دخانَ التبغ.

«الرجل ليس ابن قحبة. بل هو القحبة. ليس للقحبة رحم، بل أير»، قالت درخو. استرسلتْ: «خلق الله، في البداية، رجلاً قحبة بأير ينيك نفْسَه». بسَطت فكرتَها: «أليست حواء من ضلعه، أي من جسده؟ إنه ينيك نفْسَه، إذاً. منذ ذلك اليوم هو قحبة تنيك نفْسَها».

«إلى أين تريدين أن تَصِلي بلسانك، يادرخو؟»، ساءلتها سلام كأنما أحسَّت تمادياً، فردت درخو:

- أن أصل إلى خصية تاسو.

قهقهت تاسو: «انتهينا، والحمد لله، من المعضلة: أعطينا الرجلَ فرْجنا، وأعطانا أيرَه. على الله أن يقرِّر، الآن، ترتيب اللحم على الأجساد».

«ماإحساسُك وقد غدا طمثُك متقطعاً ، يادرخو؟ أحسُّ بفزعٍ من الفكرة ، بالرغم من أن طمثي لايزال منتظماً» ، تساءلت سلام .

«تعنين أنني انتهيت ؛ جسدي انتهى ؛ رحمي انتهت . ماالذي سيتغيَّر فيك إن تقطَّع طمثُك ، أو توقف؟ لافرق بينك مع طمثك الآن ، وبينك مع انقطاع الطمث غداً» ، قالت درخو .

«لن أنجب» ، ردت سلام .

«عندك ابنة كالقمر . يكفيك . ولد واحد يكفي . الواحد والعشرة سواء . أنت محظوظة . انظري من حولك إلى صديقاتك الإوزْات الهائجات . أولادهن قضموا أعمارهن كالكزبرة يقضمها البُزَّاقُ»» ، قالت درخو .

«أحتاج ، يادرخو ، إلى إيمان بقدرة رحمي على . .» قالت سلام ، فقاطعتها درخو :

– على ماذا؟ على احتمال منيٍّ جديد؟ لامعنى لرحمك ، الآن . فليكُفَّ عن أن يحلم .

«خُلِقْنا نساءً . اسْكُتْنَ» ، قالت سلام بلا رغبة في المضيِّ إلى استسلام محتَّم . «أحبُّ لو تكون لي شفتان منتفختان كأنما مصَّهما خمسون رجلاً من غير توقف . كُلَّما تراخى فمٌ في مهمَّة مصِّها أخذ مكانَه فمٌ جديد . قبل يومين استدعتني دائرة الهجرة إلى مواجهة بين المحقق وامرأة تطلب اللجوء . امرأة بشفتين منتفختين لم يبدُ عليها أنها تطلب اللجوء ، بل تنتزعه منيٍّ أنا . امرأة سورية ، عربية» ، توقفت عن الكلام متأمِّلةً : «كم صرفتْ على عملية تجميل شفتيها؟» . عادت إلى السياق تصل بعضَه ببعض : «أصرَّتْ أنها كانت تحت الرقابة ، وأن قلبَها يتشقَّق هلعاً من احتلال أشد سوءاً من الاحتلال الفرنسي ؛ هلعاً من عائلة المَلك

الجديد في سوريا الجمهورية . هي قالت ذلك حرفاً بحرف . تبدو ذكية ، مُقْنِعة ، هادئة ، بأعصابٍ أجرت لها عملية جراحية قطْعاً . أحببتُ شفتيها الهادئتين ، المنتفختين . شفتان متحفِّزتان للوثوب خارج وجهها» .

«لم أرَ فماً جرى نفْخُ شفتيه ، بالتجميل الجراحي ، إلا ظننتهُ فَرْجَ قِردة . لماذا يفضل بعضُ النساء وجودَ فروجِ قِردة في وجوههن محلَّ الشفاه؟» ، قالت درخو ، فسارعت سلام إلى اتهامها :

– أنتِ غَيورة .

«مِمَّن؟ من فُروج القِرَد؟» ، تساءلت درخو مستخفَّةً .

«عندي رغبة في جراحة تجميلية لشفتيَّ . نساء سوريا ، كلهنَّ ، منتفخات الشفاه . أنا سوريةٌ» ، قالت سلام . أرسلت من فمها قُبَلاً متفجِّرة في الهواء : «سأهيِّئُ من شفتيَّ وليمةً هائلة لفمِ رجل . فلْيأكُلني» .

ضحكت تاسو : «لن يأكلك رجل . الرجل الجديد ، الذي سيجد لنفسه فرصةً معك ، سيكون بلا أسنان ، وربما بلا شفتين أيضاً» .

«أنتِ امرأةٌ مُحْبِطة . لم يمت فرْجي بعد ، ياتاسو . أنا في الرابعة والأربعين» ، قالت سلام بتفاؤل مذعور قليلاً من عمرٍ ينزفُها .

تأجَّج صوتُ درخو الخشن : «مات الإسكندر ، ذو القرنين ، ولم يبلغ الثلاثين» .

«ماعلاقة الإسكندر بي ، يادرخو؟ ماعلاقة فرْجي بالاسكندر؟ فرْجي حيٌّ بعد موت الإسكندر بثلاثين ألف سنة؟ هل مرَّ الإسكندر بسوريا؟» ، قالت سلام .

خرج ابن تاسو رَنْد من منعطف الممرِّ إلى الغرف ، حاملاً علبة من البلاستيك الشفيف بظهرٍ من الورق المقوَّى . مدَّ العلبة المربعة في اتجاه

أمه : «ماهذا؟» ، تساءل مستغرباً ، فاختطفت أمُّه العلبةَ : «هذا طوقٌ لك» . ضربت على فخذه بظهر يدها : «اتفتش غرفتي؟» .

«كانت العلبة فوق السرير . لمحتُها من الباب» ، رد الشاب النحيل ، ذو الشعر الأسود المعقود ذيلاً من وراء رقبته .

شدت درخو العلبة من يد تاسو تتفحَّصها : «هذا طوق كلب كامل» . أرجعت رأسَها إلى الخلف متصنِّعةً دَهَشاً : «أين الكلب؟» . ابتسمت ساخرة : «يأسُك نهائيٌّ ، ياتاسو» . أدارت وجهها إلى الشاب رند : «عُدْ إلى غرفتكَ ياسُكَّرة . لي كلمة مع أمك» .

نقل رند بصرَه المستوضِح بين وجه درخو ووجه أمه ، مُذْ لم يعثر على جواب عن وجود طوق الكلب . رفع نطاقَ بنطاله المنزلق عن ردفيه ، أعلى قليلاً . استدار عائداً إلى غرفته .

«طوقُ كلب ، إذاً؟» ،تمتمت درخو : «يأسُك نهائيٌّ . ستشترين عشيقاً» ، قالت . مدت يدها تصافح يد تاسو مهنِّئةً : «اليأس يأتي بحلول جيدة ، أحياناً» .

ضربت تاسو براحتها على يد درخو الممدودة : «لم أيأس بعد . أرى بؤخرتي عينيَّ الجزار التركي في مَتْجَر ICA وهما تلتهمان بنطالي . سيأتيني ، ذات يوم ، حاملاً نصف خروف مسروق» ، قالت تاسو .

«دَعَيْنا من الثرثرة . هل ستشترين كلباً ، ياتاسو؟» ، ساءلتها ريحاني ، وهي على أهبة الرحيل .

«لن أشتري كلباً» ، ردت تاسو بنبرة واثقة .

«ماهذا الطوق ، والمقود ، والعلبة المزينة بصورة كلب؟ اتحلمين بكلبٍ؟ اسمعي» ، قالت درخو بلسان الباحث عن طوق من خيال الكلمات : «كل مكان . . .» .

قاطعتْها ريحاني : «أنا مغادرة . كلميني ، ياتاسو ، على الهاتف ، غداً ، عن لغز كلبك» . واكبتها تاسو إلى الباب . خرجت ريحاني إلى فضاء الوقت ، الحائر في قيادة الطرُق بلا اصطدام بالطُّرق .

عادت درخو إلى كلماتها الممثلة لعبثً التصنيف : «كل مكان يدخله كلب فيه استغلال للكلب . تعرفْن ما أعني . مَنْ لا تجد شخصاً تكلمه تأتي بكلب . من لاتجد شريكاً تراقصه تأتي بكلب . من لاتجد أحداً تدرِّبه على الإصغاء إليها تأتي بكلب . من تريد مهرِّجاً تأتي بكلب . من تريد نَيْكاً مُرْضياً لاتحصل عليه ، تأتي بكلب . من تريد أن تتخذ لنفسها صورةَ كلب ، تأتي بكلب . من تريد كتاباً للقراءة السريعة تأتي بكلب . من لم تجد وقتاً للذهاب إلى الجامعة ، تأتي بكلب ترسله إلى الجامعة . مَنْ تريد النباحَ على جارةٍ تملك كلباً ، تأتي بكلب ينبحُ على جارتها . من تريد طفلاً ، تأتي بكلبٍ . من تظن أن أطفالها لم يُرْضوا عقلَها ، تأتي بكلب . من تريد أن تتبنى طفلاً يتيماً تتبنَّى كلباً تسميه باسم طفلٍ يتيم» . قالت درخو على نحوٍ تقرع فيه السطورُ ،على لسانها ، نوافذَ السطور .

«ماالأسماءُ الخاصة بأطفال يتامى؟» ، ساءلتها زليخا ، فردت درخو :

- كل اسم يُطْلق على كلب ، أو كلبة ، هو اسمُ طفلٍ يتيم لم يتبنَّه أحد .

«حسناً . نتحدث عن النساء والكلاب . ماذا عن الرجال والكلاب؟» ، تساءلت سلام ، فانبرت زليخا بجوابٍ اقتحمت به شهوةَ درخو إلى عبث التصنيف . قالت زليخا :

- لاحظتُ شيئاً . لاحظت أن كل رجل يقود كلباً يتصرَّف كامرأة . الرجال ، وهم يقودون الكلابَ ، أو تقودهم الكلابُ ، ليسوا أكثر من نساء . لِعَانةِ كلٍّ رجل رائحة فرو كلبة . وأنا لم أنِكْ رجلاً قبل أن يحلق عانته .

قرقعتْ علبةُ صفيح في يد شتولا المتراخية إيذاناً بخروج رأسها من النهر ، الذي يجرفها إلى مصبٍّ نعاسه : «كيف عرفتِ هذا ، يازليخا؟ هل شممتِ عانةَ رجل غيرَ حليقة أولاً ، أمْ شممتِ فروَ كلبة أولاً؟» ، قالت القصيرة الشعر باستهزاء تتثاقلُ أجفانُ السخرية فيه نُعاساً .

هزت زليخا رأسَها استخفافاً . ربتتْ درخو على كتفها تحثُها على عدم الرد على شتولا ، وهي تنهض واقفةً ، بعينين تتنشَّقان الوقتَ من ساعة يدها : «اقتربت مواعيد القطارات الأخيرة . الوقت مبكر قليلاً ، لكن المسافات . ياالله . الأرض تتمطى كالعلكة في السويد . كل يوم أجد بيتي أبعد حين أعود إليه من أيّما مكان» ، قالت الشاعرة . عدَّلت قميصَها المتجعد من ظهره . زرَّت ماانفتح من أعلاه ، فوق صدرها . نهضت زليخا بدورها .

«المكانُ يبقى فتياً ، يادرخو . ينمو ، يتسع» ، قالت سلام . فتأملَّتها درخو من عليائها باستحسان :

«والله ، لو قيل لي إنك قلت هذا لما صدَّقت . لكنني سمعتك . أتقرأين كتباً؟» ، . حكَّت رأسها : «أتسمحين لي باستطراد ، ياسلام شيخ غَرْدق؟ . حسناً . الوقت ، مثلنا ، يشيخ فيضيق . أرواحنا تغدو ضيِّقة إلى درجة لاتُرى . الأرواح لاتُرتدى في شيخوخة الأجساد . سيأتي وقتٌ نواجه الأمكنة بلا وقت . نحن والأمكنة وجهاً لوجه بلا وقت . الأمكنة فتيَّة ، وتزداد اتساعاً . نحن نشيخ وننكمش حتى لايعود من متَّسع لشيء في أجسادنا . لانموت نحن : يموتُ الوقتُ غمَّا من حقده على المكان» . تنفَّست بعمق بعد العظة بين مريداتٍ بقلوبٍ دخانٍ ، أو بقلوبٍ من زئير النبيذ .

«ماهذا يادرخو؟ من أين تتكلمين؟» ، ساءلتها تاسو .

«من ثقب في شيخوختي يتسرب منه نبيذُ زليخا إلى أيركِ الميت ، ياتاسو» ، ردت درخو . استدارت متجهة إلى الباب تتبعها زليخا متهيِّئتين للانصراف . ارتديتا حذاءيهما المصفوفين قرب العتبة . ارتديتا ماكانتا ترتديانه فوق ثيابهما حين قدمتا . ودَّعتهما شتولا بعنق مائل على صدرها ، قبل أن توصد تاسو البابَ خلفهما : «لو كنتُ رجُلاً لأرضيتكما بلا أجر . سأصلي من أجلكما» ، قالت من فم حامض أطبقتْهُ على شريحة مُملَّحة من الليمون . مدت ساقيها ، فجاءةً ، بتقدير نعسان ، فوق المنضدة بين الأريكتين . تناثرت سبعُ صفائح فارغة على الأرضِ . أرجعتْ ساقيْها معتذرةً . «لم أرَ هذه العُلب القحبة . إنها تختفي حين تصير فارغة» . قالت . نهضت واقفة . دارت ، في ثقل ، من حول المنضدة لتجمع العُلبَ الصفيح ، لكن تاسو وسلام سارعتا إلى جمعها . تمايلت شتولا . جلست على كرسي متراخيةَ الأعضاء ، من دماغها إلى ركبتيها . ابتسمت بعينين نصف مغمضتين ابتسامةَ امتنان للحياة ناعسةً مثلها : «أعطيني قدحَ النبيذ ، يازليخا» ، همست .

«زليخا غادرت» ، قالت سلام وهي تضع قدحَ النبيذ في يد شتولا .

«أردتُها أن تشتمني» ، قالت شتولا .

«ياقحبة» ، قالت تاسو . داعبتْ شعرَ شتولا : «أتقول زليخا هذه الشتيمةَ أفضل مني؟» .

«لماذا تشتم زليخا عصفورتنا شتولا ، بهذا اللقب؟» ، تساءلت سلام ، فردت تاسو مداعِبةَ :

– شتولا هي الأصغر بيننا . هي الأجمل . تستحق الشتيمة على ذلك .

«في زمنٍ مَّا كنتِ ، أنتِ ، قحبة ياتاسو .» ، قالت سلام .

«لا» ، ردت تاسو جازمةً . لم أكن صغيرة في أي يوم . لم أكن أجمل من أحد» .

سقط قدحَ النبيذ من يد شتولا المتراخية . لم ينكسر القدحُ . ارتجَّ على الأرض الخشب متقلِّباً ، ثم استقرَّ على فوّهته الواسعة .

رنَّ جرسُ الباب . عبرت الموجةُ الصوتية من الضغط على زرٍّ ، في الخارج ، إلى علبة من البلاستيك على جدار الممرِّ إلى الصالة .

استولدَ المعقولُ الغريبُ طفلَهُ الصوتيَّ الصاخبَ من معقوله الأليف . امتعضت تاسو : «من هذا البظر؟» . جذبتْ معصَم سلام مستطلعةً أثيرَ الوقت صاعداً من ساعة يدها . نهضت بلا استعجال . حكَّتْ شحمها الفائضَ عن نطاق بنطالها ، عند السُّرة : «ألديك وصْفةٌ للتخفيف من هذه الحرب ، ياسلام؟» ، قالت ، فردت سلام متسائلةً : «حرب؟ حرب ماذا؟» .

«حربُ الشحم في جسدي عليَّ» ، قالت تاسو . اردفتْ باستياءٍ مصطَنع : «هل هناك حربٌ أخرى غير هذه؟» .

رنَّ الجرس ثانيةً .

هتفت تاسو بصوتٍ جارح : «فهِمْنا . أنا آتية» ، قالت بالسويدية .

أطلَّ ابنها هسٌ بنصفه من وراء زاوية المنعطف إلى غُرَف النوم : «ماذا هناك ، ياأمي؟» ، سأل في فضول ، فانتهرته تاسو : «عُدْ إلى ضراط الأنترنِتْ» .

شهقت شتولا فجاءة . انحنت على المنضدة وسط الأريكتين المتقابلتين منخرطة في بكاءٍ عنيف . تحيَّرت تاسو . رنَّ جرس الباب ثالثةً .

أسرعتْ تاسو إلى الباب وهي تنظر خلفها إلى شتولا ، التي ضمَّتها سلام مواسيةَ ، من غير أن تفهم سببَ بكائها .

فتحت تاسو الباب : كانت ابنةُ جارتها البولندية ، المقيمة في الطبقة

الأرضية أسفل طبقة شقّتها تماماً . فتاة في الحادية والعشرين بشعر مفرط في دهانه القرمزي ، ذات عينين ثابتتين في تحديقهما : نظرةٌ ميتةٌ ، لكنها متسلِّلة كشعاع بارد . كلماتُها رتيبةُ الإيقاع على لسانها ؛ هادئة جداً ولجوجة :

– الصخب يزعجنا . الصخب في شقتكم لم يتوقف منذ المساء حتى الآن .

ابتسمت تاسو باعتذار ، وببعض العتب ، أيضاً : «مامن صخب ياجارة . حصل الآن ، الآن فحسب ، سقوط بعض العلب الصفيح . لا بأس لن يتكرر الأمر . أعتذرُ» ، قالت بلهجة سويدية ملمَّعة بزيت حنجرتها الكردية . مدت يدها ممسكة بعَضُد الفتاةِ تودُّداً .

«الصخب قوي» ، قالت الفتاة بصوتها الهادئ ، عبر شفتين رقيقتين لا تتلامسان إذْ يتكلم فمُها .

«أعتذرُ» ، كرَّرت تاسو تودُّدَ لسانها .

ظلَّت الفتاة البولندية ثابتة في الموطىء قبالة تاسو .

وسَّعت تاسو فُرْجة الباب ليتسنى لسمع الفتاة أن تلتقطَ الصوتَ أوضحَ داخل الشقة : «أتسمعينَ صخباً؟» ، ساءلتها .

لم تبرح الفتاةُ مكانها ، محدِّقة إلى تاسو ببصرها الثابت ، البارد .

أرخت تاسو راحتَها عن عَضُد الفتاة ، المرتدية قميصاً ذا مربعات ، حمراء ، منسدلاً فوق بنطالها الجنْز . تمتمت ، كأنما تُؤْذن بعودتها ، إلى الداخل ، بعد اعتذار لامعنى لتكراره مرة أخرى : «لم تجاوز الساعةُ العاشرة ، كما ترين . لم تنمْ أمُّك ، أليس كذلك؟ . تحياتي إليها» . قالت .

«كان الصخب قوياًّ» ، قالت الفتاة بتكرار ممل ، فردت تاسو بصبرٍ نافد :

- كان قويًا وانتهى . اطلبي الشرطة .

«لن أطلب الشرطة» ، قالت الفتاة . أردفتْ : «أوقفي الضجيج» .

تناهى صوتُ سلام من الصالة مُستفَزاً : «أغلقي الباب في وجهها ، ياتاسو» ، قالت بالكردية .

ألقت تاسو نظرةً متحيِّزةً على وجه الفتاة . حاولت أن تستجلي الممكنَ الأعمق في تلك اللجاجة على لسانها : «اسمعي ، ياحلوة . اعتذرتُ اليك باللغة السويدية ، وها أعتذر اليك باللغة الكردية أيضاً . سأغلق الباب» ، قالت . قدمت اعتذاراً بالكردية من المرسى السحيق لكلمات لم تجرف أيةُ ريح حروفَها إلى بولندا . قد يكون استثناء أن جندياً كردياً في الجيوش العثمانية ، أطلق صرخةً مّا من تخوم بلغاريا في اتجاه بولندا ، ربما .

اقتربت الفتاة نصف خطوة من تاسو : «لا نريد ضجيجاً بعد الآن» ، قالت من شفتيها المتخاصمتين .

حمحمت تاسو . أصدرت من حنجرتها رنينَ الغضب مشتركاً بين الإنسان والحيوان ، لكنْ ملجوماً قدْر استطاعتِها :

- نيكي نفْسَكِ ، أو سأنيككِ قبل أن أغلق الباب . عودي إلى أمك .

لم يظهر أي أثرٍ على سيماء الفتاة من سُوقيَّة مانطقت به تاسو . «هل سيستمر الصخب ، الليلة؟» ، تساءلت بنبرةٍ جليد .

تقدَّمت تاسو خطوةً منها . أحاطت وجهَ الفتاة براحتي يديها في رقَّة ، ثم أطبقت بشفتيها على الفم البولندي ، الرقيق ، المفتوح الشفتين ، بقبلةٍ محترقةِ الصوت كَشَقِّ السكين قُماشاً مشدوداً . أطلقت ، بعد القبلة ، سراحَ الفم الرطبِ ، المختبِل ، وأرْخت راحتيها عن وجه الفتاة .

دهشت الفتاةُ دَهَشاً بدا من فمها المفتوح أكثر مما بدا من عينيها

الثابتتين . تراجعت قليلاً بلا استياء ظاهر . مشت ، في هدوء ، عبر الردهة بين شقق الطبقة الأولى نحو الدرج ، نزولاً إلى الطبقة الأرضية .

ابتسمت تاسو . لمست بإصبعيها السبّابة والوسطى فمَها تتحسّس أثرَ فم الفتاة الرطب عليه . لعقت برأس لسانها أنْمُلتَيْ إصبعيها تتذوّق وميضَ قُبلة لم تخطر ببال شفتيها أبداً .

جغرافيا دخان التبغ المتناثرة الأطراف بلا شواطىء.
أوْ: سكّانُ الصوتِ وحدائقهِ.

آخر من حضر أمسيةَ السبت ، كعادتهن حضورَ العشاء كل سبتٍ ، في بيت إحداهن ، كانت زنتانا . فتحت لها نازلي البابَ مرحِّبَةً ، مع نفخٍ طويلٍ لدخان التبغ من منخريها . «رائحة الجنة» ، قالت وهي تعلِّق معطفها الرقيقَ ، المناسب للأسبوع الثانيَ من الخريف ، إلى المشجب الحديد . «لماذا لاأدخن تبغاً؟» ، ساءلت المرأةُ الواسعة الفم نفسَها بصوتٍ فيه عتبٌ دينيٌّ ، فصحَّحت راوتْ لزنتانا منطقَها : «تستنشقين ، في كل سبتٍ ، عند إحدانا ، مايكفيك من الدخان لأسبوع . لاتطمعي في أكثر» .

«أفسحن لي مكاناً» ، قالت زنتانا ، وهي تتخذ لنفسها حيِّزاً بين راوتْ وشتولا ، على الأريكة الجلد ، الفاخرة ، البنِّية ، نصف القوسية ، الملتهمة بضخامتها جدارين من الصالة المربَّعة ، الواسعة . «فكرت ، طول الطريق ، في أن لي نَسَباً إيرانياً» .

«تعنين أن أُمك دسَّتْ منوِّماً في شاي أبيك ، وغادرت من عفرين إلى أصفهان لتأتي بكِ بزرةً في منديلها .» ، قالت درخو .

«أمي . .» ، تمتمت زنتانا في حسرة : «كانت تدخِّن كثيراً مثلكنَّ . لاأدخن . لكنني أحب رائحة دخان التبغ . لدخانه ، بمروره إلى الأنف ، مذاقُ الفِراش الدافىء . أما في الفم فله طعمُ الإفاقة من نوم عميقٍ على أبٍ يضرب زوجته» .

بلغت زنتانا مطار آرْلندا ، في عاصمة السويد ، من منافذ في سدود الأرض الصغيرة ، بتدبير من أخيها سلمان حسن ، الذي سبقها قبل عشر سنين من مجيئها في العام ١٩٩١ . هي تعتقد ، بزعم تكرِّرهُ على صاحباتها ، أن فمها لم يكن واسعاً هكذا ، ممتداً في المسافة بين نهايتيْ الحَنكين . في التاسعة رأت أباها يضرب الحمار على كَفَله براحة يده حتى تخدَّرت أصابعُه سُعاراً . استدار من حول الحيوان ووضع قبضته على فكِّه الكبير : «سأكسرهُ . أعِدُ بذلك . يدي فولاذية» ، قال الرجل المضرَّج البشرة بنُسافة من زهر اللوز اليابس ينفخُه الهواءُ . استدار ، ثانيةً ، عائداً إلى مؤخرة الحمار . أخرج سكينَه ذا الحلقة من جيب بنطاله الواسع . وضع شفرته تحت الذيل . رفع الذيل . قطعه من منتصفه حزاً بالشفرة القوية : «إذهبْ إلى تركيا ، ياابن القحبة» .

ركض الحمار مختبِلاً . لم ينهق . كان يعضُّ بأسنان روحه على ألمه الأخرس . رفسَ الأرواحَ متزاحمةً بفضولها من حوله . توقَّف مرتعشاً . لاحت لعينيه حروفٌ منكوبة .

«سأقطع أنوفاً كثيرة . سأقطع خُصى كثيرة . سأقطع ألسنة ، وأصابع ، وآذاناً ، وأصواتاً . سأقطع الأصوات بشفرة أيري» ، قال أبوها سَمْعان حسن . لماذا كان الرجل ، المضرَّج البشرة بنُسافة زهر اللوز ، غاضباً هكذا في حقل اللوز ، على التُّخم الشرقي من بلدة عفرين؟ . شيء مَّا التهمَ سوريا ذلك العام ، من مطالع سبعين القرن الماضي ؛ شيء مَّا يشبه وقتَ اللهِ الضائعَ . في كل دِيْنٍ وقتٌ مفقودٌ يجتهد الله ، بلا طائل ، في العثور على خيط منه .

اتَّسع فم زنتانا . اتَّسع ، في زعمها ، حين رأت ذيل الحمار يتحرك على الأرض . «ظننتُ فمي لن يتوقف عن اتساعه . شقَّني فمي طولاً من

صدري حتى فرْجي . شقَّني عرْضاً ، كما سكين . قطع وجهي نصفين من الحَنك إلى الحنك» .

قادت اللغةُ الإنكليزيةُ زنتانا من عفرين إلى جامعة حلب . كانت المصادفةُ في استدراج الخيال إلى لغة خيالٍ آخر قد وسَّعت لزنتانا انزلاقةً ساحرة إلى اللغة الإنكليزية . حين أنهت المرحلة الثانوية من دراستها وضعتْ ثقلَ روحها كلَّه في ميزان الأدب الإنكليزي . أقامت عند عمَّتها خَجُّوْ ، في حلب ، حين التحقت بالجامعة . أقامت سنةً واحدةً في أمل الانتقال بشارلز ديكنز من «حكاية مدينتين» إلى أصولها الكردية عند الأب الغامض ، الكردي ، لآداب الأرض كلها . لكنها عادت إلى عفرينَ - أوفرينوسَ التماعة السيف الصليبي في خيبة العقل من الآلهة ، مُحْبَطَةً ، بعد مشاحنات مع أولاد عمَّتها الذاهلين في اختبار الحقائق : احتقار الحياة كبلاغة في مديح الفردوس . سألوها أن تصلي ؛ أن تنهض كل فجر إلى الصلاة ، فخذلت تشارلز ديكنز ، وعادت إلى عفرين . «سأنجب أطفالاً» قالت لنفسها أمام خيبة أهلها من عودتها مُنْهكَةً من نعيم الجامعة ، بلا استكمال الإقامة فيه ؛ بلا إنجاز العودة بخاتمة تصير زنتانا ، وفْق رجائها ، معلِّمةً للغة الإنكليزية - لغة المثال القوي في تصحيح النَّسَب : مَنْ يُعلِّم الإنكليزيةَ ، في المدارس ، هو السليلُ الجديد لسُلطة لاتُزاحمها ما يعلَمه الفيزيائيُّ عن جُرْح الصوتِ ، ومايعْلَمه الصوتُ عن جُرْح الفيزياء .

تزوجت زنتانا ابنَ جارهم داوود طاهر . أهدرتْ ستَّ سنين من اشتغال رحمها على منيِّه ، بقوَّة حجَّار ، فلم يُفلح منيُّهُ في الوصول إلى سُوق رحمها . منيٌّ ضالٌّ ، لم يُحْسنْ مقايضةَ شوقه ببويضة . منيٌّ عاد فارغ اليدين ، فعادت زنتانا إلى بيت أهلها ، بلا طلاق صاخب ، بل طلاقٌ حَذِرٌ في التنبيه إلى خللٍ مَّا له سقسقةُ العار كعصفور على شجرة تين .

كانت في السابعة والعشرين آنذاك ، تعمل مدرِّسة للتاريخ المخفوق كزلال البَيْضِ في مدرسة ابتدائية ، لكنها فتحت عينيها ، يوماً بعد آخر ، على حصانة ممكنة البلوغ باغتيال المكان . أخوها الأكبر سلمان ، وعياله ؛ وخالتُها خانميْ ميرْزا وعيالُها ، حطُّوا بأقفاص حيواتهم ، في أرض السويد ، قبل عشر سنين من بلوغها السابعة والعشرين . ذبحوا المكانَ خلفَهم . وهي ، بدورها ، ستذبح المكانَ لتطلقَه حصيْناً في حنينها .

لطلما تمنت ـ مُذ فاتحت أخاها مراسَلةً بالرغبة في زيارة ستَحُولُ عن قصد ، من زيارة مؤقتة ، إلى هجرة ـ أن تأخذ معها كرمَتَيْ العنب على جانبي بيت أهلها ؛ أن تأخذ البئر الجافة ، منذ إحدى عشرة سنة ، في ساحة البيت ، من غير ردم ، مهجورةً ، لكنها رهان خيال العائلة على شِعْر من صخب الدجاج يتذكرُ أسلافاً يتناتشون الدعاميصَ في الماء الراكد على محيطها .

لم تحمل زنتانا حسن البئرَ معها . لم تحمل الكرمتين : ثياب ، وهواء من عفرين في حقيبتها ، وخيالٌ نسجتْه طويلاً عن ثلج بلا انقطاع ، لكنه ثلج أفضل من زهر اللوز متناثراً حول ذيل حمار مقطوع ، يتماوج ببقية ألم فيه .

ثلجٌ ينجب ثلجاً ، من عفرين إلى منطقة باغِرْمُوسِّنْ ، التي لم تغادرها ، في قوسٍ من محيط العاصمة السويدية ستوكهولم . رياحٌ قويةٌ تحمل ، راكضةً ، رياحاً جريحةً على ظهرها ، من مدافن الأصل الهلنستي ، في سوريا ، إلى أرخبيل النسل الأشقر ، نسلِ الذهبِ تعويضاً عن ذهب الشمس الخامدة ، العجوز ، في شمال مُحْتَملٍ لمرة أخيرة .

في منطقة باغِرْموسِّن ذاتها ، التي عرفَتْها مشهداً أوَّلَ لعقل المكان المُخْلِص ، تزوجت زنتانا ابنَ خالتها شَاهُو ، الطيِّعَ ، الرقيقَ ، الذي يصغرها

بأربع سنين . شابٌ برائحة متعادلة النِّسَب من غبارٍ تركي على أرغفة البيتزا ، ومن قَلَق الزبدة المُنتهكَة في صلصة البيارنيز .

شاهد هو خبَّاز الأرغفة في مطعم البيتزا ـ عجينةِ رومولوس ، وأخيه المقتول ريموس ، ابنَيْ مديح الأصل الإيطالي للذئبةِ ـ أمِّ روما : عواءُ رُبِّ البندورة ؛ وجبنةُ بارميجانَو ريجيانو ؛ والفُطر الأبيض الرخيص ـ عيشُ الغراب ؛ والصعتر المجفَّفُ ؛ وبعض الزيتون النُّفاية مُلْتَقَطاً من التراب بعد حصاد الزيتون ، بشحم ـ تحت قشرته ـ كثفْل البنِّ في فنجان القهوة ؛ وزيتُ زيتون جرى تكريره فيٍ مصفاة من روث التنين : ليس لروما أن تغفر هذا المطعم في السويد . لكن روما رومولوس ، وأُمه الذئبة ، ليست ، الآن ، سوى خميرة من خمائر أوروبا في عجينٍ يسوقه كل مهاجر إلى فُرن مطعمه الأكثر كسلاً في صناعة البلاغة السهلة للطعام الكسول ـ طعام كقيلولة شرقية .

كتبت زنتانا رسائل مثقلة برصاص حنينها إلى أخواتها الستِّ في عفرين ، وكل رسالة تنتهي بتحية إلى أخيها الأوحد علي . كتبت مايفرم بياضَ الورق بشفرة الحبر كالبقدونس عن حنينها إلى عفرين بلا رغبة في زيارة عفرين ، قبل انخراطها في شبكة الأنترنت . كتبت للجميع عن شاهو ، المدلَّل عند مالك مطعم البيتزا التركي ، ذي الجسد الطحين . زوجٌ طحينٌ في فراشها . زوجٌ تتمرَّغ فيه إلى أن تصير عجينةً من عَرَقها ومائه . أنجبت له ، في السنة الأولى من زواجهما ، ابنة سمياها سِيْرين ، على وقْع شهادة شاهو الهادئة : «البيتزا ليست صناعة إيطالية ؛ لم تخترعها إيطاليا . ماركو بولو أخذ الوصْفةَ عن رعاة في ممر خَيبر» ، ويبتسم مرتاباً في مصادره : «ربما أخذ الوصفة عن رعاة في كردستان» .

أنجبت زنتانا ، في السنة الثالثة من زواجها ، ابناً أسمتْه نعمان .

في السنة الرابعة لم تعد تحتمل عجينة الحياة المنتفخة من خميرة زوجها :

لم تعد تحتمل الزيتون .

لم تعد تحتمل زيت الزيتون .

لم تعد تحتمل الفطر الأبيض ، والأصفر البوقيَّ ، والرماديَّ الكبير ، المتفرعَ طبقاتٍ متلاصقةً ـ مَحَارَ الغابة .

لم تعد تحتمل الصعتر .

لم تعد تحتمل رُبَّ البندورة مُخثَّراً تحت شمس اسطنبول ، أو شمس صقلية .

لم تعد تحتمل الطحين موزَّعاً تحت أقنعة أُمَّهاته كلهنَّ : طحين الذرة ، وطحين الأرزِّ ، وطحين البطاطا ، وطحين القمح .

لم تعد تحتمل الخبز بأصنافه الشرقية المرقَّقة كحجاب تحت ضغط الغيب ، وأصنافه الغربية ، المنتفخة بأسباب المعقول اللامُحْتَمَل .

في السنة الرابعة ، تلك ، من زواجها ـ سنة الكفر بخلاص جسدها في مهبٍّ رجلٍ واحد ، ورائحة واحدة ، وكلام واحد عن تاريخ البيتزا ، طلبت زنتانا حسن من زوجها شاهو ، ابن خالتها خانمي ، أن يأذن لها بعبودية جديدة : البحث عن حرية .

طلبت منه الطلاق ، فأذعن الشابُّ الطيِّع ، الرقيق الطباع ، بهدوء ، بعد تمتمة قصيرة : «ألستُ زوجاً جيداً؟» ، ساءلها ، فردت : «أنت أكثر من زوج جيد» . قبَّلت جبينَه : «أنت جيد إلى درجة لاتُطاق» .

ابتسما ، في امتنانٍ لايعرفان مَنْ منهما مدْينٌ به للآخر .

زنتانا لم تغادر منطقة باغرْموسنْ . طلبت من هيئة تدبير المنازل المُستأجَرة منزلاً في باغرموسن ، في محيط دار حضانة ولديْها ، فتدبرت

الهيئةُ لها شقةً من شقق الطبقة الثالثة ، لعمارة بأربع طبقات . كل مافي الأمر أنها انتقلت إلى شارع جديد اسمه إيريك تافاسْت ، عبرتْه مراراً ، من قبل ، إلى دكان السِّلع الشرقية ، على قربٍ من مدخل محطة قطار الأنفاق . إنه دكان المخلَّلاتِ المهذبة مختلطةً من خيار ، وملفوف ، وفلفل حرِّيف أخضر ، وقُنبيط ، بنكهة ثوم أو من دونها . نقانق بثوم ، أو من دون ثوم . حمص متبل بالطحينة وتوابعها . فول بثوم وعصير ليمون . باذنجان متبَّل بالطحينة وتوابعها . دجاجٌ حلال . نقانق دجاج حلال . رُب رمان . طحينة . مربَّى ورد . هريسة من فلفل أحمر حرِّيف . باميا معلبة ، أو مجلَّدة . أجبان مجدولة ، أو منكَّهة بالشونيز ، يتعثر بها الذوقُ هرولةً إلى التخوم الشرقية من البحر المتوسط ـ البحر الكلب تُرمى إليه عظامُ الأمم : بحر مليء بالعظام . لمائه طعمُ العظام ، والنبوَّاتِ المجفَّفةِ مِلْحاً يكفي ألفَيْ قرن لحفظِ الحياةِ كقديد مالح .

كان قَدَرُ الحرية الجديدة ، بين يدي زنتانا ، مملَّحاً بدَوره ، فاستدرجَها بحظوظ الملح إلى شراكة مع كرديَّين من نصيبين افتتحا دكاناً للسلع الشرقية ، في مكان ما من الشارع ذاته ، المُفضي إلى دكان السلع الشرقية الآخر ، القريب من محطة قطار الأنفاق ، مجاوراً ـ بالتحديد ـ لمطعم بيتزا يديره سرياني من العراق . أقنعتْها قريباتٌ من زوجة أخيها أن تحفظ لنفسها خيارَ البقاء طليقةً بعوائد مالية من استثمار مع الكرديين الصديقين من نصيبين . أربعون ألف كرون ، لاأكثر . باعت قليلاً من حليِّها الذهب ، واستدانتْ بقية المال من أخيها . لم تكن شريكة يؤسِّس لها مالُها المتواضعُ قيادةً في صيرورة المشروع . حجم شراكتها زهيدٌ ، لكنه سيوفر لها عائداً شهرياً تدفعه لأخيها ، ريثما تنتهي من سداد الدَّين ، فتغدو الأربعون ألفاً مُلْكاً خالصاً ، وكذلك عوائدُ الأربعين ألفاً ، مهما كان حجمها ، تسند به

دخلَها المتفرِّق من بداية متعثرة في الترجمة بين المحققين في طلبات الهجرة وأصحابها الكُرد، أو العرب، إضافة إلى معونة من الدولة لطفليها، وتعويضٍ على استئجار الشقة، ومنشورات أخرى يجد المهاجرون ثغراتٍ إلى تحصيلها في القانون الرقيق الصوت.

خليل رمُّوْكْ كان أكبر الصديقين الشريكين. سعى جاهداً، بعد حصوله على الإقامة، أن يجيء بزوجته، وابنتيه، فأبتْ زوجته. دأبَ، بعد ذلك، على زيارتهنَّ كل نصف سنة، أو سنة، محمَّلاً بمالٍ وببعض الشوق. هو نفْسُه، بتواطوءٍ مع الشرق المتحيِّر في تعريف الجهات، حبَّذ بقاء ابنتيه في تركيا؛ حبَّذ أن تكبرا متينتَيْ العظام بسهر الرعاية العفيفة من أهله عليهما. لكنه، مُذْ جذبته مَلاحةُ لسان زنتانا عن شغف أنفها برائحة دخان التبغ، من غير أن تكون مدخِّنةً، أشْغلَ قلبَه بدخانٍ نفختْه زنتانا عليه. حاصرَها بالمدائح على الهاتف حتى تزوَّجته.

ظلت الأعمال الصغيرة، في دكان الشرقيات، على مايرام، طوال تسعة أشهر. لكن شريكهما كمال أسْلان تملَّكته نوازعُ التوسُّع: شقيقاه محمود، ورَجب، أجَّجا فيه نَهَمَ تقسيم الدكان إلى جناحين متلاصقين، أحدهما للسِّلع ذاتها ـ المخللات، والمملحات، والمحفوظات في العلب الصفيح، أو الآنية الزجاج؛ والجناح الآخر للكباب الهرميِّ الدائرِ، كعادة الشائع منه، على سيخ عمودي أمام واجهة من نار: عجينة من لحم خالَطها من الموصوفات مايجعلها متماسكة، منضَّدةٌ طبقاتٍ في السيخ يجري كشطها، من أعلى إلى أسفل، شرائح رقيقة، بسكين ذاتي الحركة ـ كهربائيِّ العقل.

تُجمع شرائح اللحم في خبز رقيق مهيَّأٍ جيوباً، مع ملاعق من صلصة البيارنيز. كلُّ راكضٍ في الشارع، أو مهرول، أو مضلَّل الذوق بسبب

الجوع ، يستطيع التقاطَ لفافة الخبز المنتفخة ، الموضوعة في كيس ورقٍ قِمْعٍ يحفظ اليدين من بَلَل الصلصة البيضاء المُفعمةِ زبدةً .

لم تعجبِ الفكرةُ زوجَ زنتانا ، الطويلَ ، ذا الشاربين المنحدرين أسفل زاويتَيْ فمه . خليلٌ عصبيٌّ ، يثور فجاءةً ، ويهدأ فجاءة ، مع حنان في طبعه . سريعٌ في إفراغ منيِّه إذا اعتلى زوجته . سريعٌ في النهوض عنها ليتركها تمسح عن جسدها سائلاً كصمغ الباميا في العُلب الصفيح .

الأمور جيدة ، في اعتقاد خليل ، وما من داعٍ للكبابِ التبنِ ـ خدعةِ الكباب المهينة يجري تسويقها في مملكة لم يتسنَّ لها ، بَعْدُ ، التمحيص في أصول هذا الطعام . لاقرابة ، أو نسَب ، بين الكباب وما يباع في السويد باسم الكباب . خليل غاضب ، وزنتانا تستغرب غضبَه الخارج عن المعقول . تستطيع ، وحدها الزَّعم أن هذا الكباب ليس كباباً . مايعرفه أهل شرق المتوسط عن الكباب لايشمل ، قطْعاً ، هذا التزوير للكباب في شمال شرق المتوسط . مكعبات من اللحم في الأسياخ ، بينهما قِطع البصل ، والبندورة ، هي الكباب . اللحم مفروماً بالبصل والبقدونس ، في الأسياخ المسطحة ، العريضة ، هو الكباب .

لربما اختلفت تزويقاتُ النكهة ، في الأسياخ ، من منطقة إلى أخرى شرق المتوسط ، ومن تخوم إلى تخوم تجاورُها :

يرتأي البعضُ لكبابِ قطع اللَّحم المكعبة القليلَ من اللبن ، والغار ، والفلفل الحرِّيف الأسود ، وعصيرَ الليمون .

يرتأي بعضٌ ثانٍ أن تُمرَّغ قِطَع اللحم في زيت زيتون ، وخلٍّ ، وفلفل حريف .

يرتأي بعضٌ ثالث أن تتجاور في الأسياخ قطعُ لحم ، وشحم خالص ، وبصل ، متبَّلاً بربٍّ البندورة ، والثوم .

يرتأي بعضٌ رابع أن تُتبَّل قطع اللحم ببعض عجينة الخردل ، وربٍّ الفلفل الأحمر الحرِّيف .

يرتأي بعضٌ خامس أن تُنْقع قطعُ اللحم في نبيذ أحمر ، بكحولٍ فيه أو خالٍ منه ، وفي ثوم مطحون ، وزيت زيتون ، وصعتر يابس .

يرتأي بعضٌ سادس أن تُلَتَّ مكعبات اللحم في فلفلٍ أحمر ، حريف ، طازج ، مفروم جيداً ، وبصلٍ مفروم جيداً ، وبقدونسٍ مفروم جيداً ، وزيت زيتون ، وثوم مهروس ، ونبيذ أحمر ، ستَّ ساعات قبل ضمٍّ القطع في الأسياخ .

أمٌ أخرى ، شرقَ شرقِ المتوسطِ الأبعدَ ، تطلق على أصناف من الشواء اسم الكباب ، مكوَّن من قطع الدجاج المنقوعة في بعض اللبن ، والقشدة ، والكثير من التندوري ـ تابلِ الهند ، الذي يستقرُّ تحت الجلود . وقد يستعيضون عن الدجاج بالخنزير ، في أسياخ تتراصف فيها قطع الكوسا ، والباذنجان ، والفلفل الأحمر ، الطازج ، الحلو .

تنويعاتٌ على اسم الكباب . لكن قَسَم لحم الضأن ، أو الدجاج ، أو الخنزير ، أو العجل ، يبقى قَسَمَ القِطَع مكعَّبةً بلا فرمٍ ، أو طحْن .

أما كباب اللحم المفروم ففيه اجتهاد ، أيضاً :

يرتأي بعضٌ خلطَه بالبصل ، والبقدونس ، مفرومين ناعماً ، متبَّلاً بما يستلطفه ذوق الآكلين من التابل .

ويرتأي بعضٌ ثانٍ أن يُعجن اللحمُ المفروم بالفلفل الأحمر ، أو الأخضر ، الحريف ، الطازج ، المفروم جيداً ، وبالبقدونس والبصل المفرومين .

ويرتأي بعضٌ ثالث مزج اللحم المفروم بربٍّ الفلفل الأحمر الحريف ، والصنوبر .

بعضٌ رابع يرتأي مزج اللحم المفروم بالسماق ، والبصل المفروم جيداً ، بنكهة القاقُلة المطحونة دقيقاً .

بعضٌ خامس يرتأي مزج اللحم المفروم بقليل قليل من اللبن ، حِفْظاً تماسكه على الأسياخ ، فإن زاد اللبن تساقط اللحم ؛ وببصل مفروم جيداً ، وثوم ، وبالكثير من القرفة المطحونة . وزيادة في الحرص على تجنُّب الخطأ يُفضَّل وضع الأسياخ على طبق في قسم التجليد من البراد خمسَ عشرة دقيقة ، ونقلها ، من ثم ، مباشرة ، إلى الجمر الوهَّاج .

من حق ذائقة زنتانا عليها أن تستنكر دِيْنَ الكباب التركي المعروض في مقاصير السويد ساخناً ، أو المُجلَّد في أكياس من إنتاج الدانمارك ـ المملكة المتوسعة في تبنِّي الموجِ السحريِّ للأساطير مقذوفاً ، عبر الرياح ، من المتوسط إلى البلطيق : زبدٌ كثير من خبز «بيتا» ، والفلافل ، وجبنة الحلومي ، وخبز الصاج أوْ مايَعدلُه . زبَدٌ صلبٌ ممهور بختم الدانمارك . لكن يظل من حق زنتانا ، برغم البهاء الكوني لهذا الكباب في الأرخبيل الأسكندنافي الأعظم ، أن تستنكر خليطَ اللحم المفروم بمقادير من الشحم كالسيل ، مجبولاً بما لاتستطيع تخمين عنصره : أَهو طحينٌ ، أمْ تبنٌ ، أم طين ، يحفظ الخليطَ متماسكاً بقوة ، فيقتطعونه شرائحَ كبيرة ، صلبة ، يرصفونها طبقاتٍ في الأسياخ ، لايجرفها سيلٌ ، أو تضعضعها عاصفةٌ كونية .

إنه كبابٌ فقيه في إذلال اللحم ، شبيه بإذلال النباتيين للَّحمَ ، وإهانته ، بابتكارٍ مُسْرِفٍ في التلفيق : «لحمُ فستقِ الصويا» . !!!! . طينٌ مجبول من فستق الصويا المهروس ، مع صمغ مَّا ، لالحم فيه ، لاعصَبَ دجاجة فيه ، لاشحم فيه ، ويُدعى ، عنوةً : لحماً .

زنتانا تعرف نَسَباً إلى هذا التدبير التركي في تنضيد اللحم هَرَماً ،

اسمه «شاورما» : شرائح عريضة من اللحم خالصاً ، بنكهة الثوم والخل ، تُرصف طبقات في سيخ كبير يدور على قاعدته ، أمام كوَّة مستطيلة ، عمودياً ، من النار الكهرباء . يجري كشْطُ ماينضج من سطح الشرائح ، تباعاً ، بسكين سيف ، لتستقرَّ القطع الرقيقة في لفائف من الخبز يُضاف إليها مَرَقٌ سميك مثوَّمٌ من الطَحينة واللبن .

زنتانا لم تغضب من عَرْض كمال ، فلماذا غضب زوجها خليل رمُّوك؟ . على أية حال ، سينتصر الكبابُ على خليل ، وسيسرقُ الكبابُ زوجتَه زنتانا حسن .

لقد تودَّد كمال ، باعتدال لسانه الذَّلق ، إلى زنتانا كي تقنع زوجها بجدوى الترتيب الجديد ، المضمون ، بحساب النظر إلى مذاهب الأطعمة المجتاحة أذواقَ الشوارع في السويد .

لم يقتنع زوجُ زنتانا .

تقدَّم كمال بعرْضٍ جديد : الحصول على ترخيص يُقسَّم بموجبه الدكانُ مناصفةً بينهما ، فيستمر خليل في إدارة مخلَّلاته ، ومعلباته ، وأجبانه ، وزيتونه ، فيما يقيم كمال عُرساً للنار ببركة الكباب .

لم يتزحزح خليل عن رفضه ، فوجَّب على كمال تقديمُ مُقْتَرَح آخر ، لا فسحة لشبر من المساومة فيه : إمَّا أن يشتري خليل حصته ، أو يشتري حصَّةَ خليل من الدكان .

دَعْمُ أَخَوَيْ كمال له عزَّز اقتداره على الغلبة ، فاستقرَّ الدكانُ ، كاملاً ، في إدارته ـ إدارةِ الرجل البدين قليلاً ، الأعزب ، برغم بلوغه السادسة والثلاثين . لكنه ، بتودُّدٍ زادَ في استرساله ، أوعز إلى زنتانا أن تستمر شريكةً له بالأربعين ألف كرون الزهيدة حتى الضحالة إذا قورنت بالثمن الكُلي للدكان . فوجئت زنتانا قليلاً ، مع إحساس لم يفارقها أنها ستظل

شريكة لكمال في مشروعه ، بالتعادل اللامتكافىء بين نملة وفيل .

ضربت الصواعقُ رأس خليل : كيف تبقى زنتانا شريكة في مشروع كمال ، الصديق سابقاً ، الذي سلخه : «أنا بدأت المشروع . مشروعُ الدكان هو جِلْدي ، وقد سلخني كمال» . هدَّدها : «عليك أن تختاري بين البقاء شريكة له في الدكان ، وبيني» . نثر سخريتَه منها عليها كالرذاذ المتطاير من فمه الغاضب : «أأنت مقتنعة بهذا المنطق : شريكة بأربعين ألف كرون مقابل مليون ومائتي ألف؟ . هل ابتلعتِ عقلك؟» .

«ألم تكن طرَفاً في قبول شراكتي لكما ، بأربعين ألف كرون؟» ، واجهتْه زنتانا بمنطقها .

«منذ البداية كان الأمر تدبيراً من قريباتٍ لزوجة أخيك ، كي يستدرجْنَك إليَّ . ألا ترين؟ . لقد تزوجتُكِ» .

بدا خليل مُقنِعاً . كيف لم تفطن ، هي ، إلى هذا الاستدراج الواضح؟ . ستصارح كمالاً برغبتها في التراجع عن مشاركته في مشروعه . ذهبت إليه بلسان اعترافها : «سيطلِّقني زوجي إن أصررْتُ على البقاء شريكة في مشروعك . تَفَهَّمْ حالي» ، قالت ، ففاجأها كمال مبتسماً باستخفاف من تهديد زوجها خليل لها :

– ليكُنْ . سأتزوجك .

لم تنجب زنتانا من خليل ، الذي انتقل ، حين تزوَّجا ، إلى شقتها في شارع إيريك تافاست ، الواسعة قليلاً . ولداها سيرين ، ونعمان ، لم يبديا اعتراضاً ، أو موافقة : طفولتهما غير مهيَّأة ، بعد ، لاعتراضٍ ، أو موافقة . كانا باديَي الفضول ، لاأكثر . وقد بقيا على فضولهما عشرةً أشهر حتى رأياه يحمل حقائبه مغادراً ، ويأتي زوج جديد بحقائبه ، هو خليل أسلان ، بعد شهر واحد من غياب خليل رمُّوك .

بكِرْشِهِ المندلقة فوق نطاق سرواله الداخلي ، الضيق ، كان كمال يبدأ تجواله الصباحي بين غرفة النوم والمطبخ ، أمام أبصار ولَدَيْ زنتانا : سيرين ، ابنة الخامسة ؛ ونعمان ، ابن الثانية . وقد نبهتْه مراراً إلى خصيتيه المندلقتين ، ببعض صفنهما ، من شقٍّ أماميٍّ في السروال ؛ نبهتْه إلى قضيبه المنتفخ في الذهاب للبول ؛ نبهتْه أن يُبقي بابَ الحمام مغلقاً ، لامفتوحاً ، كعادته إذْ يستحم ، أو يجلس على مقعد المرحاض . نبهتْه ، أخيراً ، إلى وجوده ، الذي لم يعد يُطاق ، بعد الشهر الثالث من مجيئه إليها زوجاً : «احزمْ ثيابَك في الحقيبة ، وارحلْ . لاتنسَ أن تحزم مع ثيابك كرشَكَ ، وقضيبك . عليَّ تنظيف البيت من رائحتهما ، ومن ظليهما» .

شجارٌ بشتائم متوسطةِ اللَّذْع ، أعادت الحياةَ إلى سكَّة قلب زنتانا قطاراً قصيراً ، ضيِّقَ الهيكل ، لكنه مؤثَّث جيداً بمقاعد شاغرة .

منذ الثالثة والثلاثين ، أقل قليلاً أو أكثر قليلاً ، من عمرها ، تعثرت الحظوظُ في القبض على قلبها هِبةً لذَكَر . وقد آثرت ، هي ، أن لا تصحِّح للحظوظ عثرتَها . تواطأت مع بقائها أُمًّا تقتنص ساعاتٍ أكثر ، سنة بعد أخرى ، في الطريق إلى فُرَص الترجمة عند دائرة الهجرة . الشقاءُ الطاحن ، في أمكنةٍ مًّا ، يحمل هِباته في أيدي المهاجرين فُرَصاً للترجمة في أمكنة أخرى . سخاءُ الظلم يؤخذ على محمل السخاء . مهاجرون يتوافدون ، معتدلين في عَرْض شقائِهم ، أو مُغاليْنَ . لافرق . على أحد مًّا أن يتوسط في الخلاف الخفيف بين ضرورة الهجرة ، والرغبة فيها .

زنتانا وسيطٌ ؛ لغةٌ وسيطة للبرهان على أن شيئاً مًّا تغيَّر في حياة بشر هاربين ، أو ينبغي أن يتغيَّر . وكلما زادت الهجرات زادت وساطتُها . كلما زادت الأمكنة نَهَماً إلى التهام شعوبها زادت وساطةُ زنتانا ، وصديقات زنتانا في المهنة ، وزادتْ أُخوَّةُ محافل الترجمة الشبيهة بمحافل الماسونية ،

في الجغرافيا المعهودة للهجرات ، أو المُرْتَقَبة أيضاً في جزر الجليد الأبعد ، على تخوم الليل ستين سنة في النهار الواحد .

إبنة زنتانا ، البالغة الخامسة عشرة ، الآن ، سيرين ، هي التي تسببت في تأخير وصول أمها إلى السهرة الأسبوعية ، المتعاقبة ، من منزل صديقةٍ إلى أخرى . كان على زنتانا أن تعود بسيرين ، من تدريباتها على كرة السلة ، إلى البيت أولاً ، بسيارتها ، قبل الذهاب ، في القطار ، إلى بيت نازلي . منذ ست سنين تؤدي سيرين ، مرتين في الأسبوع ، شعائرَ الإقامة في الحركة ، بجسدها ، ساعتين تماماً . لقد اختارت كرة السلة بترتيب من عقلها في الحساب : التحدي هو الطول . سيرين طويلة . قبل ست سنين ، وهي في التاسعة تحديداً ، بلغ طولها ١٥٦ سم . أما في سنتها هذه ٢٠٠٨ ، فيبلغ طولها ١٧٢ سم . بصرُ جسدها ظلٌّ ، أبداً ، على علوٍّ من الأشكال الواقفة على مرمىً منه . تنظر إلى أسفل ، إذ يخاطبها الجالسون بأعمارهم على الخيط ذاته ، الذي عُلِّقتْ إليه سنونُ عمرها . تنظر أسفلَ إلى الحساب : جسدُها خُلِقَ متحدِّياً .

فتَنَتْها الأختان الأمريكيتان ، السوداوان فينوس ، وسيرينا وليامز ، بقفزاتهما في الفراغ الساحر ، لَعِباً وراء شبكة كرة المضرب . شابَّتان تطيران بجناحين من بُنٍّ أسود : ضرباتٌ يتناوب عليها سَحَرةُ الوجود ، اللامرئيون ، عبر شبكة واطئة لاتردع عبورَ إلهٍ هارب ، أو تقتنص إلهاً ساحراً من الكُرات الصغيرة تلك ، التي تفتح ، خبطةً بعد أخرى ، ثغرةً في وجوده المتشرِّد .

فتَنَها عَرَقُ الأختين السوداوين يُحيل بشرتيهما إلى قارات بُنِّيةٍ مرسومة على جلدٍ إنسانيٍّ . تنتصران مُتْخنتيْنِ عَرَقاً . العَرَقُ أكثر إفصاحاً عن انتصاره فوقَ جلدٍ أسود .

قطرة العَرَق تنبثق كبيرة ، كُرةً مكتملة ، من المسام الأسود ، لتنحدر ، بقوة ، على الجلد ، في غلاف من الضوء . قطرةٌ تلحق أخرى بفواصل بينهما . لاتلمس قطرةٌ قطرةً أخرى : كل واحدة مُحْكَمة الانغلاق على ذاكرة من ماء وملح منسوجيْنِ نقوشاً مُلغزة من تعب الجسد .

كان دأبُ سيرين أن تلتقط تلك البرهة من جلوس المتباريات بكُرة المضرب ، في فواصل الاستراحة القصيرة ، على مقاعد يغرفن ماءً من زجاجات لها أفواهٌ حَلَماتٌ ، ويجفِّفن ، بالمناشف ، ذلك التاريخ السائل من مسامهنَّ ـ تاريخَ التعب : تعبٌ خسارةٌ . تعبٌ نصرٌ . برهةٌ تنضجُ ، على المقاعد ، في الاستراحات القصيرة بين مجابهةٍ ومجابهة .

عَرَق اللاعبة السوداء سيرينا أكثر كثافة من عَرَق أختها فينوس . لم يلحظ أحد ذلك ، أبداً ، إلاَّ سيرين ، ابنة زنتانا : تقترب بوجهها من شاشة التلفاز حتى تلتصق بها ، وتضع إصبعها على المسار المتعرِّج لقطرات العرق فوق وجهيهما ، في كل منازلة تخوضانها ضد من يتَّفق أن تخوضا المنازلةَ ضدها ، حتى اليوم ، الذي جمعَ الأختين ، في تحصيل أخير للانتصارات وضعهما وجهاً لوجه ، إحداهنَّ أمام الأخرى على جهتَيْ الشبكة الخضراء . أمهما ، وحدها ، في الحشد المستَعِر ترقُّباً ، أغمضت عينيها ، مراراً : انتصار إحداهن ، في جولةٍ ، هزيمةٌ لنصف قلبها . خسارة إحداهن ، في جولةٍ ، انتصارٌ لنصف قلبها .

لكن سيرين ، الطويلة العظام ، لحظت صنفاً آخر من العَرَق على جلد أسود : عرق لاينحدر قطرة وراء قطرة ، بل يتناثر منفجراً دائرياً ، نصفَ مروحة : لقطة بطيئة في التصوير قدَّمتْ وجه لاعب كرة السلة الأسود شاكيل أونيل ، مُعْتَصَراً يقطر ضياءً مائياً ، مرتفعاً عن الأرض نصف متر ، وهو يرمي الكُرة البرتقالية ، المُحْتَقِنة ، بحسب اللون في التلفاز ، قوسياً إلى

يديٍّ الله ، فيضعها اللهُ في القِمْع الشبكةِ ، الذي يُدعى سلَّةً .

أحبت سيرين أن تُرِي نفْسَها ، ببصرٍ من خارج جسدها ، نصفَ المروحة ، تلك ، من العرق ، حول وجهها هي : قادها عَرَقُ شاكيل أونيل إلى كرة السلة ، فانتسبت إلى دِيْنِ اللعبة بلا نبيٍّ مُرْشِد ، بل بعَرقٍ مُرشد .

«لطالما تمنيت أن أقود سيارتي إلى بيوتكن ، وأن أعود في سيارتي إلى البيت» ، قالت زنتانا ، وهي تشير بيدها أن تفسحَ لها راوت مكاناً إلى جوارها على الأريكة الجلدِ ، الضخمة .

«الأمر سهل» ، ردت نازلي . «حين تزورين بيت كل واحدة منا لاتشربي جعةً . خذي حصتك معك إلى البيت . ستكونين ، بذلك ، إلى جانب القانون» .

«ياقانون» ، همست تاسو في طَرب . «تلقيت من الأكراد ثلاثة آلاف رسالة ، على الأنترنت ، تؤيدني في مسعاي لتغيير اسم شارع كاترينا باركن . في هدوءٍ سينتصر وليُّ القشدة الملا علي خابوت» . تطلّعت إلى صديقاتها في تحدٍّ : «ربما غيرتُ اسم رِنكَبي ، ذات يوم» .

«ألا تفكرين بتغيير اسم السويد؟» ، ساءلتها ريحاني باستخفاف .

جرَّتْ زنتانا المحاوَرَةَ إلى جهتها : «ابن القحبة الجالس قبالي ، في القطار ، كان يقلِّب أوراق صحيفة وهو يبصق على إبهامه . كلما انتهى من تقليب ورقة بصق على إبهامه ليقلِّب ورقة أخرى . يخاف على لسانه من سُمِّ الحبر الطباعيِّ على الصفحات إنْ لعقَ إبهامه وقلَّبها . كان مقزِّزاً . تجاهل عينيَّ كأنه الأوحد وجوداً في القطار . رذاذ بصاقه مسَّ حذائي . أنفٌ كبير . لم ألحظ منه غير أنفه . إيراني ، أو تركي . .» .

«كردي ربما» ، قاطعتها زليخا ، ذات الأنف الكبير .

«الأشـيـاء الكبـيـرة تثـيـر الاهتـمـام ، إلا الأنوف . نحن لانملك من الأشياء الكبيرة إلاَّ أنوفاً كبيرة» ، قالت شيراز . أضافت : «ماحكمة الله في خلق أنوف كبيرة؟» .

«لو وافقناك في منطقك لسألْنا اللهَ عن الحكمة في وجود الهواء . بلا هواء ؛ بلا أنوف ؛ بلا ضوء ؛ بلا أيور ؛ بلا سهرات أسبوعية كهذه ؛ بلا كلام ؛ بلا شارع بيت تاسو ، ورسائل تاسو إلى الأكراد ؛ بلا هذا كله كان يمكن الحياةُ أن تجد صيغة توافقُها كي تستمر» ، قالت درخو . استدركتْ : «لو استمر افتراضنا أن الحياة تتدبر لنفسها حماراً تركبه ، حتى أبد الآبدين ، بلا هذا الأمر ، بلا ذاك الأمر ، لما وجد الله مايملأ به الوقتَ الضائع . هو مشغول بلا توقف . وقد استراح مرة واحدة فأوجدنا بأنوف كبيرة كي نتسلى» .

«ماالتسلية في وجود أنوف كبيرة ، يادرخو؟» ، ساءلتها زليخا ، فردت درخو :

– لم أفكر في هذا بعد .

«فكري ، إذاً ، قبل أن تجعلينا تسلية للبشرية» ، قالت ريحاني ، ذات الأنف الطويل قليلاً . حثَّت خيالَها على استدراكٍ يُرضي خيالها : «في اعتقادي أن الأنوف الكبيرة تقتصر على الشعوب ، التي يتناقص عندها الماء . تعويضُها عن نقص الماء ليس أكثر من قدرتها على استنشاق رائحة الماء الأبعد من قدرتها على الوصول إليه . أنوفٌ بوصَلاتٌ تكبر بلا توقُّف كلما ازداد اختفاء الماء . الأوروبيون يملكون الكثير من الماء . أنوفهم صغيرة . الماء تحت أنوفهم ، لذلك لاتكبر أنوفهم» .

«لو توقَّف ابنُ القحبة عن التَّفْل على إبهامه» ، قالت زنتانا ، الراجعة بغيظِها أشباراً من الوقت إلى الوراء . «صرختُ به : ربما بصقتْ أُمُّك طويلاً

على فرجها كي تلذك» .

«بأية لغة شتمته هكذا؟» ، ساءلتها تاسو .

«بالسويدية» ، ردت زنتانا .

«أتُحسنين تركيب جملة كهذه بالسويدية؟» ، ساءلتها تاسو ، ثانيةً ، فردت زنتنا مستغربة :

- مكّنتُ مئات المهاجرين الكذابين من اجتياح السويد بلغتي السويدية ، ياتاسو ، فهل أعجزُ عن نيْكِ ابن قحبة يبصق ، طول الطريق ، على إبهامه؟ .

نهضت تاسو بغتةً . وضعت يديها على كتفَيْ زنتانا وهي تشهق : «هل نِكْتِهِ؟» .

قهقت صديقاتهما .

صرخت نازلي ، مضيفةُ زائراتها ، بابنها بَانُونا ، المقترب من الطاولة السماطِ المتهيِّىءِ بمآكله : «لاتضعْ يدك على شيء» . عبس الصبي ، ابن الثالثة عشرة ، البدين : «لن آكل من هذه المزبلة . لاتخافي» ، قال بالسويدية .

صرخت نازلي من جديد : «نوح . نوح» . خرج شاب في الثامنة عشرة من الرواق المفضي إلى صالة البيت . «أعرف أنكم لاتحبون هذه الزبالة» ، قالت في إشارة من رأسها إلى صحاف مبسوطة فوق السماط : «هيِّىءْ لنفسك ، ولإخوتك ، ياحبيبي ، بعض كرات اللحم ، وشرائح البطاطا الجاهزة» .

عبر الشابُّ الصالة إلى المطبخ ذي البابين ـ واحد مفتوح على الرواق ، والآخر على الصالة . أعدَّ لنفسه ، ولإخوته الثلاثة ، من الطعام المجلَّد ما يستسيغونه . غاب تسع دقائق فاكتملت معجزةُ نضوج الطعام بوساطة

المايكروويف . خرج حاملاً صحنين كبيرين في يديه : «لن نأكل معكم» ، قال بالسويدية ، متوجهاً إلى غرفة في آخر الرواق ، وهو ينادي : «بانونا . هاتِ كاتش أب» .

نوح ، ابن الثامنة عشرة ، وأخوه توفو ، ابن السادسة عشرة ، يقيمان مع أمهما نازلي في الطبقة الثانية من إحدى العمارات ، الواقعة في منطقة فَيْلِنغْبي . أخواهما الآخران تامو ، ابن الخامسة عشرة ، وبانونا ، يسكنان مع أبيهما هارون هنانو ، في منطقة سُوْدِرْمَالْمْ . والأخيران يزوران أمهما ، عادة ، كل سبت وأحد .

لم يُرْضِ ذوقَ الأربعة ، ذلك المساء ، ماأعدَّته أمهنَّ من صَحْفة الفريكة ـ القمح الأخضر مشوياً بنكهة ليست لأي قمح آخر ، تحيط بهرمها ستُّ دجاجات مقسومة أنصافاً ، وإلى جوار الصَّحْفة الكبيرة وعاءٌ فخَّارٌ مليء بسلطة اللبن والخيار المثوَّمة .

كانت إشارة نازلي الآمرة ، من يديها ، كافية لنهوض صديقاتها عن الأريكة الجلد ، الضخمة ، نصف القوس ، التي التهمت نصف صالة البيت . جرَّتْ شتولا كرسيًا . جرَّت درخو كرسيًا بدورها ، ليكتمل للنساء العشر مقاعدهن حول الطاولة ـ السماط المستطيلة ، المحفوفة بثمانية كراسيٍّ متقابلة .

نقلت الملاعقُ الكثيرَ من القمح ـ الفريكة إلى الصحون . وجرَّ الملقطُ الكبير ، الأسود ، أنصافَ الدجاج ، وأرباعها ، إلى جوار القمح ـ الفريكة في الصحون . سِرْيانٌ يبيعون الفريكةَ ، في أكياس مختومة ، بلا أيِّ تعريف ؛ بلا اسم مَصْدرٍ ؛ بلا توثيقٍ لتواريخ الحِفْظ ، أو لتواريخ التبشير بغزو السوس . الشرقيون ـ العربُ ، والكرد ، والفرس ، والسريان ، والآشوريون ، والكلدان ، لايخطئون الأكياسَ بأبصارهم إذا دخلوا دكاناً يبيع

الفريكة : قمح طريٌّ ، يُقطفْ قبل نضوجه ، فيُشوى في السنابل ، ويُغربَل ، ويجفف ، ويعبَّأ في الأكياس طعاماً يُطبخ بمرق الدجاج ، أو مرق اللحم . طعامٌ حنينٌ ، في الأرجح . مذاقٌ خاص من أثر النار ، ومن الإرث المحفوظ مَذاقاً في ذاكرة الشرقيين ، قد لاتأبه له ذاكرةُ مذاق الغربيين . المَرَقُ ، المنكَّهُ بالتوابل ، هو الذي يمنح الفريكة حظوة على المائدة . لاخاصيَّة أخرى تجعل حبوبَ القمح الأخضر المشوية ، هذه ، استثناء بين الحبوب المتطابقة معها حَجْماً .

مامن فريكة جُلبتْ في كيس مستورَد ، أو محمول داخل حقائب العائدين من أسفارٍ إلى هلال المتوسط الشرقي ، إلاَّ خالط حَبَّها الحصى الصغيرُ ، والزؤان ، وقِشر السنبل . قبل طبخها توضع على صحفة كبيرة ، ثم تُنقى ـ بتؤَدة مضجرةٍ ـ من شوائبها . تفرَّق الحبوب بأطراف الأصابع . تُلتقط الأوساخُ بأطراف الأصابع . تُغسَل الفريكةُ ، بعد ذلك ، زيادة في الحرص على نقاء حبوبها . ومع ذلك لا تنجو طبخةٌ من أن تترك بين الأسنان صوتَ هَرْسِ حصاةٍ مَّا .

هل تُشوى سنابل القمح الغضَّة في نار على الأرض؟ ألا يمكن أن تُشوى في صاجٍ بعيد عن تراب الأرض ، وحصاها ، وصخورها ، ورملها؟ . قانونٌ غامض يحفظ للفريكة وجوبَ اختلاط حبوبها بلوثة دخيلةٍ ـ لوثةِ الحصى ، والرمل ، والزؤان ، والسِّنْف .

الفريكة قمح أخضر ، محصود قبل نضوجه ، مشويٌّ في قشره على نار ملتهبة . ومن خصائص جوهره أن يخالطه الحصى ، والتراب : ذلك قَدَرُه .

سُكِبَ نبيذٌ أبيض ، من صناعة ريحاني ، في الكؤوس ، والأقداح ، من الحاوية البلاستيك ، البيضاء ، التي كانت ، ذات يوم ، ملآى زيتاً نباتياً ؛ وتفجَّرت الأغطيةُ المعدن ، الصغيرة ، عن علب الجعة من عيار

٣,٥٪ كحولاً .

عاد نوح ، عبر الردهة ، إلى الصالة . بحث بعينيه عن شيء مَّا على المنضدةِ الحجر ، المستطيلة ، أمام الأريكة نصفِ القوس . اتجه ، من هناك ، إلى المطبخ . نادته أمه : «أتريد شيئاً ، ياحبيبي؟» ، قالت بالكردية ، فردَّ نوح بالسويدية المختلطة بالكردية :

– هل التهمتُنَّ الكاشيو كلَّه؟ الصحن فارغ .

«أتبحث عن كاشيو؟» ، ساءلته شتولا بصوتٍ ذي مخالبَ سُكَّر .

ابتسم لها نوح . نقلت شيراز ، عينيها ، من مجلسها على الطاولة ـ السماط ، بين وجهيهما .

«هل اشتريت كلباً ، ياتاسو؟» ، ساءلها نوح بلا مقدمات ، فوبَّخته أمه :

– اسمها أمُّ بدران . لاتنادِها باسمها عارياً .

«باسمي عارياً؟» ، قالت تاسو في مرحٍ . «نادِني باسمي عارياً ، ياحبيبي» . مالت بكتفها صوب نازلي الجالسة إلى يسارها . همست بصوتٍ انفلتَ همسُه : «لم يُعَرِّني أحدٌ منذ مائة سنة . فَلْيُعَرِّ أحدٌ ما اسمي من سرواله الداخلي» .

تتالت من حولها كلماتُ التوبيخ مُخْتَزَلةً في إشارة واحدة من إشارات اللسان : «هشْ . هشْ . هشْ» .

تجاهلت تاسو التعنيفَ الهامس . قالت متوجهة بعينيها إلى نازلي : «لم أشترِ كلباً بعد . والله لم أشترِ كلباً» ، عادت بوجهها إلى الشاب الواقف قرب الطاولةِ الحجر :

– اخبرتْكَ أمك .

دافعت نازلي عن نفسها : «أخبرتُه عن طوق الكلب ، ومقوده» .

قاطعتْها تاسو : «وعن الله ، ويوم القيامة» .

ضغطت نازلي بيدها على عضد تاسو : «فلْنأكل» . نظرت إلى ابنها : «في الخزانة ، فوق غسَّالة الصحون ، كيس من الكاشيو» .

«كاشيو» ، تمتمت شتولا .

نقلت شيراز عينيها ، من جديد ، بين وجه شتولا ونوح المبتسم ، وهو يعود أدراجه إلى غرفته ، عبر الردهة .

«أيره كبير» ، قالت نازلي وهي لمَّا تزل تضغط براحة يدها على عضد تاسو الجالسة إلى يمينها .

جفلَ دخانُ التبغ ، الذي علا قبل أن تنتهي الجالسات من طعامهن . كانت الكلماتُ تلك لاسعةً ، فانتفض عِرْقٌ ، أو أكثر ، في أصداغ الصديقتين تاسو ، وراوت ، الجالستين على جانبيها إذ سمعن لسانَها عارياً ، وكذلك اللواتي لم يسمعنها ، وقد كُنَّ منشغلات بأحاديث محمَّصة كجلود الدجاجات في صحونهنَّ : شيء مَّا مسَّهنَّ لاذعاً .

«ألا تستحين ، يانازلي؟» ، قالت راوت ممتعضةً ، فردت نازلي باستخفاف :

– مالعيب في تصريحِ أمٍّ أن ابنها يملك أيراً كبيراً؟ .

تلقَّفت الصديقاتُ ، جميعهنَّ ، كلماتِ نازلي بحواجب مرفوعة .

أدارت نازلي وجهها عليهنَّ واحدة واحدة . تصنَّعت براحة يدها أنها تمسح عَرَقاً عن جبينها من شدة الحياء . تمتمت :

– ماذا أفعل؟ إنه كبير .

«سينفعه في الجنة» ، قالت شتولا .

«اسكتْنَ . هاهو عائد» ، قالت درخو .

ظهرَ نوح من جديد ، بسالفيه السَّيْفَين ، المتَّصلين بلحيةٍ مرسومة

خيطاً رقيقاً يطوّق وجهه ، بحسب حصافة الحِلاقة على أتمِّ طراز لدى من هم في عمره . رفع نطاقَ بنطاله الجنز قليلاً ، من غير أن يغطي فائضَ سرواله الداخلي ، ذي المربعات الزرق ، بنطاق البنطال . خمسة سنتمترات من فائض سرواله ظلت ظاهرة على استدارة حوضه . تقدم من النساء بعينيه الكبيرتين ، المظللتين بأهدابٍ مراوحَ : «سآخذ واحدة من هذه» ، قال بالسويدية . جذب علبة جعة من الطوق البلاستيك المحيط بستٍّ عُلب على الطاولة ـ السماط . غمزَ أُمَّه ، وأقفل راجعاً بشراب من عيار ٣,٥٪ كحولاً .

مقايضاتٌ روحيةٌ أُجريت على عجلٍ ، في برهة من صمت الصديقات ، قبل أن يرجع الصخبُ إلى حراثةِ حقله .

ترنَّمت درخو بنغَم ثقيل المَخَارج . ترنَّمت الأُخريات مثلها بالنَّغم ذاته . رفعن أقداحهنَّ ، وعلبَ الجعة الصفيحَ ، نخبَ أغنيتهنَّ التائهة بين الأغاني . لجَمن أصواتَهن تباعاً ، خُفوتاً بعد خفوت . تراجعن إلى الوراء قليلاً ، من جهتَيِّ الطاولة ـ السماط إيذاناً بنهاية انتدابِ الجوع على مستعمَرةِ الفريكة المنهوبة . تعلَّقت الأيدي بالشراب وحده ، وبلفافات التبغ صادحة كبلابل في الأقفاص قرب أَسِرَّة الأميرات .

«أسْمِعينا أغنيةً من طرب الكرد ، يانازلي» ، قالت سلام ، فردت نازلي :

– ثمت خلل في الآلة .

«ضعي قُرْصَ التسجيل الموسيقي في بنطال ابنك نوح» ، قالت شتولا بتلميح ماجنٍ ، فرمتْها شيراز بحبَّتين من القمح الأخضر التقطتهما من صحنها .

«لماذا؟» ، تمتمت شتولا مستغربة .

«ماذا تفعل صغيرة مثلك بيننا؟» ، ساءلتها شيراز بنبرةِ عداءٍ غير معهودة ، فانبرت لهما ريحاني :

- ظننتُ أن شتولا ، وزليخا ، وحدهما ، تتناكفانِ كضُرَّتين .

«فلنشحذْ ذكاءَنا ، يامطلَّقاتُ» ، قالت درخو . نهضت عن الطاولة - السماط . أشارت برأسها أن ينهضن فنهضن ، تاركاتٍ خلفهنَّ الصحونَ صريعةً . انتقلن ، بتمامهنَّ ، إلى الأريكةِ الجلدِ ، الضَّخمة ، والأربعة الكراسيِّ المواجهة للأريكة ، من الجانب الآخر للمنضدة الحجرِ ، الراقدة في حضرة الأريكة وإشرافها .

قلَّصت درخو دعوةَ صديقاتها إلى شَحْذِ خيالهن في اختبار صغير :

- من أطلق شتيمة ، أول مرة في تاريخ الإنسان؟ .

«الحمار» ، قالت شتولا .

كشَّرت الصديقات لها عن أسنانهنَّ بلا ابتسام .

«من تعتقدن صنعَ النبيذ ، أول مرة ، قبل ريحاني ، في تاريخ البشرية؟» ، تساءلت زليخا .

«الحمار» ، قالت شتولا .

حدَّقت زليخا إليها :

- لقد اختارتك الحمير للاعتراف بأسرارها .

عادت درخو إلى سؤالها ، الذي تشتَّت في اتجاهاتٍ لامتوقَّعة من ردود شتولا . تساءلت :

- من تعتقدن أنه الأكثر جدارة بالتبشير بالجنة؟ .

«ماذا؟» ، ساءلتها سلام . أبدت الأخرياتُ تساؤلاً من الثقل ذاته .

هزت درخو يديها بالأساور الخرز اعتذاراً عن سوء التوضيح . لمست كتفَ زنتانا :

– بماذا تَعِدينَ أتباعَك لو كنتِ نبيَّةً؟ .

«أنا؟» ، تساءلت زنتانا ، فسابقَتْها شتولا إلى جواب :

– اسأليني أنا . أتعرفين بماذا كنتُ سأعِد أتباعي لو أنني نبيَّة؟ .

«أرجوك شتولا . ستقولين شيئاً لانريد سماعه» ، قالت زليخا ، فرفعت شتولا حاجبيها استغراباً :

– ألا تريدين سماع شيء عن خُصىً تقرع اللحمَ ككُرات ping pong؟ .

«هيِّي ، إذاً ، أخبرينا ياسيدة الألعاب الأولمبية عما كنت ستعِديْن به أتباعك ، في الجنة ، لو كنتِ نبيَّةً» ، قالت زليخا .

«كنتُ سأعِدُهم بأيور كأعمدة الإضاءة» ، قالت شتولا .

«هذا يفرِح النساء» ، قالت زليخا ، فردت شتولا ساخرة :

– بل أعِدُ الجميع بذلك . الرجال أولاً . حورياتي ، في الجنة ، رجال بين أفخاذهم أعمدةُ إضاءة .

«الحورياتُ إناث . لايُدعى الرجلُ حوريةً ، ياشتولا» ، قالت راوت .

«لِمَ لا؟ حورياتي رجال . أنا حرَّة ، في تدبير ما أشاء لو كنتُ نبيَّة . حورياتٌ في الخدمة ، بحسب الطلب ، للرجال ، والنساء» ، قالت شتولا بصوت فيه شماتةٌ بلا تعيين .

«ماذا لو رفض الرجالُ حورياتك ، اللواتي بأيور كأعمدة الإضاءة؟» ، ساءلتها زليخا مبتسمة .

«أنا النبيَّةُ . ماأرتأيه ، في جنتي ، لن يرفضه رجل» ، قالت شتولا . أردفَتْ : «هل اعترضتْ إحداكن على الله ، قائلةً إنها لاتريد لزوجها أن ينكح حورياتٍ بعدد الشَّعر في عانته ، كل يوم؟» .

«كل يوم؟» ، تساءلت سلام .

«كل ثانية» ، ردت شتولا . أضافت : «أهذا كثير على الله؟» .

«توقفْنَ عن هذا» ، قالت تاسو . «الطقس ، اليوم ، لا يسمح بالحديث عن أية جنة» . هزت رأسها استنكاراً : «كيف استدارت السماء ١٨٠ درجة فوق الأرض مغمضةَ العينين؟ إنه انقلاب» ، قالت . «لم يتوقف المطر» .

«لم أرَ مطراً» ، صرَّحت شيراز .

«لم تري مطراً؟» ، تساءلت تاسو بنبرةِ غضب . أدارت وجهها بين وجوه الأُخريات : «أتسمعن هذا؟» .

«المطر كان خفيفاً في منطقة كِرِسْتينا بيري» ، قالت راوت . فوافقت صديقاتها على ماقالته بحركات من رؤوسهن ، وعيونهن .

«حسناً» ، تمتمت تاسو . «لا أظن أن الله خصَّ منطقة رِنكبي ، وحدها ، بغيوم تتبوّل طيناً» .

«لماذا أنت غاضبة ، ياتاسو؟ مطر كثير ، أو قليل . مطرٌ قحبةٌ هنا . مطرٌ وليٌّ طاهر هناك . هذه هي السويد . لا تغضبي . معك تأييد بتغيير اسم شارع بيتك من مليون كردي . لا تغضبي» ، قالت درخو .

«ألم تتبلَّل ثيابُ إحداكن في القدوم إلى منطقة فيلينغبي؟ . لا رذاذ على شعر إحداكن؟ لا بطاطا مقلية؟ لا كاتش أب؟» ، تساءلت تاسو . «الغيوم لا تروَّض في السويد . حريةُ الغيوم كالنيك . غيوم قحبة . تمطرُ حيث تدفع لها بلديةُ منطقة ثمن النيك» .

«حسناً ، تاسو . إهدأيْ . كلنا مبتلاَّتٌ من أردافنا إلى أرداف أمهاتنا . أيرضيك هذا؟» ، قالت درخو في محاولة لِلَجْم استرسال تاسو المتصاعد .

«لا . لستنَّ مبتلاَّت . أنا وحدي مبتلة . لم ينزل مطر في السويد إلاَّ عليَّ» ، قالت تاسو ، فقاطعتْها زليخا :

– هذه معجزة . أظهرت مملكةُ السويد لكِ آيةً . أنتِ امرأة مختارة .
صفَّقت الصديقات لكلام زليخا استحساناً ، إلاَّ شتولا :
– أنا مبتلة أيضاً . أمطرت السماءُ في منطقة فلامِنْغزْبيري . رأيت العقاعيق يغتسلن في الماء الراكد على الساحة ، أمام عمارتنا .
«عقاعيق تغتسل بشامبو Head and Shoulders ، أليس كذلك؟ . ما نكهة الشامبو ، الذي اختارته العقاعيق : البطيخ الأحمر ، أم الليمون؟» ، تساءلت زليخا متخابثةً .
«نكهة أمك» ، ردت شتولا .
«ألن يجفِّف أحدٌ هذا القصديرَ الذائب على قلبيكما ، ياشتولا ، وزليخا؟ . سأتبرع لكل منكما بنصف قلبي . سأموت سعيدة إذا رأيتكما تتعانقان» ، قالت شيراز ذاتُ الثديين العارمين ، والقوام الرشيق برعاية الرياضة .
«رأيت ابنك مَدَدْ خارجاً من عمارتنا ، قبل يومين ، ياراوت» ، قالت تاسو لصديقتها النحيفة ، ذات البشرة الناصعة البياض ، المتماوجة الشعر ذهباً بالصباغ الذهب .
«إبني؟» ، تساءلت راوت . نفخت من منخريها دخانَ التبغ خطَّين مستقيمين .
«رأيته من بعيد . لوَّحت له فلوَّح لي» ، قالت تاسو .
«أكان يزور أحد أولادك؟» ، ساءلتها راوت ، فردت تاسو :
– لم يكن أحد من أولادي في البيت ، تلك الظهيرة . كما أنني واثقة أن لاصلة صداقة لأحد من أولادي بابنك مَدَدْ .
«أعليَّ أن أخمن ماذا كان يفعل في عمارتكم؟ أكان يزورك؟» ، قالت راوت ممازِحةً ، فردت تاسو :

- أعطيه رقمَ هاتفي لأكون في انتظاره المرة القادمة .

ضربت راوت براحة يدها على فخذ تاسو الممتلئة استنكاراً . شقّت بلسانها طريقاً مفاجئاً في محاوَرة مفاجئة :

- سأهرب من منطقة كرستينا بيري ؛ من ستوكهولم . سأهرب من أولادي ؛ من زوجي السابق ابن الكلبة جَنَابْ خَلُّو ، الذي يزورني بلا مناسبة ؛ بلا إنذار مُسْبق ؛ بلا موعد . أولادي : مدد ، رِيْبَانة ، رُوْهْلات ، يشبهونه ، إلاَّ ابنتي البِكْر عاليا ، المتزوجة من ابن خالتها . لم أعد أطيق ذلك الشبه بينهم وبينه . أنوف أولادي الثلاثة ، مدد ، روهلات ، ريبانة تُغيظني في الصباح . أبدأ صباحي معتكِرةً إذْ أرى أنوفهم .

ضغطت تاسو براحة يدها على معصم راوت :

- ياامرأة ، أنت تتحدثين عن أولادك .

«نعم» ، ردت راوت . «عن أولادي ، الذين هم أولاد زوجي» .

«ماالذي يزعجك فيهم غير أن يكونوا أولاد زوجك ، الذي انجبهم منك ، بمحض إرادة فخذيك اللتين رفعتِهما عالياً في السرير؟» ، ساءلتها تاسو .

«أنوفهم . طريقة حديثهم بالكردية . كل أولادكم يتحدثون بالسويدية في البيت ، إلاَّ أولادي . يتحدثون بالكردية مُسْتَنْسَخة عن صوت أبيهم» ، قالت راوت بنَفَس مُرٍّ .

«عمَّ تتحدث راوت؟» ، تساءلت درخو ملتفتةً بعنقها إليهما .

«ستهاجر» ، قالت تاسو .

طقطقت الكلمةُ الصفيحُ بين أسماع الصديقات ، المنصرفات كلٍّ اثنتين أو ثلاث إلى محاورة منفصلة ، فتوقَّفن عن الثرثرة : «ماذا؟» ، تساءلت زليخا الحمراءُ الشعر .

«ستهاجر راوت» ، قالت تاسو ، فقاطعتها راوت :

- سأهرب . قلت سأهرب ، لا سأهاجر . سأحرق ورائي أنوفاً ، وأصواتاً ، قبل أن أهرب .

بعض اللواتي ابتسمن ، أول الأمر ، تقلَّصت ابتساماتهن من النبرة الحادة ، اللاذعة ، المحترقة ، في صوت راوت .

«ممن ستهرب؟» ، ساءلت نازلي صديقتها سلام .

«ستهرب من أولادها» ، قالت تاسو .

صمتت الصاحباتُ كلهن . طقطقت علبة الجعة الصفيح في راحة شتولا ، التي تمتمت :

- ستهرب إلى أين؟ .

«إلى نهاية الشمال السويدي» ، قالت راوت ، فعقَّبت شتولا ، في مَرَح ، على كلامها :

- ستشتغلين مترجمةً عند شعب ال Sami . ستترجمين لهم الريحَ .

انفرجت أسارير الوجوه قليلاً بعد انقباضها من نبرة لسان راوت الآسية . أطلقت درخو دعابةً :

- بل ستعمل راعية لقطعان الرنَّة . حيوانات ينقصها الترويض باللغة الكردية .

«سنهرب ، جميعاً ، معك» ، قالت شتولا . سنكون طلائع الشعب الكردي . سننفخ ثديي تاريخه المنكمش بكُراتٍ ضخمة من السليكون . سيغدو تاريخه كثديي نجمة خلاعة .

«أتشاهدين أفلاماً إباحية؟» ، ساءلتها زليخا .

«كل يوم» ، ردت شتولا .

«ماذا تفعلين إذْ تشاهدينها؟» ، ساءلتها زليخا بصوتٍ فاتر ، فردت شتولا :

- أفكر بخصيتيك .

«ياالله» ، صرخت شيراز . «ألا تنطق إحداكنَّ بجملة من فمها ليس فيها قضيبٌ ، أو خصية؟ فكِّرْنَ باولادكن قبل التلفُّظ بقذارة كهذه ؛ فكرنَ بآبائكن ؛ بأمهاتكنَّ ؛ بإخوتكن ؛ بأخواتكن ؛ بموتكن . ماهذا؟» .

«شيراز على حق» ، قالت نازلي ، السمراء الشاحبة قليلاً . «فلْنتعفَّفْ عن هذه السَّفاهات ليلةً واحدة» .

«ها غسلتُ فمي» ، قالت شيراز ، وهي ترتشف قهوةً .

«كيف سنقنعُك أن تشربي كحولاً ، ياشيراز؟ . لاتدخنين . لاتشربين نبيذاً ، أو جعة . القهوة لاتغسل الفم» ، قالت درخو . «لكن . لابأس . اغسلن أفواهكنَّ ، أيتها الإرهابيات ، ببعض الجعة ، أو النبيذ . سنتعفَّفْ ، هذه الليلة ، عن كلماتنا الفاجرة ، الفاسقة» .

«هذا مساء طاهر في تاريخ الكرد» ، قالت تاسو .

ترددت كلماتٌ متداخلة : «هل الوقت مساء ، أم دخلْنَا الليلَ؟» . اختلطت الألفاظ بانفصال المتحادِثات بعضهنَّ عن بعضٍ ، كلٌّ اثنتين إلى شأنٍ .

«أجد نقوداً كثيرةً في جيب ابني نوح ، ياتاسو» ، قالت نازلي .

«الأولاد ، في هذه الأعمار ، يقرِضون أصدقاءَهم نقوداً ، ويقترضون منهم» ، قالت شيراز

«أراه يملك نقوداً حتى حين يستدين منه أصحابه» ، قالت نازلي .

«أتفتشين جيوبه؟» ، ساءلتها شيراز ببعض التوبيخ .

«أحياناً . ألا تفتشين ، أنت أيضاً ، جيوبَ أولادك» ، قالت نازلي .

«الشَّابان مع أبيهما . إبنتي زَابُو لاجيوب لها» ، قالت شيراز .

«ستجدين واقياً من الحَبَل في حقيبتها ، عاجلاً أم آجلاً» ، قالت نازلي .

«إنهـا في الرابعـة عـشـرة» ، هتـفت شـيـراز مـسـتنكرةً . صـفـعت ، بظاهريدها ، كتف نازلي ، بلا قسوة .

نهضت ريحاني وهي تخشخش بالسلسلة الذهب متدليةً من عنقها على صدرها . نزعت الشالَ الرقيق ، الأصفر ، عن كتفيها . وضعته على مسند الأريكة الجلد ، ثم مشت إلى الردهة الطويلة ، بقوامها البدين ، القوي . انعطفت إلى جهةِ غرف النوم . وصلت إلى الغرفة الأكثر صخباً ، المفتوحة الباب . ألقت نظرة متفحِّصة على أولاد نازلي الثلاثة : توفو ، تامو ، بانونا ، وهم يتناوبون على جهازَيْ تحكُّم بلعبة فيديو : نوافير من الدم تنبثق من الرؤوس تحت طلقات البنادق ، وتتهشم السيارات المتصادمة بإتقانٍ محسوبٍ محسوم . هزت لهم رأسها استحساناً في غير محله . استدارت صوب غرفة نومٍ أخرى ، هادئة . وقفت على عتبتها مستأذنةً : «أتسمح لي أن أدخل ، يانوح؟» .

رفع الشاب رأسه عن جهاز الكومبيوتر المستقر على فخذيه ، في جلسته على طرف السرير . فوجىء ، قليلاً ، بزيارة ريحاني . أنزل بصرَه إلى يدها اليسرى ، القابضة بإصبعيها السبابة والوسطى على لفافة تبغ مشتعلة . انتبهَتْ . «ياحماقتي» ، قالت معتذرة . أطفأت اللفافة ـ بثلاث لمسات سريعة ، متعاقبة ـ على لسانها الذي مدَّته خارج فمها كصحن صغير . رفع نوح حاجبيه إعجاباً : «تفضَّلي» ، قال مشيراً بيده إلى كرسي يتحرك على مركزه . جلست ريحاني . جرَّت الكرسيَّ ، ذا العجلات الثلاث ، صوب نوح ، بجسمها . مدَّت يدها بشيء إليه : «هات يدك» ، قالت بحركة سريعة ، هامسة . فتح نوح يده . دسَّت ريحاني لفافة من الأوراقِ النقد فيها : «عيد ميلادك يوم الثلاثاء القادم . هذه هديتي» ، قالت . نظرت وراءها ، إلى الباب ، في حذر : «لا تخبرْ أمك» .

ابتسم نوح بعينين فيهما شكرٌ صامت . ظلت ريحاني قابضة براحة يدها على يده :

- لماذا لاتزورنا؟ .

هز نوح رأسه كأنما لايجد تبريراً لزيارتها ، ولعدم زيارتها ، في بيت تسكنه ريحاني مع ابنتها رُوْنوش ، ذات الخمسة عشر عاماً . ابنتها الأخرى أُوْنو ، ذات السبعة عشر عاماً كانت تستهويه ، لكنها تسكن ، الآن ، مع صديق سويدي يكبرها بتسع سنين .

نهضت ريحاني عن الكرسي ذي العجلات : «أين هاتفك المحمول؟» ، ساءلته ، فتلفَّت الشاب من حوله قليلاً . عثر عليه فوق المخدة . «هذا هو» .

«سجِّلْ رقم هاتفي . كلمني . لاتخبرْ أمك» .

أملَتْ ريحاني على نوح رقم هاتفها المحمول . خرجت مرتبكةَ العينين ، فواكبها نوح بعينين تتقرَّيان ظمأً بشرياً . فتح يده عن اللفافة النقد المضغوطة جيداً : ٣٠٠٠ آلاف كرون . غمغم بصوت ذائب في باطن حنجرته .

التقت ريحاني صديقتَها نازلي في الردهة . «أين اختفيت؟» ، ساءلتها نازلي ، فردت ريحاني ، ذات الشفة السفلى الممتلئة :

- غزوتُ أولادك .

«لن أرضى إن لم تكوني قد بشَّرْتِهم بالإسلام» ، قالت نازلي متصنِّعةً صرامةً في عينيها ، فردت ريحاني :

- تقريباً . سيكتمل إيمانهم في زيارة ثانية .

بلغت ريحاني الصالة . جلست ، في ثقل ، فوق الأريكة الجلد ، بإحساسٍ كصعود نملٍ على جبينها . أشعلت لفافة تبغ استنشقتْها بنهمٍ ، وهي تقبضُ بيدها اليسرى على السلسلة الذهب متدليةً فوق ثدييها .

«ذَهَب» ، همست سلام .
«ذَهَبٌ . نعم» ، ردت ريحاني بإحساسٍ منفصل عن كلماتها .
«أين كنتِ ياريحاني؟» ، ساءلتها شيراز من الكرسي المقابل لمجلس ريحاني على الأريكة . حدَّقت إليها ريحاني متفحِّصةً :
- لماذا تسألينني؟ هل غبت طويلاً؟ كيف لاحظت غيابي؟ ألا يحق لي مغادرة الصالة؟ هل فكرت ، مثلاً ، أنني ذهبت إلى المرحاض؟ .
ارتبكت شيراز . ابتسمت معتذرةً ، فبادرتْها ريحاني بشعرها الأسود ، المصبوغ مُرْسَلاً على كتفيها :
- هل لاحظت مغادرةَ أيَّةٍ من صاحباتنا للصالة؟ كيف لاحظت غيابي؟ .
بدا في عيني شيراز أنها أثارت التباساً بدافعٍ غير مفهوم . حاولت ترميمَ البرهةِ المختلَّة ببعض المزاح :
- ربما هو الشوق إليكِ إن غبتِ ثانيةً واحدة .
ابتسمت لها ريحاني بلا اقتناع . هزَّت رأسها في أسفٍ على حال شيراز :
- عليك بشُرْبِ بعض النبيذ ، الذي أصنعه .
تنفست شيراز ، بعمق ، امتناناً لوصول البرهة المختلَّة إلى نهايتها الثابتة .
تحركت النساء ، في الصالة ، ذاهبات ، آيباتٍ ببعض كؤوس النبيذ ، أو بعلب الجعة الصفيح . تغيرت أماكن جلوسهن . استندت سلام بكتفها إلى الحائط : «ثدياي لن يتوقفا عن هبوطهما إلى أسفل» ، قالت بصوتها المرتفع . سندتهما براحة يدها اليسرى من أصلهما ، ورفعتهما عالياً :
«يالِشهقة عمري . انظرنَ إلى أثدائكنَّ تعرفن أين وصل الخراب» .

«انظري إلى ثديي شيراز ، إذاً . هي في السابعة عشرة ، وليست في التاسعة والثلاثين» ، قالت درخو . أردفتْ : «قبل ثلاثة أيام ، أو أربعة ، استُدعيْتُ للترجمة بين المحقق في دائرة الهجرة ، وبين ثلاث سيدات سودانيات . أعترفُ أنني لفَّقت معاني كثير من الكلمات لم أفهمها . والكلمات ، التي فهمتها ، اضطررْتُهنَّ إلى تكرارها مرتين ، أو أكثر . ما من رجل معهن . كيف وصلن السويد؟» . توقفت برهةً عن الكلام كأنما تذكَّرت سبباً لسرد حكايتها : «كانت أثداؤهن مكوَّرةً تحت قمصانٍ مخملٍ قرمزيةٍ كالبرتقال . كُنَّ متعباتٍ جداً ، لكنْ تحت قمصانهن برتقالات مرتاحةً جداً» . صوَّرتِ الأمرَ بيدينٍ مكوَّرتين أمام صدرها إعجاباً . «كيف تكون أعضاءُ الإنسان ، في الجسد الواحد ، متفاوتةَ الأحوال هكذا؟ . عضوٌ متعبٌ ، عضوٌ مرتاح . عضوٌ طائشٌ ، عضوٌ متَّزن . الجسدُ حيرةٌ» .

«ماأحجام ثُديِّهنَّ؟» ، ساءلتها سلام ، فردت درخو :

- أحجام برتقال .

«أيُّ نوع من البرتقال؟» ، ساءلتها سلام .

تأمَّلتْها درخو متفكِّرة في أمر غابَ عن سردها :

- سألتني إحداهن إنْ كانت المطاعم ، في السويد ، مقسومة إلى أجنحة ، تُقدَّم في أَحدها الأطعمةُ مع الكحول ، وفي الجناح الآخر تُقدَّم الأطعمة بلا كحول إلى جوارها . سألتني واحدة أخرى إنْ كانت المدارس تخصِّص شيئاً من الوقت لتدريس الدين الإسلامي . استوقفني المحامي ، الجالس إلى جواري ، مستفسراً عن الحديث ، الذي لاينبغي أن يستمر هكذا ، بلا تصريح عنه ترجمةً ، فترجمتُ له ماسألتاني . نظر المحامي إلى المحقق نظرة مرتبكةً .

توقفت درخو عن الاسترسال . رفعتْ قدحَ النبيذ إلى فمها ذي الشفة

العليا المتقلصة عن أسنانها القصيرة .

نظرة مرتبكة؟ ماذا تعنين؟ ، ساءلتها سلام ، فردت درخو متصنِّعةً فهمَ الإشارة في نظرة المحامي : «ربما بدأ يتخيل السويد بمطاعم مقسمة إلى أجنحة يُسمح في بعضها بتقديم الكحول ، ويُمنع في بعضها تقديم الكحول . وبدأ يتخيل مدارسَ في السويد تخصص ساعة ، أسبوعياً ، لتدريس الدين الإسلامي» . ضحكت : «ربما تخيل ابنتَه ترتدي حجاباً» .

«أتظنيْنَ أن أمراً كهذا قد يحدث في السويد؟» ، ساءلتها نازلي بنبرة يختلط الهزل فيها بالجد ، فردت درخو :

– حصل الأمر . المطاعم كلها في السويد مقسَّمةٌ أجنحةً : كحول مع الطعام . لا كحول مع الطعام . نساء في جهة ، ورجال في جهة ؛ بينهم ستائر . عائلات محجَّبة في جهة . عائلات سافرة في جهة . عائلات تشتم بطريقة أهل الغرب ، وعائلات تشتم وفق الشريعة الإسلامية . قوائم طعام تتصدَّرها البسملة ، وقوائم طعام تتصدرها الشوكة والسكين . أجنحة يخدمُ الزُّبنَ فيها رجال بلحى كبيرة ، وأجنحة يخدمُ الزُّبنَ فيها رجال حليقو الوجوه . أجنحة تتولى الخدمة فيها نساء محجبات ، وأجنحة تتولى الخدمة فيها نساء سافرات ، ببناطيل ضيقة ، وتنانير قصيرة تقهقه منها جلودُهن العارية لشهوات الوجود .

«ماذا قلت؟» ، ساءلتها تاسو .

ابتسمت درخو . لم تجب عن سؤال تاسو . استرسلتْ :

– المدارس لن تعود مختلِطةً : الفتيات المحجبات في غرَف ، والسافرات في غرف أخرى . الشبان الملتحون في غرف ، والحليقون في غرف أخرى . يحق للمتدين أن يغادر غرفة التدريس ، في مواعيد الصلاة ، إلى مسجد من الخشب السويدي تتوكل شركة IKEA بتركيبه ، خشبة خشبة ، في

ساحات المدارس ، مراعاة لحقوق الأم القادمة إلى أرض الصلاة الجديدة .

«عن أي بلد تتحدثين؟» ، ساءلتها سلام .

«عن أوروبا الصومالية» ، ردت راوت .

تدخلت تاسو : «توقفي ، قليلاً ، يادرخو . حيَّرتِني بمزاحك» ، قالت . «أتظنين أن مثل هذا قد يحدث ، ذات يوم ، في السويد؟» ، تساءلت بنبرة قَلِقة .

«السويد . السويد . السويد .» ، تمتمت درخو . مزجتِ التمتمة بالعبث : «أتعرفين ماهي السويد؟» . فتحت عينيها الشهلاوين تنتظر جواباً . «اسمعي . أحلمُ برجل أُقبِّله تحت مطر شديد . من أيِّ عضوٍ قبَّلْتُه شربتُ مع القُبلة ماءً . هذه هي السويد» .

أَلْوَتْ تاسو بعنقها استسلاماً لِمَا لم تفهمه .

انفجرتْ شتولا ببكاء مفاجىء .

ارتبك الكونُ المفرط في انتظامه بأحاديثَ مقشَّرة كالسمسم على ألسنة الأرواح . ارتبكت الصديقات من مداهمة الأسى الفاره لأُنسهنَّ المتواضع في حدوده .

«مابكِ ، ياعصفورة قلبي؟» ، تساءلت درخو ، وهي تحتضن رأسَ شتولا . التفتت إلى نازلي : «لاتتركيها تغادر . أبقيها هنا هذه الليلة» ، قالت بصوتٍ آمر . هزت نازلي رأسَها موافقةً .

«إنها التاسعة . لم تشرب شتولا كثيراً» ، قالت راوت لريحاني هَمْساً ، فردت ريحاني :

- روحها الشابة في مأزق .

«مأزق؟!» ، تمتمت راوت متسائلة بعينين نصف مغمضتين فضولاً .

«كل روحٍ شابَّةٍ في مأزق» ، ردت ريحاني .

«لم أحسَّ بذلك وأنا شابَّة» ، قالت راوت . «كانت روحي روحاً . الآن روحي جسدٌ مترهِّل» .

«أنقذتكِ روحُك الشَّابة من شبابكِ . أنت كهلةٌ الآن ، ولستِ في مأزق» ، قالت راوت .

شهقت شتولا ، المدفونة الوجه في خاصرة درخو .

تبادلت الصديقات نظراتِ عَجْزِهنَّ عن فهم الأمر ، لكنهن اتخذن موقفاً ، بعطف قلوبهن ، إلى جانب الأسى في نَوْح شتولا ، المُفعم بانكسارٍ ذي ارتدادات من أعماق وجودها .

«دعيني أتأمَّلك» ، قالت تاسو ، وهي تسحب شتولا من حضن درخو صوبَها . طوَّقت وجهها براحتيها . مسحت ، من ثم ، بطرف قميصها ، وقد سحبتْه من نطاق بنطالها ، عيني شتولا الدامعتين : «مابكِ ، يامرأة أعمارنا المكسورة ، ياصبيَّة قلبي؟» . قبَّلتْها من جبينها : «أتريدين رجلاً؟ سأسحب كل رجل من الشارع بأظافري . أتريدين جيشاً من الرجال؟ سأجمعهم لكِ بجرَّافة الثلج . عُمرك قلمٌ» ، قالت شتولا .

«قلم؟!!» ، ساءلتها زليخا همساً .

«قلمٌ» ، قالت تاسو بصوت عالٍ . «عمرُ شتولا قلمٌ يستطيع أن يرسمنا شابَّات من جديد» .

رنَّ هاتف شتولا ، في جيب بنطالها الأسود ، الواسع قليلاً عند الردفين . رنَّ ثانيةً ، فثالثةً .

«قد يكون اللهُ» ، قالت تاسو في ظُرْف تتوسَّلُ تهدئةَ خاطر شتولا المجروحِ جُرْحاً ذرفتْه من عينيها . «ردِّيْ يانَبيَّةً» .

شهقت شتولا بقوة ، كأنما تخلط حصىً أملسَ في رئتيها . أخرجت هاتفها المحمول من جيبها فأسكتَتْه ، وأعادته إلى جيبها . جلست على

الأريكة متقوِّسةً تنظر أسفل إلى قدميها في الجوربين الأزرقين الداكنين .

«فاتتك كلماتُ الوحي ، ياشتولا» ، قالت درخو .

«بل هي روح حمار تنتحل صوتَ وحي في هاتف شتولا» ، قالت سلام ، وهي تحكُّ ، بنعومة ، فروةَ رأس شتولا . «كلمات لها آذان طويلة» .

«ماذا لو كانت روحُ دجاجة تنتحل صوتَ وحيٍ في هاتف شتولا؟» ، تساءلت ريحاني ، فردت سلام :

- كنا سنحظى بكلمات تبيض ، كل يوم ، بَيْضاً نصنع منه العُجَّة .

تأملت تاسو وجه شتولا الفتيَّ بحنانٍ :

- ماذا يبكيك ، أيتها الإرهابية؟ .

رفعت شتولا عينيها الواسعتين إلى عيني تاسو . ابتسمت ابتسامةً متعثِّرةً على شفتيها . قدمت لها درخو قدحاً من النبيذ ، ولفافةَ تبغٍ مشتعلة . قالت :

- عودي نَبيَّةً . بشِّرْينا ، نحن التابعات ، بالذي تهيِّئينه لنا في جنَّة دِينْك ، ياشتولا . تكلَّمي .

ارتشفت شتولا من النبيذ في القدح ، وتنشَّقتْ دخاناً من فم لفافة التبغ بأمومة رئتيها : «سأعِدُكن بـ . .» . حجبتِ الكلمةَ . «لقد توافقْنا أن نحفظ هذه الليلةَ عفيفةً ، عذراء ، بلا قُبَلٍ ، أو نزْعِ سراويل داخلية» ، قالت متصنِّعةً التقيُّدَ بإرشادات الأخلاق الفائضةِ رغوةً كعلبة الجعة بعد خضٍّ .

«نعم . نعم .» ، قالت درخو . أردفتْ : «لن نجاوز أبعدَ من هنا» . وضعت يدها على فرجها . «وأبعدَ من أير تاسو . كل شيء تحت الرقابة» .

«إذن ، سأتحدث عن جنَّتي بما هو مضبوط تحت الرقابة ، ولن أجاوز ذلك إلى المساس بحيائكن» ، قالت شتولا . تلفتت من حولها تتقرَّى سطحَ الطاولة : «ينبغي إطفاء كل جرعة من نبيذ ريحاني بجرعة من الجعة» ،

قالت . التقطت علبةَ جعة . «جنَّتي» . ردَّدت الكلمة مرتين . «جنَّتي أيور تمشي على عجلاتٍ هي الخُصى . الخصى تدور كعجلات الدراجات النارية : ٤٠٠ كلم في الدقيقة . طُرُق جنَّتي مزدحمة بخُصى هائجة في القيادة كسائقي الشاحنات» .

قاطعتْها راوت :

- هل من أحدٍ ينظِّم السير على طُرق جنَّتك ، ياشتولا؟ .

ردت درخو :

- زعماءُ من المجاهدين في وادي سُوَاتْ ، بباكستان .

«اربطي بهذه الخصى أحزمةً ناسفة ، ياشتولا» ، قالت زليخا .

«ياإرهابية» ، صاحت شيراز .

«لابأس» ، قالت شتولا موافقةً : «سأربط بكل أير عبوة ناسفة . كلما انفجر واحدٌ منها خلق الله من خلاياه حقولاً بملايين الكيلومترات تنمو فيها خصى أشدُّ هياجاً ، ولها زئيرٌ يذوِّبُ كلَّ فرْجٍ شوقاً كالآيس كريم تحت اللسان» .

«ياإرهابيات» ، تمتمت تاسو . أضافت : «جنَّةٌ إرهابيَّة» .

«خصىً إرهابيةٌ» ، قالت شيراز .

«نَيْكٌ إرهابيٌّ» ، قالت ريحاني .

ضربت زنتانا براحة يدها على المنضدة أمام الأريكة الجلد :

- والله ، إنْ أراد أحدٌ أن يجنِّدني لنيكَةٍ إرهابية فأنا جاهزة بعقلي ، وأخلاقي . سألبِّي النداءَ بضمير مرتاح كثلج السويد .

«بدأتْ أعضائي ترشحُ ماءً . أأنت تتكلمين ، ياشتولا ، أم يتكلم بظرُك - لسانُ البلبل؟ ،» ، تساءلت زليخا ، فردت شتولا متمالكةً صوتَها السريع :

- بالاثنين . كل امرأة تبلغ الرعشةَ نِكاحاً يهذي فيها لسانُها وبظرُها .
«ياالله ، أعطني حزاماً ناسفاً موصولاً بألف صاعق . كلُّ صاعقٍ قضيبٌ . فلأُعْجَنْ مع الخُصى عَجْناً كتخصيب اليورانيوم الإيراني» ، قالت تاسو .
«هذا درس في الفيزياء» ، علَّقتْ نازلي .
«بل هو درسٌ في علم جمال الفيزياء الإرهابية» ، ردت درخو .
دخل تامو إلى الصالة على نحوٍ كالمتسلِّل . نادى أُمه همساً : «ماما» .
«لماذا تهمس؟ كلنا نسمعك» ، قالت زليخا .
ابتسم تامو الحزين الوجه ، ابن الخامسة عشرة . حدَّقت إليه أُمه نازلي : «هل أنت جائع ، ياحبيبي؟» .
«لا» ، ردَّ الشاب الصغير . وضع يده اليمنى في جيب بنطاله الأسود ، القطنيِّ الواسع : «هل تسلَّمتِ ، على بريدك الألكتروني ، رسالة من مدرسة ابنك بانونا؟» .
ضيَّقت نازلي ، المقضومة الأظافر ، بين أجفانها تطوِّق سؤالَ ابنها بانتباه : «لا» ، ردت . «لم أتلقَّ رسالة . ماالأمر؟» .
«كان يحمل سكِّيناً» ، قال تامو ، النابتُ السالف توّاً .
«سكِّين ، أم ساطور؟» ، تساءلت تاسو ، فرد الشاب الصغير في غفلة من مزاحها :
- سكين .
«مانوع السكِّين؟» ، تساءلت راوت . تدخَّلت نازلي بصوت قَلِقٍ قليلاً :
- من أخبرك ، ياتامو؟ .
«أخبرني بانُونا» ، ردَّ تامو .

«هل قتلَ أحداً؟» ، تساءلت تاسو .
«لا» ، ردَّ تامو بعفوية .
«ابناي هسْ ، ورَنْدْ ، يذهبان إلى المدرسة بساطوريْنِ . ابناي الآخران ، كمال وبدران ، كانا يحملان مسدَّسيْن» ، قالت تاسو ، فوبَّختْها درخو :
- كفى مزاحاً . المدرسة ليست مكاناً لحمل سلاح .
صرفت نازلي ابنَها تامو بإشارة من يدها : «فلْيرسِلوا إليَّ شكوى . سأنتظر» ، قالت .
بدت الخيبةُ على وجه تامو . ازداد حزناً . تراجعَ عائداً إلى الردهة ممتعِضاً من ردَّةِ فعلِ أمه الباردة .
«أتعرفن كم شخصاً قتل ابني بانونا حتى اليوم؟» ، تساءلت نازلي .
رمقتها الأعيُن بلا مبالاة على جملتها الفارغة .
«قتلَ حوالى ستة آلاف» ، قالت نازلي مسترسلة . «إنه يحصي القتلى بأرقام مدوَّنة على لوح في غرفته» .
تبادلت النساء محادثاتٍ جانبية . انصرفت أسماعهن عن نازلي ، التي بدأت شرحاً للمجزرة بين يدي صديقتها سلام ، المصغية الوحيدة إليها : «عنده اسطوانات ألعاب على الكومبيوتر . ألعابُ قتل . كل أسبوعين يستنفد لعبةً لأنه أجهزَ على كل من فيها برشّاشه وبازوكّته . بات يتذمر أن الألعاب لا تقدِّم احتمالات أكثر في برمجة القتل . ألعابٌ مكلِفة . لولا ذلك لزاد إحصاؤه لأرقام القتلى . لا أستطيع شراء أكثر من لعبة شهرياً ، يتبادلها مع أصدقاء له» . نادت ابنها بصوتٍ عالٍ : «بانوناااا» .
جاء الصبي البدين . تهيَّأت النساء لمشاجرة محتَملَة من نازلي مع ابنها .

«كم قتيلاً أحصيتَ حتى الآن؟» ، ساءلته ، فردَّ ابن الثالثة عشرة :
- ٤٣٨ شخصاً .

بدا استياءٌ على وجه نازلي شبيهٌ بخيبة : «أخبرتُ الإرهابيات ، هؤلاء ، أنك قتلت ستة آلاف ، حتى اليوم» .

«احتمالات القتل محدودة في ألعاب الكومبيوتر . خمسون . ستون . لا أكثر» ، رد بانونا .

«يغشونكم بهذه الألعاب» ، قالت نازلي معقِّبةً . صرفت ابنَها بإشارة من يدها ، فانصرف الصبيُّ .

أَحْكمَ دخانُ التبغ طوقَه على عنق الهواء من غير خَنْقٍ . منحَ الصالةَ فرصة للمرافعة عن نقاءِ خيالها المتورِّم من كَدَمات الجعةِ ، وكدمات النبيذ ، وعضٍّ المحادثات القوية . تأوَّهت النافذةُ الكبيرة رِقَّةً من ملامسة الليل فشاركت أربعٌ من النساءِ النافذةَ رِقَّتَها من لمس الليل . نهضن شفيفاتٍ كصوتٍ في كلمة الصباح الأولى . راوت ، ريحاني ، درخو ، زليخا سيغادرنَ : زفيرُ القطارات حَنَقاً ، في مواعيدها الأخيرة مع صَرَع الضوء في الأنفاق ، مسَّ شعورَهن المنفلتة من قانون التوازن . تنفَّسْنَ أنفسَهنَّ المُرتَّبةَ درجاتٍ على جانبيٍّ العمود الزئبق في قياس عادلٍ لحروب الأرواح الدافئة والباردةَ في كل اتجاهٍ أرضيٍّ . مقياسُ حرارة لم يعد متداولاً ، لكنَّه خاصٌ بالخفيٍّ في أنفُسهنَّ اللواتي تنفَّسْنها .

نهضت النساءُ الأخريات يبادلن الأربعَ المغادِراتِ قَسَمَ صداقاتهن بأن يغادرن ، هنَّ أيضاً ، في وقت لن يطول .

بقيت شتولا جالسة على الأريكة الجلدِ بعلبة جعة بين شفتيها . مالت بوجها صوب المطبخ مصادفةً ، بشوق أعماقها إلى علبة جعة أخرى : كانت شيراز ، المتراجعة في غفلة من الجَمْع المختلط للمغادِراتِ والمودِّعات ،

تحاول الإمساك بيد نوح القادم إلى المطبخ من جهة الردهة ، فيسحب يَده مبتسماً ، من غير أن ينظر إليها .

ابتسمت شتولا . عضّت على حافة العلبة الصفيح ، الفارغة ، بأسنانها .

نضوجٌ دمويٌّ لابدَّ منه:
شهقةٌ، واستغراق.

تحسَّست نازلي ، بأصابع يدها اليسرى ، خدَّها الأيمن ، مفتوحةَ الفم . ضغطت قليلاً عليه فتأوهت من لثَّتها المتورمة . التقت عيناها بعيني مراهقٍ جالس على بعد أربعة صفوف من مقعدها قرب الباب ، في القطار .

كانت المقطورة فارغة إلاَّ منهما . كانت المقاعد المتقابلةُ فارغةً إلاَّ من الصوت الملجوم للآلات جالساً بثقله عليها . حركت نازلي فكها الأسفل شمالاً ويميناً تقيسُ ضررَ الألم تحت ضرسٍ يخون أضراسها الأخرى . نظرت إلى وجهها منعكساً ، من الداخل ، على زجاج النصف العلوي للباب ، الذي سينفتح ، عما قليل ، بانزلاقةٍ مدروسة ، جانبياً ، في المحطة القادمة . عبثتْ بشعرها البني ، المتماوج ، الطويل ، تصحِّح خروجَ بعض الخُصل على نظام تسريحتها بأصابعها . حدَّقت إلى أصابعها المقضومة الأظافر حتى اللحم . مرَّرتْ لسانها على الأنامل تستميحها المغفرة عن ظلم لايليق بامرأة أن تُلْحقه بالأظافر . «ياأسناني القحبة» ، قالت في فراغٍ من حفرة العقل تتراكم فيها بذورُ اللسان الميتة . رفعت عينيها ، من جديد ، إلى عيني المراهق ، الذي يُرى رأسه ، لا غير ، من أفق الصف الرابع للمقاعد قبالها : شعر أسود ، فاحم السواد ، منتصب خُصلاً إلى أعلى بقدرة المعاجين والدهون على إثباتها منتصبةً . بشرة بيضاء ، قوية البياض ، لا تناسبُ الشعر الفاحم ، الذي رجَّحت نازلي أنه أشقرُ أوقعه

السوادُ في حبائله . لكنها لم تتيقَّن من لون عينيه الناعستين قليلاً ، كأنما أبكرَ ، كمراهق ، في تجرُّع شرابٍ مسكرٍ تبيحه بَرَكةُ مساء السبت ، المتسامحةُ بكحولها الخجولة أو الوقحة .

توقف القطارُ بطيئاً . لم يتردَّد في تقديم اعتذاره الصاخب للرصيف كعادته في تقديم اعتذاره لكل رصيف ، محطة بعد أخرى . لبّى البابُ الآلي الحكمةَ في ذلك فتراجعَ منزلقاً إلى جانب القطار بخنوع .

دخل خمسة شبانٍ مراهقين إلى المقطورة ، مندفعين بعلبٍ كوكاكولا في أيديهم . لم يجلسوا على المقاعد . ظلوا واقفين قرب الباب ، ممسكين بعمودٍ حديدٍ وسط الفسحة الفارغة بين المقاعد المتقابلة على جهتي الباب . ألقوا بأبصارهم ، خطْفاً ، إلى نازلي ، المتجهة ، في مساء السبت ذاك ، إلى بيت صديقتها زنتانا : إنها ليلةَ أُنس جديدة في منطقة باغِرْمُوْسِنْ ، المُفصَّلةِ مظلَّةً لحماية كنوز ستوكهولم ، المكشوفة ، من وهج الشمس .

ضحك الشبان المراهقون من دعابات لم ينطق بها أحد منهم . وحيٌ مّا ألهمهم رمزَ المنطق الناقص في الدعابات فضحكوا من النقصان ، الذي وصلهم كاملاً بلا دعابة . صدمَ بعضهم أكتاف بعض لاهيْنَ . تعانقوا من غير داع ، متبادلين النظرات ، تباعاً ، إلى المراهق ذي الشعر المنتصب بعيداً ستةَ مقاعد عنهم .

تحرك القطار ملسوعَ المعدن من ضربة السوط سدَّدها النفق المروِّضُ إليه كحوذيٍّ يستنفر الجواد . تمايل الشبان المراهقون وقوفاً ، صارميْنَ بوجوههم الصامتة . لايتحدثون . لايتضاحكون أو يتمازحون كحالهم حين دخلوا . باتوا يتأملون ، بتأنٍّ كسولٍ ، وجهَ الشاب المراهق ، الجالس على بعد ستة صفوف من المقاعد عنهم ، ويرجعون بأبصارهم ، الواحدُ إلى وجه صاحبه

الأقرب إليه ، في تأويلٍ أخرسَ للمعاني المعصوبة الأعين .

أخرجت نازلي هاتفها السماوي الزرقة من محفظتها القماش الكبيرة . غمرتِ الأرقامَ بعطف لمسها ، فتذلَّلتْ لها الأرقامُ كهررةٍ . أتاها صوتٌ من جهة الأثير الخفية :

- مَنْ؟ نازلي؟ .
- أنا في الطريق .
- أين؟
- أنا في . .
- لا أسمعك جيداً . أأنتِ . .
- نعم . بالتأكيد . أين تظنين . .
- في النفق . الصوت لا . .
- في نفق فرجكِ . ماذا تظنين؟
- لا أسمعك .

أطفأت نازلي بإبهامها ذُبالة الشُّعلة المختنقة الصوت في الهاتف السماوي الزرقة . أعادت الآلة الصغيرة إلى محفظتها القماش . رفعت عينيها ، في حذر ، إلى وجوه الشبان المراهقين وهم على حالِ أبصارهم في تسديد غموضها إلى الشاب المراهق ، على بعد مقاعد منهم ، يتأملهم بدوره ، ناعساً .

نهض الشاب المراهق ، الناعس قليلاً . سلكَ الممرَّ بين صفوف المقاعد صوب باب القطار ، حيث يقف الشبان الخمسة المراهقون . دار من حول ظهور بعضهم ليمسك بعارضٍ حديدٍ مثبت على الباب ، منتظراً .

تباطأ القطار في استعراضٍ حماسة السرعة فيه . كبحَ رغبةَ أن يكون بلا رغبة في الوصول إلى أيِّما مكان . توقَّفَ . انزلقت دفتا الباب على

أصل قاعدته ، في اتجاهين متعاكسين ، يسلّمان إلى الرصيف قَدَراً ينبغي احتماله . امتزج صوتُ انزلاقة دفتيٍّ الباب بشهيقٍ لاذعٍ . خرج المراهقون الخمسة من الباب مندفعيْنَ كريح .

دار المراهق الناعس على نفسه نصفَ دورة ، واضعاً يديه على معدته . تراجع خطوتين عن الباب كأنما يتردد في الخروج من المقطورة . زفر بقوة زفيراً خالطَهُ نشيجٌ مكتوم ، قبل ان يواجه نازلي بجسده . شهقت نازلي مذعورة : كانت معدة الشاب مشقوقة عَرْضاً تحت سترته السميكة ، المفتوحة عن قميصٍ قطنيٍّ مشقوق شقاً أحمَر من الخاصرة إلى الخاصرة . تهاوى المراهق على فخذيها هامساً : «ساعديني» ، ثم انقلب عن فخذيها على الأرض المعدن للقطار ، مرتعشاً .

يدا الهلع قذفتا نازلي إلى خارج المقطورة ، في البرهة ، التي بدأت دفتا الباب بالانزلاق لتنغلقا . فتحت نازلي ذراعيها على وسعهما فتأرجحت عالياً حقيبتها القماش المتدلية عن كتفها . نقّلتْ وجهها ، بالتناوب ، على مخرَجَيْ رصيف النفق ومدخَلَيْه ، مستنجدةً . قطّع الصوتُ الآليُّ ، المنتظم بإيقاعات المعدن الشاعر ، سياقَ الصرخة من حنجرة نازلي فواصلَ مبتورةَ المعنى . لم تسمع بقايا الصاعدين خارجاً على السلالم الآلية ، من جهتَيٍّ النفق ، نشيدَها الدمويَّ .

وصل قطار معاكس لاتجاه القطار ، الذي استقلّته نازلي في وجهتها إلى ليلة أُنس عند زنتانا . اندفعت المرأةُ ذات السترة الطويلة ، السوداء ، فوق تنورتها السوداء الطويلة ، إلى إحدى مقطوراته . ارتعدت وهي تدور بعينيها على المقاعد ممزّقة النَّفَس : امرأتان عجوزان كانتا تتبادلان حديثاً كسولاً ، ورجل أصلع ، نائم من ثقل سهرةٍ لم تبدأ بعد .

رفعت المرأتان العجوزان عيونهما إلى سترتها المبللة بالدم ، في موضع

الفخذين ، ثم عادتا إلى شأنهما في الحديث الكسول . لم تعرف نازلي ، مأخوذةً بارتباك قلبها ، إن كان عليها الجلوس أم البقاءُ واقفةً ، أم أن تتصل ، عبر هاتفها المحمول ، بالشرطة ، بالله ، أو بإحدى صديقاتها . أعتمَ خيالُها ، وتأجَّجت البلبلةُ كجمرٍ يُرمى بقطرات من ماء .

«ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر» . أيُّ هبوبٍ فاجرٍ رمى ، من أعماقها ، هذهِ الجملةَ إلى سمع قلبها المتخبط في تدبير نبضٍ ذي منطق؟ . دَنْحُوْ ، السرياني ، القدير في اجتذاب الرفاهة إلى حلواء الشرق ـ البَقْلاوى ، ساوم نازلي على المقادير السكَّرية في جملته : «ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر» . نازلي تقصد دكان البقلاوى في مركز منطقتها فَيْلِنْغبي . وهو يزيد احتفاءَه بها ، كلما قصدتْهُ ، بدافع من اشتراكهما في الترجمة للمحققيْنَ عند دائرة الهجرة . دَنْحوُ لم يعد يعًمل مترجماً . عنده دكان بيع الحلواء الشرقية ، إضافةً إلى حُظوة يُحْسَد عليها مُنْذُ أسَّس «بيت التراث السرياني» ، فمحضتْه السويد ثقةَ الوفاء للتاريخ دعماً مالياً منتظمَ الهبوب . ابن خالة زوج نازلي السابق أسَّس ، بدوره ، «مجمعَ الصحافيين الكُرد في المنفى» ، ضمَّ أربعة لا غير ، تدفع له السويد ، بانتظام ، جِزيةَ السِّحر : الكلُّ يجد لروح أُمته متسعاً من أربعة كراريس ، لكنها أربعة كراريس خالدة ، يسندها موقعٌ ألكتروني من عطف الوجود على المفقوديْن .

«نازلي ، أيتها . .» ، يقول دَنْحوْ مَلْكي بتمهيد جافٍّ لميْله إليها كأنثى ، فتقاطعهُ :

– يا عصير التوت . سمِّني عصيرَ توت .

يضحك دنحو البدين ، القصير ، ذو الستين عاماً ، المهاجر من بلدة دِرْباسية شمال سوريا :

– أنتِ ذكية قليلاً ، يانازلي .

«أنا ذكية قليلاً ، ياابن الفجل» ، تردُّ موبِّخة ، فيصحِّح دنحو نقصانَ تودُّدِه :

- ياذكية ، ياناز لي .

«ذكية فقط ، ياابن القُنفذ؟» ، تعارضه نازلي ، فيحاول دنحو التوفيق بين توصيفاته :

- ياذكية كدِيْنِك .

«أهذا إطراء ، أمْ ماذا؟» ، تسأله نازلي ، فيرفع دنحو يديه مستسلماً :

- أنت ذكية . أخبريني : ماذا يملك اللهُ؟ .

«يملك كل شيء» ، ترد نازلي . «في ديني ، كما في دينك ، يملك الله كل شيء . أمْ لديك عقلٌ يفوق هذا الفهم؟» .

«لا .لا ، ياناز لي» يرد دنحو موافقاً أن لاعقل له يفوق هذا الفهم ، مضيفاً : «ماذا تفهمين ، كمسلمة ، من قول المسيح : ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر؟» .

«هل علي أن أفهم شيئاً من هذا؟ . نبيُّنا سيتزوج أمَّ مسيحكَ في الجنة . كل الكتب تقول ذلك . لن تبقى أمُّ المسيح عذراء» ، ترد نازلي .

«أتمزحين؟ ألا تكفي المسلمين حوريات السماء؟» ، يسألها دنحو .

«دينُنا دِيْنٌ فَحلٌ ، يادنحو . عليك أن تقرأ كتباً غير كراريسك المطبوعة بمال السويديين» ، تردُّ نازلي .

«أتودَّدُ إليكِ ، وأنت تهاجمينني . ماالعدل في هذا ياناز لي؟» ، يسألها دنحو .» في دِيْني ، أيضاً ، أن كل شيء هو ملك الله بلا شريك ، فلماذا يقول السيد المسيح : ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر؟ لقد ورَّطنا ، نحن المسيحيين ، في معضلة اقتصادية» .

كيف اجتمع شقاءُ البرهة المعذَّبة ، في خيال نازلي ، على شكل

جملة من دِيْنِ دنحو: إلهٌ يتنازل لقيصر، في المساومة الضرورية لبقائه، عمَّا هو له، ليورِّثَ دنحو معضلةً اقتصادية إلى أبدِ روحِ المسيحي.

أخرجت نازلي من حقيبتها الكيسِ علبة تبغ. استلَّت لفافة من العلبة بيد مرتعشة. بحثت في قاع حقيبتها عن القدَّاحة. نبشت كل محتواها، فخلطت دفتر دليلها إلى أرقام الهواتف بقارورة العطر الصغيرة المِرْشاشة، بمرآة ككفٍّ طفل، بألوان في عُلَب مستطيلة للتبرُّج، بفرشاة حذاء، بأقلام رخيصة، بمناديل من ورق، ببعض الأقراص المنكِّهة للفم، بمكعباتٍ علكة في الأغلفة، بمقص للأظافر تستخدم عوضاً عنه أسنانها، بجورب إضافي احترازاً من برد مَّا، بمشط للشعر، بفرشاة للشعر ذات أسنان كثيفة، بمحفظة تُطوى أربعاً تحوي نقوداً وبطاقات، بفرشاة أسنان منسية، للطوارىء، بحبوبٍ تُسكِّن الصداع، بنظارة للقراءة، بوَاقٍ مطاط من الحَبَل قد يستنجد به قضيبٌ مَّا على عجلٍ. لكن سيبقى في الحقيبة حتى حدوث معجزة.

«معجزة، يادنحو، أن يكون المرءُ كرديًا»، تقول نازلي لدنحو، فيردُّ معتذراً عن فهم ذلك:

– أنا سرياني، يانازلي.

«معجزة أن لايكون المرءُ كرديًا»، تقول نازلي، فيتساءل دنحو:

– ما الذِي ليس معجزةً، إذاً؟.

«أن تعرف ذلك»، تقول نازلي.

قلَّبت نازلي محتوى حقيبتها أسفلَ أعلى. خَدَشتْ حياءَ المُقتنيات ببعثرتها. أخرجت يدَها المرتعشة خائبةً من أعماق الحقيبة القماش. تقدَّمت من المرأتين العجوزين: «هل لي بكبريت، أو قدَّاحة، أشعل بها لفافتي؟»، قالت بصوت متلاطم.

فتح الرجل الأصلع ، النائم من ثقل سهرةٍ لم تبدأ بعد ، عينيه على الهياج الخفيض في صوت نازلي .

لن يعرف أحد ؛ أو يصرِّح أحد من العائلة لأي فرْدٍ آخر ، أين أُخفيت الوثائق ، التي دخلت بها نازلي ، وزوجها هارون هَنَانو ، وأمها ، وأمه ، وأبوها ، وأبوه ، وأربعة من إخوة زوجها ، وأخواها ، وشقيقتها كَمِيْلا ، أرضَ مملكة الشمال القريبة من زعنفة ذيل الحوت الأعظم . قدَّموا طلبات لجوء الى السويد ، قبل ثلاث وعشرين سنة ، أوَّل دخولهم مطار آرلندا ـ ترقوة ستوكهولم ، بادِّعاء أنهم أكراد عراقيون ، نسي أبو زوجها حزمةَ جوازات السفر ، الموكل بحملها معه ، على مقعد في الطائرة القادمة من أنقرة . تحرِّيو الشرطة نبشوا مقاعدَ طائرة الرحلة ٣٣٩ كقبورٍ من قماش . لم يتركوا جِرَاباً على ظهر مقعد إلاَّ استخرجوا منه كراريسَ السياحة المتألقة الصور ، وبيانات بيع الخمور والعطور ، والجرائد المهملة ، وبعض الكؤوس البلاستيك ، وعلب التبغ الفارغة ، التي لم يكن الوقتُ قد أكمل ، بَعْدُ ، سياقَ معجزة التبَشير بإلهٍ ضدها ، من غير التمهيد لنبيٍّ بذلك .

لاوثائق سفر . لاجَوازات سفر . عنايةُ الخفيِّ المُنقِّب عن ذهب الهجرات وضعتْ في يد العائلة حجرَ الفلسفة المفقود : كُتِبَتْ تصاريحهم ، واعترافاتهم بملء إرادتهم ، أمام محقِّقيْنِ منفصليْنِ كلٍّ في حجرة ، ومترجميْنِ من الكرمانجية الكردية ، بحروفِ ذهبٍ مصكوكٍ ، بلا ارتياب كثيراً أو قليل . كانت الهجرةُ مفصَّلةً لهم على مقاسٍ طلب اللجوء .

ضمَّت السويد جملةً جديدةً إلى إعراب نشأتها كمكانٍ ذي قواعد في إبرام الهجرات .

كانت تلك سنة زواج نازلي الأولى ـ سنة ١٩٨٥ . وكانت نهايةُ تلك السنة بداية طلاق من زوجها هَرون هَنانو .

مـاالذي أفـضى إلى طلاقـهـمـا؟ ، أهو انصـراف نازلي ، بحـمَّىً ، إلى دروس اللغة السويدية فملأت «مسكن اللاجئين» ، الممنوح لهما ريثما يتمُّ بتُّ طلب الإقامـة ، بإقـامـة لهـا ، وحـدها ، في كلمـات لـغـة يُقسَّم بعضُ ألفـاظهـا من منتـصف اللفظة الواحـدة نُطْقـاً ، على نحـوٍ يبـدو مـتَّـصنِّعـاً للغـريب ، مع استنشـاق بعض الهـواء وسط حروف كلمـاتٍ أخرى متَّصلة الحروف ، أو في نهـاياتها؟ . مهَّدتْ نازلي ، بضـراوة ، لتشريعٍ مُلْكيتها في العـالم الجديد ، حتى اعتقدتْ ، بحصول الجميع على الإقامة بعد سبعة شهور ، أنها أجازت للمكان المفقود ، في أعماقها ، عبورَ المَطْهر اللغويِّ إلى البزوغ ، ثانيةً ، في زقاقِ ماءٍ من أرخبيل ستوكهولم . لكن المكان ، الذي بزغَ ظاهراً ، كان خالياً من متاع زوجها ، وشراعه ، وحقائبه ، وقَدَره . ظهر المكان المفقودُ ، المختلط ، بنِسبٍ متفاوتة من رمل الحسكة وغبارها مع الرِّقة الرطبة لطباع الشجر ، وضوضاء الأسئلة ، عن طقس الغد ، في السويد ، لكن لم يظهـر هرون . رويداً رويداً تلاشى مـاتذكَّرتْه نازلي من زوجٍ لَّما يزل مقيماً معها في «مسكن المهاجريْنَ» ، ذاته .

«سأكمل دراسة اللغة لأنتسب إلى الجامعة» ، قالت له .

«ماذا عنيِّ؟» ، ساءلها .

– ماذا عنكَ؟ .

– ألا تريدين أولاداً؟ .

– أهذا عنكَ أمْ عنيِّ؟ .

– عَنَّا .

– هرون . هرون . سنتذكَّر أولادنا حين يتذكَّروننا .

– هل فقدناهم لنتذكَّرهم ، أَمْ فقدونا ليتذكرونا ، يانازلي؟ ليس عندنا أولاد ، بعد .

- عندنا أولاد مؤجَّلون . وأنا لستُ مستعجلة لأضعهم في موقف كهذا : أن يتذكَّرونا . ليست بي رغبة ، الآن ، في أن يتذكَّرني أحد . أنا حبلى بالسويد ، وسأنتظر لأعرف ماذا سألد : جزيرة ، أمْ بحيرة ، أمْ حديقة عامَّة ، أمْ مَتْجراً مثل vivo .

- السويدُ أنثى مثلك .

- لم أقلْ إنني حبلتُ من خصية السويد ، بل حبلتُ بالسويد . لكن السويد أنثى قادرةٌ أن تُحبِّلَ أنثى أخرى .

هياج كثير عمَّ «مسكن المهاجرين» ، الذي تؤمِّن الدولة شققَهُ لطالبي اللجوء ، ريثما تُحْسم أمور طلباتهم . «ماذا جرى لك؟» ، كان هرون يصرخ مراراً ، حتى باتَ بابُ شقتهما يُزار ، مراراً ، من مهاجرينَ آخرين يطرقونَه باستياءٍ : «أنتم تُقلِقون أولادنا» ، يقول أهلُ أعراق لا ينتمونِ إلى الكرد ، بلغة سويدية مُرْهَقة ، مقطَّعة ، مرتَّبةٍ وفق تعاليم النبر في حناجر الغرباء وقد طهَّرتْها ألسنتهُم الجديدة كالكوشر اليهودي .

حين أنهت نازلي دراستها الثانوية ، في مدينة الحسكة ، لم تلتحق بالجامعة في حلب ، أو دمشق ، بل بالمسلخ الصغير ، الذي يتولى توزيع الجَزُر من الضأن ، والماعز ، والبقر ، على الباعة الجزَّارين ، بعد كشوف على أرواحها الحية يُنْجِزها ، بسرعة المختَبرات المؤكَّدة التحاليل ، أطباء يسهِّلون عبورَ كل حيوان إلى ذبح صحيٍّ . لاعقبات تستثني حيواناً من بلوغ خلوده غذاءً يُورِّثُ خواصَّه سلَفٌ إنسانيٌّ إلى خَلَف إنسانيٍّ . بعض الرِّزم من النقود الورق تُعفي المشككين ، من أهل المختبرات ، في عقيدة اللحم من شكِّهم ، حتى لو بَدَا اللحمُ أخضرَ ، بتصويب المقدمات المنطقية :

اللحم ضرورةٌ .

كل حيوانٍ لحمٌ .

لا للشكِّ ، إذاً .

في الفجر تقصد نازلي المسلخَ بالدراجة النارية ، ذات العجلات الثلاث ، والهيكلِ القُبةِ كسيارة صغيرة ، لتعود إلى ملحمة أبيها بذبحيْنِ من الضأن ، ورأسي بقرتين ، مقطّعين بالمنشار الكهربي من الخطم إلى نهاية العنق ، مكشوفَيْ النخاعين كمستحاثّةٍ في حجرٍ مقسّم ، بأناة الباحث عن زمنٍ عصبيٍّ السيرة ، خياليٍّ ، متحجِّرٍ هلعاً من نعيم اللانهاية .

أخواها نديم ، وصادق ، وأختها كميلا ، كانوا ، بعدُ ، في صفوف الإعدادية ، والثانوية ، فتولت هي الوقوفَ إلى جوار المصطبة الخشب ، العريضة ، حيث يقطِّع أبوها جلال ، الرمادي البشرة ، اللحمَ ، مشرفةً على فرْم الهبرة بالمفرمة الحديد ، ذات الذراع ، أو بالساطور ، إذا أراد الزُّبُنُ اللحم المفرومَ خشناً قليلاً . ولربما فرمت البصلَ النحاسيَّ القشرة ، المهيِّجَ للغيوم في المحاجر ، والبقدونسَ ، اللذيْن تبيعهما هي معروضَيْنِ في صناديق مكشوفة بأصنافها قرب قوائم المصطبة الخشب .

عينا هَرون هنانو الخجولتان ، السوداوان ، بأهدابهما الكثيفة ، فتحتا إلى قلب نازلي ممراً من هبوبٍ رطبٍ في المدينة المقضومة بأسنان الجفاف مجتاحاً ببطءٍ وشَرَه ، من الشرق والجنوب . لا رطوبة في الحسكة منذ احتضرٍ نهر الخابور . احتُضِر نهرُ الخابور - حفيدُ أزمنة الماء الكبرى المحترقة . حفيدٌ لن ينجب ضفافاً . ستُرْدَم ضفافه . سيُخفى أثرُ النهر كبذرة النسل أُخفيتْ ، بعد أربعة أولاد رُزق بهم جلال ، أبو نازلي ، وأمُّها حَجُو ، بلا تفسير . لم ينجبا غيرَهم . لكنهما لم يغتمّا ، مثلهما كضفّتي الخابور ، المتشظيتين ضِفافاً ، لم تغتمّا على النهر المفقود ، الوارث الوحيد لرطوبة عوّضتها عينا هرون ، معلم الفيزياء في ثانوية الحسكة ، اللتان اقتنصتا نازلي ، من وراء الحاجز الفاصل بين مدخل الملحمة ، والقسم الخلفي ،

الذي يتناثر على مصطبتهِ اللحمُ وينهض فيه برّاد عملاق ، قديم . عينان مهدّتا لسيرورةِ وجودٍ متداخل من تاريخَيْ شخصين ، أو أسرتين ، أو جُرحين ، أو متعتين ، أو خيالين ، أو براعتيْن : هرون سيغدو السطرَ المدخلَ إلى سردٍ لحياة نازلي ، وستغدو نازلي سطراً مَدْخلاً إلى سردِ حياة هرون ، حتى لو خُتِمَت السنةُ الأولى لزواجهما بالطلاقِ ـ تلك العلامة الفارقة ، التي لن يمحوها الموت .

تزوج هرون من نازلي . جمعَ خُطاطاتٍ زرقاء للمضائق في مسالك الجبال ، ومسالك المياه ، على الحدود المرئية والخفية لأوروبا . نَجَرَ عجلاتٍ لعربة روحه ثقيلةً وقويةً . شدَّ العربةَ إلى جوادٍ من وهجِ ظهيراتِ الصيفِ الثور في الحسكة الذائبة : «سآخذ نسلي ، الذي لم أنجبه بعد ، إلى مكانٍ غير هذا المكان . سنهاجر» .

هاجرت العائلتان بجوازات سفر مختومة بتأشيرات دخول إلى السويد لحضور عرس . مهاجرون من معارف هرون أقنعوا شاباً تركياً مقبلاً على زواجه ، بتوجيه الدعوات : «سيكون فألاً سيئاً لنا ، ولأبنائنا ، ولأحفادنا ، إذا لم يحضر هؤلاء» ، هذا ما استمالوا به عطفَ نساءٍ في الداخلية السويدية . سلكت العائلتان طريقاً إلى تركيا ، أولاً ، عبر البرِّ ، لتحطَّ بهما طائرةٌ مُقْلعة من أنقرة في مطار ستوكهولم . اختفت وثائقُ سفرهم في مكان مغلق على سرِّه ، بتنفيذ تامٍّ لإرشادات «محترفيْنَ» ، في علوم اللجوء . أقام أفراد العائلتين في «مساكن المهاجرين» . حصلوا على إقاماتهم . فرحوا . لكن الأمر لم يدم طويلاً خليَّ البال ، هانئاً ، موعوداً بتوقعات صغيرة وكبيرة ، بالرغم من مشاغل توطيد الإقامة بمستلزماتِ حياةِ الإقامة : بدأ هرون يختفي من ذاكرة نازلي ، المنشغلة بنَسْج ذاكرةٍ أخرى تستطيع ، حين تكتمل ككائن ذي سُلطة ، أن تسترقَّ الذاكرةَ

القديمة ، المُنحّاةَ ؛ أن تَجلبها طوعاً إلى الخدمة كدَهّان لمسكن الذاكرة الجديدة ، أو كخادمٍ تغسل الثياب في طست بيديها ، أو تطهو للمكان الجديد ، الحيِّ الناطق ، عشاءً قبل أن يشتري حقول القطن السبعة لخيالِ نازلي ، وعمارةَ عقلها ذاتَ الطبقات الأربع .

انفصل هرون عن نازلي بعقد القطيعة الدينية طلاقاً حوالى أربع سنين . تزوَّجا ثانيةً ، في العام ١٩٨٩ ، بعد حروب طويلة للحكمة على جبهتَيِّ العائلتين ، وترميماتٍ لتواريخ ، عن صعود امبراطوريةِ قلبين وانهيارها ، ماكُتِبتْ قط .

استحدثا غراماً مقشَّراً ، لاملح عليه ، من ذاكرتَيْ جسديهما ـ ذاكرتَيِّ الحسكة . شيء مَّا من نكهة النقانق الطويلةَ ، وأسماك البلطيق الصغيرة المقلية ، وكُرات اللحم المثلجة ، والقشدة الرائبة ، والبطاطا الحمراء ، والبصل ـ الموزيِّ المستطيل ، والخسِّ الملفوف ، وأنواع السكاكرِ الهاذية الأشكال ـ الأحابيلِ لا ينجو من طلبها طفلٌ ، والأجبان المائعة تُدهن بها شرائحُ الخبزِ أسمرَ ، أبيضَ ، اسودَ ؛ بشيءٍ مَّا من هذا ، وشيء مَّا من سِحْر نَقْلِ الجهات الأرضية لطبائع خضارها ، ولأديانِ فاكهتها بلا بواعث تبشيرية ، إلى الأسواق المسقوفة ، وإلى المتاجر ، وخيام البيع في الساحات المفتوحة : الكيوي ، والأناناس ، وبلحُ آسيا الحامض ، وعشب الليمون ، والكمثرى البُنِّية ، والبندورة الصفراء ، المتطاولة كبيض الحمام ، والخبز الطويل الرغيف كالذراع ، المحمَّص القشرة ، ورقائق عجين الذُّرة المقلية للإفطار مع حليب يُسْكب فوقها في الطاسات ، وخبز التاكو الرقيق ، ومَرَق التاكو الأحمر ، والخيار الذي ينمو في الصناديق بلا توقف حتى يكاد يبلغ طولَ شخص من جبال الأنديز ؛ شيء من هذا ، ومن ذاك ، ومن الثياب تصل إلى بيت الشاري بطلب على الهاتف ، استحدثت نازلي وهرون غراماً مقشَّراً ، لا ملح

عليه ، بآلةِ حنينها إلى مالم يكوناه في أيِّما حياة .

أنجبا اربعة أولاد في ست سنين ، لم تكمل فيها نازلي مقتضياتِ الدرس للعثور على البرزخ الثاني من لغة السويد ، المفصَّلة ستة برازخ ، ونصف البرزخ . وهذا النصف موقوفٌ على التحكُّم بالشهيق والزفير بين الجُمل .

في الشهر الثالث بعد ولادة بانونا ، بدأ انحلالٌ جديدٌ في خُطاطات اللون ، التي استقرَّ عليها الرَّسمان الهندسيان لغرامهما متطابقين . أُلغيَ عقدُ البناء على أرضٍ لن تتَّسع لظلَّيهما .

طلقت نازلي زوجها . طلَّق هرون زوجَه . حين كبر الأربعة الأولاد قليلاً ، وهُمْ بَعْدُ في عهدة نازلي وحدها ، انتقل تامو وبانونا إلى بيت أبيهما ، لتغدو نهاياتُ الأسابيع ، وحدها ، مَرْكَبةَ انتقال بالأولاد من أبيهم إلى أمهم ، ومن أمهم إلى أبيهم . ولربما تطلَّب هذا التناوبُ الدَّوْريُّ ، الصارم ، في الإعارة والاستعارة ، تنازلاتٍ متبادلة في بعض الأوقات الطارئة ، الخاصة بضروراتٍ طارئة ، فيساومٍ أحدهما الآخر على حقِّه المُؤَجَّل في المعاملة بالمثل : خُذْ لنفسكَ وقتاً من وقت هُوَ لي ، وأعطني ، فيما بعد ، وقتاً من وقتٍ هُوَ لك .

الضغط المنخفض فوق خليج لُوْفسْتا بلغ بارتدادِه منطقةَ فيلينغبي ، عصر اليوم الذي توجهت فيه نازلي إلى سهرة السبت الموعودة في بيت زنتانا . نَفَسٌ من أنفاس الحيتان دفع الغيومَ المتراكبة ، كقُطر المحار ، من الغرب إلى الشرق ، منعكسةً ، من النافذة ، على مرآتها الكبيرة لصق خزانة الثياب في غرفة النوم . تقرَّت نازلي الغيومَ بيدها ، وهي تصغي ، فجاءة ، إلى صوت ابنها نوح متكلِّماً من هاتفه ، في غرفته . أهوَ اسم شيراز ما حمله الهواءُ مفتَّتاً ، أمْ خيالُ الصوت في سمعها؟ . نادت :

- نوح .

رد الشاب الصغير متبرِّماً ، بالكردية والسويدية متداخلتين :

- أنا أتحدث على الهاتف . انتظري ، يا أمي .

انتظرت نازلي برهةً وهي تَعُدُّ ، بَعْدُ ، طبقاتٍ تتقوَّض وأخرى تتراكم في السماءِ - الزُّحافةِ الكبيرة منزلقةً فوق العقل الأرضي لمملكة السويد .

«عمَّ ناديتني ، يا أمي؟» ، تساءل نوح بصوت مرتفع من غرفته .

«هل سمعتُ اسم شيراز؟» ، قالت نازلي .

خرج الشاب الصغير من غرفته مقطِّباً حاجبيه :

- ماذا؟

«لا شيء . لا شيء» ، قالت نازلي باعتذار .

عادت نازلي بثياب ملطخة بالدم ، ذلك المساء المتشقق الحظوظ ، إلى البيت . رنَّ هاتفها المتشنِّج في حقيبتها القماش مرتين ، أو ثلاثاً ، فخالَتِ الرنينَ سخريةً . تبادل خليجُ لوفستا طبْعَ الشهوات الباردة مع شريكه خليج لومبارد ، على الشواطىء القريبة من منطقة هيْسلِبي سْتراند - جارةِ منطقة فيلينغبي حيث عمارة نازلي . ارتجفت نازلي .

في اليوم التالي ستقلِّب نازلي أول صحيفة تقع بين يديها بحثاً عن خبرٍ دموي ، وستجده في زاوية من الصفحة الأولى لصحيفة الإكسبرِسِّن الخفيفة الوزن كأخبارها : «وُجدتِ المراهقةُ كِيْمْ أنديْرْ ، البالغة سبعة عشر عاماً ، مصابة بطعنة سكين ، في قطار الخط الأخضر ، المتجه إلى سكارْبنيكْ» ، وهي المحطة الأخيرة على السكة ، بعد منطقة باغِرْموسِن حيث تقيم زنتانا . وفي الإضافة المكتوبة أنَّ : «حال الفتاة مستقِّرة ، بالرغم من أنها فقدت دماً كثيراً» .

ستشهق نازلي عتباً على عينيها ، اللتين خدعتَا ، لكنها ستعلِّل

نفْسَها : «كانت تشبه فتىً» . لا يهم . في اليوم الثالث ، الذي أعقب حادثَ الطعنة ، ستحمل نازلي ثلاث ورود صُفر متجهةً إلى المستشفى المذكور اسمه في خبر الصحيفة الخفيفة الوزن . ستصعد أدراج المبنى المستطيل ، ذي الطبقات الثلاث ، إلى قسم النُّزلاء الجرحى مضطربةً قليلاً : فهي ، قطعاً ، ستلتقي أحداً من أهل الجريح . وهي ، في الحال تلك ، ستقدِّم اعتذاراً طويلاً عن تأخرها في الإدلاء بشهادة توثِّقُها الشرطة الجنائية ، كشاهدة عما حدث للشاب المطعون . ليكنْ . ستتقدَّم نازلي إلى المنصة نصف الدائرية لقسم الاستعلامات . ستسألُ امرأةً شابة ، شقراء ، عقدتْ شعرَها جدائلَ كثيرةً لا تُحصى : «هل لي أن أعرف أين تقيم جريحةٌ اسمها كِيْم أنديرْ . لقد نُقلتْ إلى هنا منذ يومين» . ستتأكد المرأة الشابة من الاسم على لوح الكومبيوتر : «نُقل الشاب كيم أندير إلى مشفىً في منطقة فرِدْهامسْبلان» . سترفع عينيها إلى عيني نازلي : «أنتِ سألتني عن فتاة» .

ستؤكد نازلي :

– نعم . عن فتاة .

«الجريح ليس فتاة ، بل شابٌ ذَكَر» ، سترد المرأة الشابة . ستضع نازلي الورود الثلاث الصُّفر على المنصة نصف الدائرية لقسم الاستعلامات ، وستتراجع بابتسامة مرتبكة ، معتذرة ، عائدة من حيث أتت .

لم يعد حاسماً ـ ستصارح نازلي نفْسَها ـ وجودُ قضيب أو فرْج ، بعد اليوم ، لتحديد جنس الإنسان . ثمَّت انقلابات ، في الجسد ، تحتكم إلى المصادفة النفسانية . الهندسة ، في المنتصف بين السماء والأرض ، تُنجزُ رهافةَ البناء تخطيطاً . إسمنتٌ ، أو لحمٌ : لا فرق . الفروجُ مداخلُ العمارات ومخارجُها ، والأيورُ حسابٌ متقَنٌ للتجانس بين الفراغ والكتلة . تفاصيلُ

صغيرةٌ ، لافرقَ فيها أن تكون حديداً ، أو عَصَباً ؛ خشباً أو جلداً ؛ دِهانا ، أو مَنيًا كالفَرْنيش . البشري لايحيا جسدَهُ إلاَّ بتوازن في الممكنات ، التي تَقْدِرُ على إعادة تركيب الجسد ، مثل أثاثIKEA المعجزة ، سريراً مرَّةً ، وطاولةً مرةً ، ومقعداً بأدراجٍ مَعَاجمَ ، ترك التاريخ في كل دُرْج رأسَ شاعر ، وعَلَماً نُتِفَ كشَعرِ عانة .

هذا ما سيجري مع نازلي ، في اليوم الثالث على حادثة الطعنة في القطار . لكنها ، وهي عائدة إلى البيت ، ذلك المساء ، الذي طُعن فيه شاب مراهق بسكين رنَّ هاتفها ثلاثا ، فخالتِ الرنينَ مخالبَ تخدش صفيح أعصابها .

وصلت إلى شقَّتها في الطبقة الثانية من العمارة . خذلتْها يدُها في إخراج المفتاح التائه من حقيبتها القماش . لم تضغط على زرِّ الجرس الكهربي . دقَّت البابَ برأسها . ظلت أعماقُ الشقة ساكنةً ، خرساء . نظرت إلى سترتها الطويلة ، الملطخة بالدم ، متذكِّرة ـ على نحوٍ مًّا ـ أن ابنيها نوح ، وتوفو ، قد غادرا ، في الأرجح ، إلى بيت أبيهما في منطقة سُوْدرمَالمْ ، مساء ذلك السبت ، بحسب اتفاقهما العادي ، الأسبوعي .

أعادت نازلي التنقيب في كهوف حقيبتها ، عن مفتاح الباب . عثرت عليه . فتحت الباب . دخلت ، وانهارت جاثية قرب الأريكة الجلدِ الضخمة .

كم من العيون رصدت الدمَ على سترتها الطويلة ، في العودة؟ . لا تتذكر نازلي . ربما لا عينٌ ؛ ربما لا أحد . خلعت سترتها بعد خواءٍ حامضٍ فتَّت الوقتَ . خلعت ثوبها الطويل ، الذي بلغتْه عدوى الدم الحمراء عبر قماش سترتها الطويلة . رنَّ هاتف البيت . توقَّف الرنين بعد المرة الثامنة ، ثم رنَّ بإلحاحٍ أكثر توسُّلاً . رفعت نازلي سماعة الهاتف . لم تتكلم . أتاها

صوت زنتانا من فمها الكبير مرتبكاً :

- نازلي؟ نازلي؟ أأنت على الخط؟ . أين أنتِ؟ . أنتِ في البـيت . ياالحماقتي .

«في البيت . نعم» ، ردت نازلي بلسان مُرْهَق .

تلقَّفت النساء ، في بيت زنتانا ، الخبرَ الجامحَ من الفم الكبير :

- ذُبِحَ شخص أمام عيني زنتانا ، في القطار .

- ذُبحَ؟ من أين؟ .

- من العنق ، يابلهـاء . الكائنات تُذبح من أعناقـهـا ، وليس من أقدامها .

- مَن الذي ذُبح ، يازنتانا؟ .

- لاأدري . سكين شقَّ بطن شاب مراهق .

- بطنه؟ ياللألم .

- ذلك أفضل من شقٍّ حنجرته .

- مات؟ أقالت نازلي إنه مات؟ .

- لم يعد لديها صوتٌ ، يابلهاء .

- ربما علينا الذهاب إلى بيتها .

- الآن؟ .

- نعم . الآن . وليس في العام القادم .

- سأهاتفها .

- توقفي ، يادرخو . إنها تلتقط أنفاسَها .

- لا متَّسع من الوقت لدينا ، هذه الليلةَ ، لزيارة نازلي .

- غداً . نراها غداً .

- هل أخبرت نازلي الشرطة بالأمر ، يازنتانا؟ .

- كيف لي أن أعرف ، ياابنة الله؟ .
- ماذا أخبرتك نازلي ، يازنتانا؟ . كأنك ابتلعت لسانَك .
- لم أبتلع شيئاً ، ياشتولا ، أمْ تريدينني أن أبتلع فرجك .
- ما علاقةِ فرجي بالأمر؟ . أسألكِ : هل أخبرتك نازلي شيئاً؟ .
- أخبرتْني ما أخبرتُكنَّ .
- هل ذُبح الشخصُ من عنقه ، أمْ شُقَّ بطنُه؟ .
- سكّينٌ شقَّ جسداً ، ياراوت .
- ربما لم تقل نازلي لزنتانا شيئاً أكثر من هذا ، يا إرهابيات . ارحَمْنَ زنتانا .
- أهذا كلُّ مافي الخبر ، يازنتانا؟ .
- ألا يكفي ، ياشيراز؟ .
- حبذا لو شقَّ سكّينٌ أيرك ، ياتاسو .
- شُقَّ قضيبي من ألف سنة ، لهذا صار فرْجاً له ذاكرة أير .
- ياالجسارة الطَّرب فيكُنَّ؟ . أتحتملن مزاحاً وصاحبتكُنَّ نازلي في محنة؟ .
- هاتفيها ، يادرخو . هاتفي نازلي ، بحق الله عليك . فلنعرف بالتحديد مقدار محنتها .
- أتؤيدين أن أهاتف نازلي ، يازنتانا؟ .
- لا أميل إلى ذلك .
- كيف نستطيع أن نخفِّف عنها محنتَها ، هذه الليلة ، إذاً ، يازنتانا؟ .
- ستخفِّف هي عن نفْسها . نازلي بغلةٌ إنْ ركَلتِ السماءَ هشَّمتْها .
- لا أحد يستطيع تهشيم السماء بركْلة غيرك ، ياتاسو .
- فعلتُها ، يازليخا . لو لم أصدِّع السماءَ بركلةٍ مني لما تساقط هذا

العدد من الملائكة ، عبر الصدوع والشقوق ، في ساحات مساجد قامشلو ، وعامودا .

- ينبغي أن يدوِّن اسمك على حافر كل بغلة ، ياتاسو .

- بل على كلِّ شظية من السماء التقطتْها جدَّاتُكن من صحاف البرغل ، الملتمعة من كثرة السَّمْن .

- لاطعمَ يشبه طعم سَمْن جدَّتي .

- لاطعم؟ أأنت متأكدةٌ ياوفيَّةً لأصلك ، ياسلام؟ .

- نعم . متأكدة .

- ماذا عن طعم المنيِّ؟ .

- على لساني ، أم في مكان آخر من جسدي ، ياشتولا؟ .

- جسدُك كلُّه لسانٌ ، يا أمَّ الذوق الربَّانيِّ .

- «اسكتْنَ» ، قالت زنتانا ، إذ انضمَّت سيرين ، ذات الخمسة عشر عاماً ، إليهنَّ . «ألن تأكلن؟» ، ساءلتهنَّ الفتاة المفرطة في طولها .

- «بلى ، ياحبيبتي» ، قالت زنتانا . «هل ستنضمِّينَ إلينا؟ . لقد تأخرنا في العشاء منتظراتٍ أن تصل نازلي . لكنها لن تأتي . حصل حادث في قطارها؟» .

- «ماذا حصل؟» ، تساءلت الفتاة الطويلة ، الكرويةُ الردفين في بنطالها القماش ، الرمادي ، الشبيه بمنامة .

- «لاتخبريها» ، هتفت ريحاني ، مستفظعةً أن تسرد الأم على سمع ابنتها خبرَ شابٍّ طُعن بسكين ، فتدخلت زليخا : «هذا جيلٌ يقرأ على الإنترنت مذابح البشرية لحظةً بلحظة» . التفتت إلى الصبية سيرين : «أيروِّعكِ إنْ سمعت أنَّ شخصاً طُعن بسكين؟» ، فرفعت الفتاة الصغيرة كتفَها اليسرى بلا مبالاة :

- الكلُّ يطعن الكلَّ بسكين ، كل يوم .

«أووه» ، همست درخو . «ستنقرض البشرية قريباً» ، قالت . أشارت إلى الفتاة :

- تعالي ، اجلسي إلى جوارِ ملاكٍ أخير مثلي .

«لامتَّسع بينك وبين سلام» ، قالت تاسو . «تعالي ، ياسيرين . هذا كرسيٌّ نازلي فارغ إلى جواري» .

أرزٌّ بالعُصفر ، ودجاج بالكاري في قشدة مائعة على الطريقة الهندية . بطاطا ، وجزر ، وبِسِلّى مسلوقة في صحن عميق ، لا يتوفر لحضورها تجانسٌ مّا مع الأرزِّ ، والدجاج المنكَّه بتوابل المَنْدالا- الكون .

«كم بلغ طولك ، ياسيرين؟» ، ساءلتها زليخا ، فانبرتْ شتولا متدخِّلةً :

- أطول من أيِّ شيء تشتهينَه .

«لاأشتهي بظرك» ، ردت زليخا مستاءةً .

ضربت راوت براحة يدها على فخذ زليخا ، من مجلسها في نهاية الطاولة العريضة :

- حمداً لله أن سيرين لا تفهم الكثير من ألفاظنا هذه بالكردية . لكن ، إذا حضر أولادٌ بيننا وجب على أفواهكنَّ أن تُسدَّ بحذاءٍ ذي عَقْبٍ عريض .

«ألا ينفع حذاء بعقبٍ رفيع؟» ، ساءلتها درخو .

«لماذا تجلس زليخا إلى جوار شتولا؟ فلْتذهبا إلى أفغانستان دفاعاً عن المناخ هناك» ، قالت شيراز .

«يعجبني هذا» ، قالت زليخا

«يعجبها . نعم . عشرون ألفاً من طالبان سيصلُّون فوق بطنها . لهاثهم

سيُلْحم طبقةَ الأوزون الممزَّقة كـ . .» ، قالت شتولا . لجمت كلمتَها الأخيرة وهي تنظر إلى سيرين .

دخل الصبي نعمان ، ذو الثلاثة عشر عاماً ، إلى الصالة بدوره . تبادلت تاسو ودرخو النظرات بضيْقٍ واضح .

«لن نتحدث الليلة» ، قالت تاسو . أردفت :

– كُلْنَ طعامكن ، وغَنَّ حتى مواعيد قطاراتكن الأخيرة . نحن في حضرةٍ عائلية .

حدقت زنتانا إليها في عَتَب :

– بل نستطيع الحديث ، حتى نهاية الخريف ، عن عدد الذين ستحشدينهم ، ياتاسو ، لنِسْفِ الشارع بالديناميت .

«نَسْف؟ من تحدَّث عن نَسْف؟ . مِفَكٌّ براغٍ يحل مشكلة البشرية في شارع بيتنا . نستبدل لوحاً بلوحٍ يحملِ اسماً آخَر من أسماء الأعراق في مستقبل السويد» ، قالت تاسو .

رنَّ هاتف درخو في جيب بنطالها الأسود ، الواسع . نظرت إلى المربع المُضاء ، القادر على جذب رقم المتَّصل من عماءِ الأبعاد المستورة إلى عَلَن الظاهر : «إنها نازلي» ، صاحت درخو . كبست زراً صغيراً في جسم الآلة المُختَزَلة الهيكل :

– عزيزتي نازلي .

وجمتِ النساء أمام صحون الطعام .

«ماذا ، عزيزتي نازلي؟» ، تساءلت درخو .

– ماذا علي أن أفعل؟ .

– لا تفعلي شيئاً ، يانازلي .

– هل أكلم الشرطة ، يادرخو؟ .

- الآن؟ . ستدخلين دوَّامة من التحقيقات . كان عليك حسم الأمر وأنت في محطة القطار .

- كنتُ مهشَّمة .

- خذي أقراصاً من بَنَاديْل المسكِّنة . حاولي أن تنامي الليلة . سنراك غداً .

- غداً؟ .

- نعم . بأسرع مايمكن . صَلِّي أن لا يموت الشاب المسكين .

أقفلت درخو هاتفها . تعالت ا لأصواتُ متوازيةً : «ماذا قالت نازلي؟» .

«ماذا ستقول المسكينة غير ماقالته» ، ردت درخو .

«ماذا قالت؟» ، سألْنَها بإلحاح .

«تفصيلات صغيرة» ، ردت درخو . أومأت إلى زنتانا :

- أسْمِعينا شيئاً من الموسيقى .

«موسيقى؟ الآن؟» ، تساءلت راوت باستنكار .

«ولِمَ لا؟» ، تساءلت درخو .

«نازلي في محنة» ، ردت راوت .

«نحن لسنا في محنة» ، قالت درخو .

تبادلت النساء نظراتٍ متفاوتةَ الإيقاع . هُنَّ لسن في محنة . نازلي نفْسُها قد لا تكون في محنةٍ . حادثُ عابرٌ لايوثِّقُ إلاَّ لمحنة عابرة . ستكون نازلي في مساء السبت القادم ، على الأرجح ، قادرةً على سماع صوتٍ كرديٍّ يتحطَّم بين مسنَّناته قصبُ الموسيقى وعظامها .

«ربما تملك سيرين اسطوانة مما تحبُّ سماعه ، بعيداً عن شِجار أذواقكنَّ» قالت درخو .

ابتسمت سيرين العابسة من تحت أنفها الأفطس . ملأت صحنها

بالبطاطا المسلوقة ، والجزر .

«ألن تتراجع سيرين عن دِيْنها النباتيّ» ، تساءلت شتولا .

«للنباتيين عقلٌ نباتيٌّ» ، قالت زليخا . لمست بكتفها كتف شتولا ، الجالسة إلى جوارها :

- ما عقلك أنتِ؟ .

«لو تعرفين لارتعشت فخذاك ، كأنما يرفعهما فحلٌ على كتفيه . .» ، قالت شتولا ، فأسكتتها تاسو : «اخرسي ، يا ابنة الله . نحن في حضرة عائلية» ، قالت بتعفُّفٍ كاد يبعث القهقهة .

«ماذا تحسِّين ، ياسيرين ، وأنت تأكلين النباتات وبيْضَ النباتات ، وحدها؟» ، تساءلت زليخا . التفتت إلى شتولا تسدُّ فمَها براحتها استباقاً : «سألتُ سيرين . لا تجيبي أنت» .

ابتسمت شتولا . رفعت زليخا راحتها عن فم المرأة الأكثر شباباً بينهنَّ : «سأتحدث ، فيما بعد ، مُضَاعَفاً» . قالت شتولا .

«ماذا تعنين؟ النباتات ، وبيْض النباتات؟» ، تساءلت سيرين .

«ألا تبيض النباتات؟» ، قالت زليخا .

لم يبتسم لفكاهتها السمجة أحدٌ .

«ماذا تحسِّين ، أنتِ ، إذ تأكلين اللحمَ؟؟» ، سألت سيرين صديقةَ أُمها زليخا .

«أوووه» ، همست زليخا باشتهاءٍ . «أمرٌ لا يوصف» ، قالت .

«وأنا كذلك» ، قالت سيرين .

«الخُضار عبيدٌ ، وإماء ، على المائدة ، إذا حضر اللحمُ السيد» ، قالت راوت ، فردت سيرين :

- نحن النباتيات حرَّرْنا العبيد .

«هايْ . هايْ» ، همست درخو مبتهجةً بردِّ سيرين :

- ابنتك ، يازنتانا ، ستلعب بالحياة ككرة سلة .

«كما فعلنا نحن» ، قالت زنتانا . غمزت بعينها اليسرى إلى درخو ، عبر سطح الطاولة المديدة بإضافة منضدة إليها ، ففهمت درخو الإشارة :

- نعم . كُراتُ لحم صغيرة تسقط في سِلالٍ من لحم .

«هل تذوَّقت لحماً ، ياسيرين؟» ، ساءلت شيراز الفتاةَ الصغيرة ، من وراء كتف تاسو الجالسة إلى جوارها ، فردَّت سيرين :

- نعم ، إذْ كنت صغيرة .

«ما الذي نفَّرَكِ منه؟» ، سألتها شيراز ، فردت سيرين .

- اللحم .

«أنفَّركِ اللحمُ من اللحم؟» ، تساءلت شيراز متشكِّكةً في جَدارة جواب سيرين .

«اتركي الفتاة لحالها» ، صاحت درخو . «هي تستمتع بما تستمتع به ، ونحن نستمتع بما نستمتع به» . عضَّت على جزرة مسلوقة كأنما تعضُّ حديداً : «صيري لحماً حيًا ، أيتها الجزرة» ، قالت في لوعةٍ رقيقة .

«السويد القديمة لم تكن تأكل إلاَّ اللحم» ، قالت ريحاني .

«أكنتِ نائمة ، ياريحاني؟» ، سألتها شتولا ، فاستغربت ريحاني :

- ماسؤالكِ هذا؟ .

«لم أسمعك منذ مدة» ، قالت شتولا .

«كنتُ منهمكة في أكل اللحم مع محاربي إله السويد الأول ، السيد أودن» ، قالت ريحاني .

«ياللمآدب هناك» ، علَّقت درخو . «مآدب بيت الشهداء فالْهَال» .

«عمَّ تتحدث درخو؟» ، تساءلت تاسو .

نصالُ سيوفٍ تضيء فكرةَ درخو عن المآدب الماجنة ، الشهوانية ، في بيت المحاربين ، الذين لم يخطر ببالهم ، في مكان مّا من أعالي سماء السويد ، أن يردِّد مهاجرون اسمَ إلههم أقل بكثير كثير من اسم إيْكيا - ربَّةِ المستعمرات بلا حدود .

مستعمراتٌ بيوتٌ . ربَّةٌ تؤثث الأرواحَ الطليقة ، والمُعتَقَلة ، بما يتَّفق مع سعتها ، بلا زيادة أو نقصان ، مبتسمةً لأولئك المحاربين الموتى ، في ساحة فالْهالْ ، واقفين من حول مناضد من جذوع شجر البندق ، يأكلون لحوماً في ضياء سيوفهم . يشربون نبيذاً ، ويعتصرون النساء . لا نيران . المعدنُ النُّورُ ، في نصال سيوفهم ، يكفي لأن تتنكَّر الشمس خجلاً في فخذ خنزير يدور ، في سيخ الشواء ، على فحم نقلوه معهم إلى أرض أودِن من غابة سكوغوس . محاربون يلقِّمون عنزتهم هيدرون ورقاً طرياً من خضار لم تتذوَّقها سيرين . حليب العنزة هيدرون ممزوج بعسل لاتحتاج السماء إلى نحْلٍ لصُنعه . لكن الحقيقي ، الذي لن يدحضَه أحد ، أن المحاربين الموتى يُلقون ، في نهاية كل مأدبة ، بعظام عرُّوها من اللحم إلى أرض الأحياء ، أسفَل ، من ثقوب في سماء أوْدِن ، وهم يقهقهون : عظام تتراكم أهرامات ، وأبراجاً ، وجُسوراً ، وأنفاقاً ، ومضائقَ . «هيِّي ياسيرين ، كُلي لحماً في بلدٍ من ذاكرة اللحم في مآدب المحاربين على سفوح الأعالي ، هناك : ساحة فالهال» .

لكن سيرين لن تأكل اللحم ، حتى لو أقسمت لها تاسو بعظام أجدادها ، أو عظام آدم نفسه ، أن نَيْك النباتيين نيكٌ شاحبٌ . ولانيكَ يكون معافىً إلاَّ بطعام لحم . وتاسو ، قطعاً ، لن تُقْسِم أمام سيرين بقَسَم مبتذلٍ من هذا . لكنها تستطيع التصريح ، بما لايخدش حياءَ أحد ، أن سيرين ستأكل اللحم إذا بلغت التاسعة عشرة . «نعم . سيرين . ستأكلين

اللحم وأنت في التاسعة عشرة؟» .

هزت سيرين رأسَها امتعاضاً من الفكرة .

«أنتِ تسـدِّدين هدفـاً بالكرة إلى سلة الله» ، قـالـت راوت المُضـاءة بذهب الصباغ على شعرها .

«من يسدِّد هدفاً إلى سلة الله؟» ، تساءلت ريحاني .

«ليس تاسو ، قطعاً» ، ردت راوت .

«لماذا ستأكل سيرين اللحم إذا بلغت التاسعة عشرة ، ياتاسو؟» ، سألت درخو صديقتَها .

«أحب الرقم ١٩» ، قالت تاسو . نزلت ببصرها إلى ملتقى فخذيها : «انفجرت قطعة من اللحم هنا ، وأنا في التاسعة عشرة» . هَأْهَأَت .

«البشرية كلها ـ البشرية الفارغة ؛ الذيل ؛ الحذاء المثقوب ؛ البشرية الإرهابية من آدم إلى تاسو ؛ البشرية البراميل ؛ الأكياس ؛ أعقاب لفافات التبغ ؛ البشرية السعال ؛ مصارف المياه الوسخة ؛ العَرَق تحت آباط مدمني الكحول ؛ لعاب البقرة ؛ البشرية . .» ، قالت درخو بلا توقف ، فقاطعتها تاسو :

– اختنقنا . كَمَّمْتِ أفواه البشرية . انزلي عن ظهر هذه الكلمة . ماذا بعدها ، يادرخو؟ .

«البشرية السياحة في وادي سوات بباكستان ، أو في مقديشو ؛ أو في دارفور ؛ أو في تُورابُوْرا ـ مُنْتَزَه القاعدة . البشرية . .» ، لجمْت درخو لسانَها . نظرت إلى نعمان وسيرين : «هل شبعتما؟» .

لم يعلق أحد من الولدين على سؤال درخو ، فاسترسلت : «البشرية الظِّفْر ؛ روث الجاموسة ؛ البيتزا بعجين حامض ؛ طعام القطط ؛ الجوارب ؛ ممسحة حذاء شاكو» ، توقفتْ متردِّدة . نظرت إلى سيرين : «ماإسم تلك

المغنيـة التي تقـوِّض خـمـسين عـرشـاً من عـروش الملائكة برجـفـة من ردفيها؟» .

«شاكيرا» ، ردت سيرين .

«أوه .نعم . شـاكـيرا . البشرية ممسحة حذاء شاكيرا . البشرية البطالة قبل أن يخلقـهـا الله ، وبعـد خَلْقـهـا ؛ البـشرية السـروال الضيـق» ، قـالت فقاطعتها تاسو من جديد :

- أرجوك . انتظري ريثمـا يعـود نعـمـان وسيـرين إلى غـرفـتـيـهـمـا ، وسأنقذك من البشرية هذه .

«حسناً ، ياتاسو . قصدي أن البشرية تخصيبُ منيٍّ نوويٌّ» ، قالت ، فقاطعتها شتولا :

- بل تخصيبٌ نوويٌّ للأير .

«ياالله . هلا وضـعـت إحـداكنَّ البـشـريةَ في فـرجـهـا ، وأقـفلتِ الموضوعَ؟» ، هتفت شيراز .

«معنا صبيَّة وصبيٌّ ، ياشريرات» ، قالت تاسو موبِّخةً . فأومأت درخو إليـهـا : «اسـمعي ، ياتاسـو . قصـدي أن البـشرية ، مثلك ، تقوم على أرقام تكـذب بهـا على نفـسـهـا ، بلا ذكـاء . اسـمـعي : زار الرئيس أمَّـه ، للمـرة الأولى بعد يومين من انتخابه . أحيا البعض ذكرى الميت في أربعين موته . قام البابا بتعميد أحد عشر أفريقياً في اليوم الثامن والعشرين على توليه كرسيَّ السماء ، للمرة الأولى . الحكومة الجديدة في بلد الشيطان تجتمع للمرة الأولى بعد زواج سمعان» .

«من هو سمعان؟» ، ساءلتها سلام .

«سمعان هو سمعان . البشرية تخترع أرقاماً لتسلية عقلها السَّمج : للمرة الأولى ، بعد انقطاع دام نصف ساعة ، تستعيد الأمة ذكرى مطرقة

آدم ، التي جلبها معه من الجنة ، والذكرى الرابعة والنصف ، بعد المليون ، لفقْد حواءَ بكارتها . الفوز الأول ، بعد سنة ، لفريق ليفربول . المرة الأولى لتناول وزيرة الخارجية وجبة هامبرغر بعد توليها الوزارة . ما ذكاءُ البشرية القحبة هذه؟ . هل أرَّخَتْ إحداكنَّ لما فكَّر به فرجها ، للمرة الثانية ، في ذكرى . .» ، قاطعت شتولا صديقتها درخو :

– بعض الفروج لا يفكِّر . بعضها لا يملك ذكرى .

«اسكتي . عليك اللعنة» ، قالت زنتانا . نظرت إلى ولديها مبتسمةً :

– أتفهمان ماتقوله هؤلاء الإرهابيات؟ .

نهض نعمان بلا مبالاة . حمل معه قدحاً من عصير البرتقال ، منسحباً من الصالة . نهضت سيرين بدورها . حملت علبة العصير الكبيرة ، الورقية ، منسحبةً . بدا نطاق بنطالها الرمادي ، القطني ، منحسراً كثيراً عن سروالها الداخلي الأصفر ، من جهة الردفين .

تنفست شتولا ملء رئتيها . تنفست النساء الأخريات الهواءَ ، بتواطؤٍ متزامن ، ملءَ عظامهن .

«أير» ، قالت تاسو .

«مابك؟» ، ساءلتها زنتانا مستنكرةً ، فردت تاسو ، وهي تنقل بصَرها بين وجوه النساء كلهن :

– أدرِّب لساني ، من جديد ، على حرِّيته .

«ماهذه السراويل الداخلية؟ ماالذي ترتديه مراهقاتُ اليوم من سراويل داخلية؟» ، تساءلت زليخا .

«يرتدين ما يعرِّيهن أكثر من أن يكُنَّ عاريات . سراويل داخلية لا تغطي اللحم ، بل تغوص فيه وتختبىء . علينا تقشير الجلْد عن الأرداف لنعثر على قماش سروال تحت الجلد» ، قالت ريحاني .

«باتت الفروج مرايا للسراويل الداخلية» ، قالت زليخا هامسةً .

«بل السراويل هي مرايا الفروج . مسامُّ الفروج يبدو واضحاً في السراويل الجديدة . كلما بات اللحمُ ظاهراً أكثر من جنبات قماش السروال ، كان السروال أغلى ثمناً» ، قالت شتولا .

«ماذا ترتدين ، أنتنَّ ، تحت جلودكن ، يا مراهقات؟» ، ساءلت درخو صديقاتها .

«نرتدي جلودَ أمهاتنا» ، ردت تاسو .

«بل نرتدي جلودَ آبائنا» ، أضافت شيراز . «هذا الشعر على جلودكن يدل على أنه جلدُ آبائكن ، لا أمهاتكن» .

رفعت تاسو طرفَ قميصها عن بطنها : «معك حق يا شيراز . الشَّعر يكاد يبلغ سُرَّتي» . تمتمتْ عاتبةً : «ماذا فعلت بي يا أبي؟» . عادت فحدَّقت إلى وجه شيراز . قرَّبت رأسها من رأس المرأة ذات الشدين العارمين : لقد لاحظت شيئاً فاتها :

- كانت لديك تجاعيد أعمق من هذه على جبينك . لا أراها ، ياشيراز .

تنفست شيراز في رضىً .

تلقَّفت الأخريات ، أجمعون ، شذراتِ الذهب الحارقةَ في إعلان تاسو اكتشافها على وجه شيراز : «التجاعيد؟ ماذا؟» ، قُلنَ بكلمات متداخلة . تجمعن ، مهرولاتٍ ، حول شيراز ، إلا شتولا .

«كانت تجاعيدك أعمق ، حقاً ، ياشيراز . ما السحرُ الذي تستخدمينه بحق الله عليك؟» ، سألتها زليخا .

نهضت شيراز إلى حقيبتها المركونة إلى جوار مصطبة الأحذية ، في مدخل البيت . أخرجت ماسورة زرقاء : «هذا سحرُ المتْجر الهندي ، قرب

محطة هُوتورْيت» .

تقلَّبت الماسورة الزرقاء ، ذات الحروف الهندية ، بين الأيدي : حروف تطوِّق بالتواءاتها سيرورات السفليٍّ ؛ تتدلى أسفلَ من خط الأفق المستقيم ، مرتاحةً ، مكينةً ، واثقةً كَقِرَدة الشِّقِّ تتدلى بأذيالها القوية من أغصان الشجر .

«أملأُ كل تجعيدة بالمرهم ، ساعتين قبل النوم» ، قالت شيراز .

«ما اسم المرهم هذا؟» ، سألتها تاسو .

«شارميْلا» ، ردت شيراز .

«أين كُتبَ اسم المرهم؟» ، سألتها زليخا .

مرَّرت شيراز إصبعها السبابة على الحروف الهندية : «شارميلا» .

«أغمضن عيونكن . سأقول كلمةً في منتهى الفحْش» ، قالت درخو .

قاطعتْها تاسو :

- أغمضن فروجكن ، سأريكن شيئاً يهيِّج زُبَّ الفَلَك .

أنزلتِ الزِّمامَ المنزلقَ ـ السَّحَّابَ في بنطالها ، فانفتحت دفَّتا البنطال المشدودتان بقسوة ، إحداهما إلى الأخرى ، فوق الشحم المتهيِّئ لوثبةٍ تشقُّ القماش .

«ماذا تفعلين؟» ، صرخت بها درخو . أشاحت بوجهها متصنِّعةً قَرَفاً :

- لا نريد أن نرى زُبك ياتاسو .

خشخشت ورقةٌ ملفوفة طولاً ، كماسورةٍ مبعوجة ، في يد تاسو :

- ٣١٥٠ تأييداً لخطَّتي من أجل تغيير اسم شارع بيتنا . الرسائل تتتالى على بريدي الألكتروني . بين المؤيِّدين سويديان ، وشخص لاتيني .

فتحت تاسو الورقةَ اللِّفافة تتأمل الاسمَ اللاتيني :

ـ فرناندو ليمو كاسونا .

«ليمو ، أَمْ ليموزين؟» ،ساءلتها راوت ساخرةً .

«ياالله» ، هتفت درخو . «لماذا تخبئين هذه الورقة في سروالك الداخلي؟ أيُّ كنزٍ ، ياتاسو؟» .

«لأشعر بها قريبة من لهب رغبتي» ، ردت تاسو . أعادت شدَّ الزِّمام المنزلقِ ـ السَّحابِ المعدن إلى أعلى ، وهي تجوِّف بطنها قَدْرَ ما تستطيع ، كي يلتحم النِّطاق المفتوح : «أعِدكِ ، ياريحاني ، أن أشرب كأسين من نبيذك ، حين أستبدل لوحةَ اسم كاترينا باركن بلوحة اسم وليٍّ القشدة الملا علي خابوت . وسأتوقف عن التدخين ست ساعات تضحيةً لله» .

سُمعتْ طرقاتٌ باليد على باب زنتانا . طَرقات باردة كسقوط حجارة ، من الأعلى ، في كومةِ وحلٍ .

«هل أَحْدَثنا صخباً؟» ، تساءلت زليخا باستباقٍ لتخمين مَنْ قد يكون الطارق .

«لاصخب . لافوضى . لا نيك» ، قالت زنتانا متجهةً صوب الباب . فتحت الباب . شهقت شهقةً قصيرة بلا كلمات .

دخلت نازلي صامتة . شهقت النساءُ تباعاً إذْ رأينها . نهضن بفضولهن الجامح صوبها . «نازلي» ، همست إحداهن ، وهن يتأملن صديقتهن في سترتها الطويلة ، الملطخة بالدم .

«سأنام الليلة عندك ، يازنتانا» ، قالت نازلي بصوتٍ شاحبٍ ، منطفىء ، مُرْهَق . أنزلت حقيبتَها القماشَ عن كتفها . أسقطَتْها بارتخاءٍ في أصابعها . جلست على أرض البيت الخشب متَّكئةً بظهرها إلى الحائط : استغرقَها وجومٌ نثر غباراً أبيض على حدقتَيْ عينيها .

أسرةٌ مفقودة

أُضيفت طاولتان صغيرتان إلى الطاولة الكبيرة ، في صالة بيت راوت ، كي تتَّسع لزائراتها الموعودات ، في كل فصل ، بسبتٍ كالوشم على عقِب الأيام . «سأجلس قربك» ، قالت تاسو لمضيفتهن : «مدخِّنتان لا تشربان كحولاً» .

استنكرت درخو اقتراح تاسو :

- هذا فأل سيء .

مدت تاسو يدها إلى قدح درخو الجالسة إلى يمينها . ارتشفت جرعة صغيرة بلَّت شفتيها ولسانها ، لا أكثر . «لم يعد فألاً سيئاً أن تجلس مدخِّنتان جنباً إلى جنب» . ابتسمت لراوت ، ثم عبست :

- رأيت ابنك خارجاً من عمارتنا .

«مَدَد؟» ، تساءلت راوت ، فردت تاسو :

- أعندك ولد ذكر ، آخر ، غير مدد؟ . نعم . مدد . رأيته البارحة خارجاً من عمارتنا . سلَّم ، ولم يتوقف . إنها المرة الثانية ، التي أراه خارجاً من عمارتنا .

«فهمتُ» ، تمتمت راوت . أردفت :

- أكان على موعد معك؟

«ليس بعد . سأستدرجه بتأنٍّ» ، ردت تاسو ، فلكزتْها راوت بمرفق

ذراعها اليمنى تُسْكتُها . أخرجت هاتفها المحمول من جيب بنطالها الرمادي الواسع . نقرت على أرقامه توقظها من سُباتها المضيء . وضعته على أذنها ، وانتظرت .

«حبيبي مدد» ، قالت مطلعَ جملتها بالسويدية ، وأكملت بالكردية : «رأتك تاسو خارجاً من عمارتها . ماذا كنت . .» ، لم تكمل . قاطعها الشاب ذو الأربعة والعشرين بصراخ التهمَ متراً مكعَّباً من فراغ المكان ، ثم صمت الهاتف .

أعادت راوت الهاتف إلى جيبها ، متصنِّعة ضحكاً من المحادثة المبتورة :

- قال لي : هذا شأني الشخصي ، فلا تتدخل أيةُ سُحاقية فيه .

قطبت تاسو حاجبيها متساءلة :

- ماذا عنى بذلك؟! .

«لا أعرف» ، ردت راوت . سألت صديقتها : «أتعرفين أنتِ؟» .

«لا ، قطعاً . لكنه على حق في غضبه» ، قالت تاسو . «ربما لم يكن جديراً بك أن تقتحمي ليلته بسؤال كهذا . كل الأولاد لا يحبون أن يقاطعهم آباؤهم وأمهاتهم حين يكونون في حضرة أصدقاء . أهو مع أصدقاء؟» .

«مع أصدقاء ، وصديقات» ، ردت راوت وهي تغمزها . «كل شهرين عنده صديقة جديدة» .

«تلزم أولادنا تغذية جيدة تمدُّهم بطاقةِ الصواعق . هذه الفروج الشقراء ، من حولهم ، تحتاج إلى مولِّداتٍ تنيرُ كل بظرٍ كمصباح كهربيٍّ» ، قالت تاسو ، ثم مالت على راوت :

- ماذا يفعل مدد في عمارتنا؟ .

وجـمـت راوت قليـلاً تفكر في توريات تاسـو مـقلوبةً . حـزمت أمـرَ لسانها :

– لدينا فتياتٌ لهن فروج . ألا تعتقدين أن أيوراً شقراء تحوم من حول فروجهن؟ .

«لاتقلقي . فروجهن لا تستسلم . تنتحر ولا تستسلم» ، قالت تاسو ، فلم ترض راوت بجوابها :

– عندك أولاد ذكور . عندي أولاد إناث . لن تجلبي لي إطمئناناً .

«أتيتك بماسورة من معجون شارميلا» ، قالت شيراز مخاطِبةَ راوت ، ذاتَ الشفـة العليـا المقسَّمة أخاديد صـغيرة كـتقسـيم الأرقام أجـزاءً على مسطرة .

نادت راوت بصوتٍ زاده وهجاً صباغُ شعرها الذهبي :

– رِيَبانة . رُوْهلات .

حضـرت فتـاتان من غرفـة واحـدة ، ذات باب على الردهة في مـدخل البيت . اعـتـذرت ريبـانه ، فـتاةُ الثـامنة عشـرة ، المرتدية ثوباً هندياً طويلاً ، شـديد التـلاوين : «لسـت جـائعـة . أكلت الكثـيـر مع صـديقـاتي عـصْـراً» ، قالت ، وهي تصحِّح وضْعَ قبَّعتها المموَّهة على شعرها القصير ، المصبوغ فضِّياً من جـهـة رأسـهـا اليـمنى ، ثم أقفلت راجعـةً . تقـدمت الأخـرى ـ روهلات ، بسنينها الست عشرة ، إلى طاولة الطعام . وزَّعت نظرات مُحَيِّيَةً من عينيها الواسعتين على صديقات أمها ، قبل أن تتخيَّر لصحنها حبَّتين من الكوسـا الصـغـيـرة ، المحشـوة بالأرز واللحم في مـرقٍ من اللبن ، وبضع لفافات من ورق العنب المحشوة ، بدورها ، بأرزٍّ ولحم مفروم ، ثم انسـحبت مع قَدَح كبير من كوكاكولا ، بعد نظرة متفحِّصة من أمِّها إلى القدح ، وتوضيحٍ منها ، هي : «لاتخافي يا أمي . أستطيع أن أنام ولو شربت لترْين» .

أطلقت الصحونُ الخزفُ سراحَ أرواحها الخزفيَّةِ مُنْشِدةً للملاعق غَزَلاً ماجناً . تهارشتِ الكلماتُ الآمرة :

- خذي من هذا .
- هاتي صحنك .
- إحفظي في معدتك فُسحةً للسَّلطة .
- تذوَّقي تلكَ .
- أملأي كأسك .
- لاتتركي شيئاً في صحنك . احذري .
- هاتي المملحة .
- خُذي خساً .
- أعيدي إليَّ الملقط . لم أكمل مَلْءَ صحني .
- احذري مَرَق اللبن .

أبعدي كرسيك قليلاً لتتحرَّر ذراعي .

- لا تُقسري نفسَك على الكوسا إن لم تعجبك . خذي ورقَ عنب أكثر .
- وزِّعي المناديلَ الورقَ على اللواتي يجاورْنَكِ .

كلماتٌ ملاعقُ غَرفَت الطعامَ من الصحون كشقيقاتها الملاعقِ المعدنِ .

«آآه» ، تأوَّهت زنتانا . «فات شتولا ورقُ العنب المحشوُّ هذا . إنها تحب ورق العنب من يد راوت» .

وافقت راوت ماقالته زنتانا : «بالتأكيد» . ابتسمت ابتسامة فاضت عن سعة فمها : «لكنها تتذوَّق الآن ، ما يفوق هذا الطعام نَكهةً» .

«فلْنهاتِفْها» ، قالت زليخا .

«دعيها لموعدها . لماذا تكرهين شتولا؟» ، ساءلتها شيراز ، فامتعضت زليخا :

– نتخاصم . نعم . لكن لا أكره شتولا . أراها صغيرةً تحتاج إلى توجيه .

«لاتحتاج شتولا إلى توجيه» ، قالت تاسو . «ذكية . حلوة . متعلِّمة . مشكلتها الوحيدة هي لماذا تصاحب نساءً مثلنا؟» .

«لسنا رديئات ، ياتاسو . ألسنتُنا فاحشة قليلاً ، لكننا لسنا رديئات» ، قالت سلام .

«ألسنتُنا ليست فاحشة ، ياسلام . لانذكر إلاَّ ألفاظاً تخصُّ الجنة : خُصى ؛ فروجٌ . الجنة كلها تقف على عمود واحد اسمه النيك . الخمر ، والعسل والحليب لاتغير شيئاً من أمر أن الجنة هي نيكٌ . بلا هذا سيرمي أهل الجنة بأنفسهم من سورها ، هاربين إلى الجحيم يستصرخون الشيطان كي يتدبر لهم إثماً في حضن امرأة . يستطيعون الاستغناء عن الخمر ، والعسل ، والحليب . لا موتَ في الجنة حتى لو صام الإنسان إلى أبد الآبدين . لكن ، بلا فُروج ستكون الجنة هَوْلاً» ، قالت تاسو .

«الخمر ، والعسل ، والحليب ، ياتاسو ، هي لإكثار المنيِّ» ، قالت نازلي .

«ما حاجة الرجل إلى منيٍّ في الجنة؟ . لا إنجاب في الجنة ، فلماذا المني؟ لا ، يانازلي . الخمر ، والعسل ، والحليب عمودٌ واحد هشٌّ من أعمدة الجنة ؛ عمود لا يكفي لحمل جنة في حجم قَطَر ، أو جزيرة مالطا» ، قالت تاسو .

«مالطا جزيرة مسيحية . جزيرة لن تدخل الجنة» . قالت ريحاني .

«في الآخرة سَتُشهِر كلُّ أرض إسلامها . القارات ، المحيطات ،

الأنهار ، البحار ، الأرخبيلات ، كلها ستعتذر إلى الله عن تأخرها في إعلان إسلامها» ، قالت زنتانا .

«لم أعرف أن مدينة عفرين تنجب فقيهات» ، قالت نازلي . «اسمعي» ، أضافت : «ألا تقرأين الإنترنت؟ . فقهُ العالم ، وفتاواه بين يديك . اسمعي . علماء مسلمون ، في بريطانيا ، محتارون : هل حلال ، أم حرام ، أن تنتشي المرأة في الحمَّام وهي تغسل فرجها برشاش الماء القوي؟ . أينبغي قطعُ شجرةَ نَمَت في الحديقة على شكل قضيب ، أم تُتْرك لحالها؟ . أيجوز للمرأة أن تلعق شفتيها ، أثناء الطعام ، في حضور رجال؟ . هل يجوز للمسلم إطالة قضيبه بعملية جراحية؟ أيجوز للمرأة أكل الموزة بإمساكها كاملة ، في يدها ، مع ما للموزة من شكل مثير ، أم ينبغي تقطيعها بالسكين في صحن؟ . لقد أفتى أحدهم بجواز ضرب المرأة لزوجها ، إسوة بضرب الرجل زوجته ، وها الأسئلة تتوالى : ماحدودُ ضربها لزوجها؟ . هل تتوقف إذا سال الدم من أنفه؟ وهل عليها أنْ تضربه بالحذاء أم بالكؤوس ، أم بالحزام الجِلْد ، أم بالكرسي ، أم بآلة التحكم عنْ بُعْد بالتلفاز؟» .

«بالسكين» ، أضافت ريحاني .

«لقد أفتى شيخ» ، استرسلت نازلي : «أفتى بوجوب ذبح ميكي ماوس . وهاهم الفقهاء يتجادلون في تحديد نوع دم ميكي ماوس إذا ذُبح» . ضربت براحة يدها على صدرها منذهلة : «هل تتابعن ، على الإنترنت ، مجادلة العلماء ، والعامَّة ، عن النكاح؟ . الأسئلة أكثر فصاحة من أفخاذ نساء مفتوحة في فيلم إباحي ، والأجوبة أشبه بقذف المنيِّ» .

«الشَّرع يجوِّز ذلك» ، قالت زليخا ، فردت نازلي :

– إنها أسئلة ، وأجوبة ، تكفي - ياعزيزتي - لبلوغك النشوة تسع مرات في اليوم .

«أتعتقدن أن شتولا منهمكة ، الآن ، في صناعة فيلم إباحي؟» ، تساءلت زليخا .

«إنها تستمتع الآن . تخيَّلي أنت ، يازليخا ، ماتفعله شتولا ، واستمتعي» ، قالت تاسو . أضافت : «تستكثرين عليها ، وهي الحلوة ، أن تكون على موعد ، هذه الليلة ، مع رجل؟ . يالنا ، نحن فتيات الأسِرَّة المفقودة» .

مُذْ أخبرت شتولا صديقتها راوت ، قبل أربعة أيام ، أنها ستتغيب عن مساء السبت عندها ، بإيحاءِ خفيف عن وجود موعد مع رجل ، لم تبق ثغرة في هواء السويد إلاَّ عبرتْها موجةٌ من مخاطَبات الهواتف المحمولة في جيوبِ الصديقات ، والثابتة في بيوتهنَّ :

– أهو وسيم ، ياراوت؟

– ماأدراني؟ لم تخبرني شتولا عن وسامته ، ياشيراز .

– أهو كردي ، ياراوت؟ .

– كردي . ياباني . سريلانكي . ما فضولُكِ هذا ، ياريحاني؟ .

– أهو أكبر منها ، أم أصغر ، ياراوت؟ .

– أكبر من فرجك ، وأصغر من مؤخرتك ، يازنتانا .

– أأخبرتك متى التقتْه؟ .

– لم تلتق به . التقى هو بها . أنىَّ لي أن أعرف ، يادرخو؟ .

– ماعمله؟ .

– توسيع الفروج .

– أين سيلتقيان؟ .

– في تُورا بُورا ـ منتزه شيوخ القاعدة وعائلاتهم .

– قد يكون متزوجاً .

- لن تهتم شتولا بذلك . لن تهتم سُرَّتُها .
- من أية منطقة هو؟ من ستوكهولم؟ .
- من شمال ستوكهولم .
- أأنت متأكدة ، ياراوت؟ .
- اسألْنَها ، يابنات الشيطان . عندها هاتف . إسألْنها .
- اصبري قليلاً ، ياراوت . أحقاً هو من شمال ستوكهولم؟ .
- ماذا لو كنتُ متأكدة من ذلك ، يازليخا؟ .
- سيساعدني ، هذا ، على الإمساك بخيط .
- بخيط من ماذا ، يازليخا . بخيط من سروالي؟ .
- أنتِ تخبئين شيئاً عنّا ، ياراوت .
- نعم . أخبِّىء خصيتَي صديق شتولا .
- هل قطعَتْهما شتولا ، وتركتْهما أمانةً عندك؟ .
- فرجُها مقصٌ ، كما تعرفين ، يادرخو ؛ إذا انتشى قطعَ قضيباً وقطع معه خصيتين . لدى شتولا مجموعة من هذه الأعضاء المقطوعة ، المهذَّبة .
- أأعطتْكِ بعضها لتُخَلِّليها ، ياراوت؟ .
- سأخلِّلكِ ، يادرخو .
- أنا مُخلَّلةَ منذ ولدتُ . حياتي مخلَّلة . إيماني مخلَّلٌ . كلُّ شهقةِ متعةٍ ، في جسدي ، شهقةٌ مخلَّلةٌ . عالمي ، ياراوت ، مخلَّلاتٌ على طاولة ينقصها صحنُ فولٍ مدمَّسٍ ، ورغيفان حَلَبيّان .
«فلْنهاتفْ شتولا» ، كررت زليخا رغبَتها السمجة .
«أيُّ هاتف - تظنّين - سيوقظها من مروحة خصيتَيْ صديقها المُنعشة؟ . هي ، الآن ، في عالم لايصلها فيه إلاَّ رنينُ القُبل ، ياخرقاء» ، قالت نازلي .

«أوقفن ، يانساء ، خيالَكنَّ الماجن» ، قالت شيراز مضيِّقةً بين أجفان عينيها الخضراوين ، المشوبتين بصفرةٍ ، استنكاراً للتمادي في تلفيق الصوَّر . لكن ، لم يتوقف تمادي صديقات شتولا في تلفيق الصور عن سريرٍ يتمزَّق لوعةً من صرخات ردفيها القويين ؛ من صرخات ثدييها القويين ؛ من صرخات القُبَل يقودها صديقُها ، بلسانه ، من شفتيها إلى فرْجها ؛ من صرخات الضوء حول جسديهما المرتعشين عافيةً ؛ من صرخات كل شيء امتناناً لتَرَف الوجود بتأكيده أنهما عاريان لايُقهران ، في لحظتهما تلك .

لربما كُنَّ يسمعن صرخات أنفسهن ، أيضاً ، مكتومةً في الصور تتداولها أيدي خيالهنَّ ، فيتلوَّعن كالسرير تحت ردفي شتولا القويين . لكنهن يعجزن عن تحديد مكان لقاء الشابة ، ذات السبعة والعشرين عاماً ، بصديقها المولود ، توّاً ، من موعدٍ معها : أهما في بيته ، أمْ في بيت شتولا؟ .

«اسألْنَها . اسألْنَ شتولا . معكنَّ هواتف» ، صرخت راوت مراراً . لكن ، لم تتَّصل أيٌّ منهن بشتولا ، على نحوٍ مرتَّب بحُنْكةٍ خرساء .

يُوهان سْفارتفيكس هو اسم الشارع ، الذي تقع فيه عمارة سُكنى شتولا ، ذات الطبقات الأربع ، في منطقة فلامِنْغزبيري . كبرت الفتاة القوية الردفين في فلامنغزبيري منذ قدومها إلى السويد مع أبيها الأرمل محمود جبري ، وهي بَعْدُ في الثامنة ، مع قافلة من أكراد مهاجرين من تركيا . عَبَرَ محمود الحدود التركية ، من القامشلي ، بابنته ، ملتحقاً بالقافلة الكردية . دخلت القافلة ألمانيا أولاً ، بجوازات مزوَّرة ، منطلقين منها إلى جنوب السويد ، مستسلمين لأول خطٍّ من دفاعات جمارك المملكة عن حدودها . دوَّخوا سُلطات الهجرة باعترافات متناقضة ، حتى بلغ انتساب الواحد منهم ، دفعةً واحدةً ، إلى أماكن جريحةً كثيرة ، من كردستان

إيران ، إلى كردستان العراق ، إلى كردستان سوريا ، إلى كردستان تركيا ، إلى كردستان البحر المتوسط ، فكردستان أتلانتس المفقودة . دفعت السويدُ ثمن ذلك الغموض المحيِّر إقاماتٍ سريعةً قبل أن تضطر إلى سماع أولئك المهاجرين يدَّعون نزوحاً من كردستان السويد إلى السويد ، ويُقْنِعون سُلطات المملكة بذلك .

تزوّج أبوها الأرمل في السنة الثانية من إقامتهما في السويد ، بسيدة كردية أرمل ، من كردستان العراق ، لها ابنة في الرابعة من عمرها تُدعى شْبول . انتقلوا ، جميعاً ، حسب ترتيبٍ من أرباب توزيع المساكن وفق أحجام العائلات وأرقام أفرادها ، من شقة في الطبقة التاسعة من عمارة غرب جسر فلامنغزبيري إلى عمق المنطقة شرقاً : غرفتا نوم ، وصالة ، ومطبخ وحمّامان كبيران . شقة في الطبقة الثانية ، وليس في التاسعة ، هذه المرة . لكن العائلة لم تثبت طويلاً على علوٍّ واحد من الأرض في العمارات . كلما زاد طفلٌ مضافٌ إلى نسل العائلة رحلت العائلة إلى شقة أكبر ، أعلى بست طبقاتٍ عن الأرض حيناً ، وطبقة واحدة حيناً . أربعة إخوة ذكور ، صغار ، جُدد ، وسّعوا للعائلة سُكناها . وما لم يكن كافياً من فضاءات الغُرَف رُوِّضَ بأسِرَّةٍ متراصفة : سريرٌ يعلو سريراً يمكن تسلُّقه بسلَّم خشبٍ صغير . شتولا ، وشبول ، سكنتا غرفة ، وسكن كلٌّ اثنين من إخوتهما الذكور غرفةً .

تسلَّم الصخبُ مقاليد أبوّته العريقة .

ازداد الأولاد هياجاً ، فيما ازداد الأب ، وزوجته ، خمولاً ، واستسلاماً لهدوء غير منصف ، لايتدخلان لفكٍّ اشتباك بين متخاصميْن ، أو ينبِّها طفلاً إلى الحرص على مافي صحنٍ من الاندلاق ، فيندلق الأرزُّ ، والبرغل ، والحساء ، وفتات الخبز ، والماء ، والمشروب السُّكَري ، والغازيُّ ،

أصفرَ أحمرَ أزرقَ ، أو بُنِّيًا غامقًا ، على كل شيء ـ المائدةِ ، أرض الغُرَف ، الأسِرَّة ، الثياب ، والأقدام .

أمر واحد اتفق الأب فيه مع زوجته على إخضاعه لسلطة القانون : الرقص الكردي . كانا يجمعان أولادهما الستة ، كلما وُجدا معاً ، متجاورَيْنَ ـ قدْر ما يسمح الوقتُ للأب ، بخاصةً ، قبل ذهابه إلى النادي الليلي حيث يعمل طاهياً ـ في نصف حلقة ، يداً أحدهم في يديٌ اللذيْنِ يجاورانه ، من جنبيه ، كتفاً إلى كتف . شعاعُ الليزر ـ شقيقُ النار الناطقة في سيناء على مسمع موسى ـ يستنهض وصايا الإرث الأقدم ، في الأسطوانة الصغيرة ، مزاميرَ ينفخ فيها فمٌ واحد منذ بدء تاريخ الصوت عند الكرد ، وطبولاً تقرعها بالعصيٍّ أيدٍ هي ذاتها منذ عرفت يدُ الكردي حركةً للقرْع .

«تحرَّكوا . أرونا اهتزازكم . صدِّعوا هذه العمارة» ، يقول الزوجان لأولادهما ، واقفيْنِ ، متلاصقيْنِ يُريانهم براعة الأصل برقصهما ، الذي ينبغي أن يُحتذى .

لاتعرف موسيقا المزمار والطبل ، المتعاقبةُ بلا كلل ، على استحضار الكرديِّ حزمةً من هدير طاحنٍ ، برهةً أكثر كَرَماً من انتقالها ، بتاريخها الثابت على حَجَرٍ صوتيٍّ ، إلى اسطوانات لها سيادة الليزر ـ القلبِ الأخيرِ لآخر المُبتَكَرات . في ذلك الخلل المتصالح بين رتابة إرثٍ وبين براعات العصر ذي التقنيات المدهشة ، يتحرَّك الأولاد ، بهزِّ أكتافهم صعوداً وهبوطاً مقلِّدِيْن أبويهم ، على صوت الطبل المُمزِّق ، والمزمار العصبيِّ ، في دائرة الفراغ المسكون . أقدامهم تضرب الأرض ، من حين لآخر ، بلا تمهيد ، في استعراض لجسارة الثقل . رقصٌ لم يسترشد ، جيلاً بعد جيل ، إلاَّ باحتكاك الأكتاف بالأكتاف طلوعاً ونزولاً ، ارتفاعاً وانخفاضاً ، صعوداً

وهبوطاً . الراقصُ يُنهِكُ جارتَه الراقصة ، الملتصقة به كتفاً إلى كتف . الراقصة تُنهك جارها الراقصَ كتفاً إلى كتفها . اقتدارُ البراعةِ هو ما تستطيع به براعةٌ أن تُنهِك الأكتافَ ، بإشعال أكتاف للحرائق في مفاصل أكتافٍ أخرى ، وهي حرائق لايتوقف لهبها ، أحياناً ، أربعين يوماً بعد حفلة عُرس كردية . رقصٌ عِراكٌ بالأكتاف ؛ حربٌ بالأكتاف ؛ غزوٌ بالأكتاف ؛ تقويضٌ بالأكتاف ؛ إذلالٌ بالأكتاف يتباهى الشبَّانُ أنهم ألحقوه بأجساد فتياتٍ فأخضعوهن .

ينبغي على غنُّوج ، زوجة محمود جبري ، حتى لو كان غائباً ، أن تُدرِّب الأولادَ على الرقص نصف ساعة في المساء . سيخوضان بهم استعراضاً لم ينضج إلاَّ في خياليهما . وإلى أن تركل المشيئةُ باباً مَّا فتفتحه على ذلك الاستعراض المأمول ، يبقى محمود جبري أسيرَ ساعات المساء حتى الفجر ، في النادي الليلي ، طاهياً يُحضِّر للسكارى ، وأنصاف السكارى ، طَبقاً أوحَد من سَلَطة الملفوف ، وشريحة من أضلاع الخنزير ، وبطاطا مقلية : لا ذاكرة لذوق المتهمِّيْن ، طوالَ الليل ، أكبادَ العنب السوداء سائلةً نبيذاً ، ونخاعات الحبوب الشقراء ، والسوداء ، سائلةً جِعةً . لايتركون في صحونهم ، التي يقدمها لهم محمود جبري بنفسه ، ما يرميه في صندوق القمامة الأسود .

زوجة محمود ، غنوج ، لديها متسع أكبر من الوقت . هي حرَّة منذ الثالثة بعد منتصف النهار . تعمل مدبرةَ تنضيدٍ هندسيٍّ للخضار ، والفاكهة ، في متجر vi ، المختصر الاسم من اتفاق مَتَاجرٍ على الزواج بأمِّهم يُنجبونَها فروعاً لاتنتهي . غنوج تصحب الأولاد ، عائدة بهم من المدرسة إلى البيت ، في الرابعة . تطعمهم معجَّنات مسلوقة بصلصة البندورة ، وكرات اللحم الجاهزة في الأكياس ، أو تطعمهم أقراص همبرغر مجلدة

تغدو ملتهبة بعد أربع دقائق في المايكرووِيف ـ فاتيكانِ الوقت المُخْتَزَل ، لتكتمل لها سُلطةُ الطعام شهيًا بمجد الكاتشْ أب ، وحنانِ رقائق البطاطا الجاهزة ، المقلية .

حين تنتهي وجبة العشاء المبكّر ، وتُرَحَّل الصحونُ ، نصف مغسولة ، إلى الآلة القادرة بطبقاتها الحالمة على تنظيف أحزاب من الزجاج والخزف ، تفتح غنوجُ مُعسكر الرقص في صالة البيت ، بإبعاد الطاولة ، وبعض الكراسي ، إلى حيث لن تعيق نصفَ الحلقة الجليلة لأكتافٍ طريَّةٍ بَعْدُ ، تتساحق فتحمرُّ جلودها تحت القمصان القطنية .

بلغت شتولا الرابعة عشرة على الإيقاع ذاته لكتفيها صعوداً وهبوطاً ، حتى بات عضلُ عاتقيها نافراً كموز صغير ، ثم أبدت تمنُّعاً . صديقاتُها ، اللواتي استعرضن رقصها في زياراتهن لها ، أو زياراتها لهن ، اقترَحْنَ إضافات ، واقتباساتٍ من حركة الأجساد على إيقاعِ موسيقا جهاتٍ غير جهاتِ الطبل والزمر ، يجب فيه قليل من ضمٍّ الراقص للراقصةِ ، وقليل من ارتعاشات الأرداف ، وقليل من انفراج الأفخاذ ، وقليل من التَّسَاحق ، وقليل من الاحتضان ظَهْراً إلى بطنٍ ، وقليل من العناق القوي ، وقليل من التقوُّس ، وقليل من التصادم بطناً إلى بطن ، والكثير من الرغبة .

لن ترقص شتولا كتفاً إلى كتف أحد بعد الرابعة عشرة ، بل بطناً إلى بطن ، وظَهْراً إلى بطن ، وعناقاً حتى بلوغ النشوة من غير ولوج قضيب في فرْج .

الرقص هياجُ مهدِّىءٌ لصخب الجسد : شتولا سترقص .

لم يُبدِ محمود جبري أيَّ تأثُّر بعزوف شتولا عن الانضمام إلى نصف الحلقة الساهرة على إرث الكرديِّ ، كل تلك السنين . وهي حلقة ستتقوّض ، على أية حال ، بدخول أولاد محمود الذكور مع صديقاتهم إلى

البيت ، مُنْزَوِيْنَ في غرفهم . لكن غنوج أبدت عتباً كثيراً على شتولا ، حتى انفجر لسان شتولا لاذعاً :

- لست أمي ، نيكي أولادك برقصك ، واتركيني .

صُعقت غنوج . ارتعش لسانُها . اشتكت إلى محمود جبري : «أية كلمات هذه؟» ، فرد لامبالياً :

- هذه كلمات السويد .

كانت شتولا في السادسة حين بلغ مسمعَها صوتُ أبيها نائحاً : «يا الله . هذا ليس مُنْصِفاً» .

سمعت شتولا ذلك ظهيرةَ يوم عائدةً من بيت خالتها نوزو ، برفقة خالتها الصغرى صافيا ، الموعودة بحلواء من السَّميد في القَطْر . شُدِهَتْ وهي ترى أمها بَرْفو متدلية اللسان ، مفتوحة العينين ، خامدة ، في ركن من مطبخها . ظلت مصعوقةً ترتجف باختناق ، فيما تضمُّها خالتها بيد ، وتلمس وجهَ برفو ، بيد ، كأنما توقظها ، نائحةً بدورها :

- أنتِ تخيفيننا ياأختي المسكينة .

ولدت بَرْفُو ، أم شتولا ، خرساء . كبرت خرساء بشعر أشقر أقرب إلى البياض ، سريعةَ البديهة في التقاط حركات الجوارح ، وانقلابات الأسارير . تقذف من حنجرتها كلماتٍ لا تقرؤها الأسماعُ ، بل تفهمها الأعينُ . سريعة الحركة . قوية . قايضها أبوها حمدان بِدَيْنٍ لجبري في ذمته لم يستطَع تسديده ، أي عَرَضها زوجةً لمحمود جبري فقبل الأب . برفو اقتباسٌ بالكردية من اسم الثلج . برفو بيضاء على نحوٍ يُلزِمُ الثلجَ نَفْسَه باحترام ذلك . بياض ينتزع الحظوةَ حتى مع امرأة خرساء ، في أقاليم من الأرض تقطر نساؤها عسلاً أسمر من بشراتهن ، في الغالب ، وبعضهن يقطر عسلاً أسمر فاتحاً ، وبعضهن القليلُ يقطر عسلاً أبيضَ حليباً لا يقارن

ببياضه إلاّ السِّحر . هاته النساءُ لهنَّ حظوة المقايضات الكبيرة حتى لو كُنَّ خرساوات .

بشرةُ برفو الثلجُ كانت أكثر صخباً من لسانٍ ثرثار ، لذا لم يحسّ أحدٌ بخرَسها . رحمُها كانت ثرثارة بدورها ، إنما تتساقطُ منها الأجنَّةُ غير مكتملة ، بعد ولادة شتولا ، ميتةً ككلماتٍ مبهمة لم يُقدَّر لحركة يدٍ ، أو قسماتِ وجهٍ أن توضِّحها .

كبرت شتولا وحيدةً على صوتِ تعنيفٍ خافت من أبيها لأمها : «أية جرادة تخبئينها في رحمك ، يابرفو؟ أنت تكرهينني» ، يقول .

كبرت شتولا على طلبٍ مدوِّخ لأبيها ، مساءً بعد آخر ، على مائدة العشاء ، من أمها : «غنيٍّ لي» ، فتتوقّف الخرساء عن الأكل . تتنحنح ، أو تغسل حنجرتها برشفةٍ من الماء ، ثم تطلق عويلاً أعجمَ ، متكسراً في كلمات يتقوَّض نبرُها فوق لسانٍ لم يهيِّئه قَدَرُ اللحم على النطق بالكلمات . نغمٌ ما ، مختنقٌ في النَّفَس غير المروَّض على ترتيب أوزان الصوت ، يخرج مع لعاب برفو من بين شفتيها المخدوعتين ، فتصمُّ شتولا أذنيها بيديها .

في ظهيرة ذلك اليوم الذي عادت فيه مع خالتها الصغرى صافيا إلى البيت ، ورأت أمها صامتة ، مفتوحة الفم والعينين ، خلَتْ أنها سمعت ، منشدهةً ، كلماتٍ صِرْفةً ، غير ناقصة الحروف أو متقوِّضةً ، من شفتي أمها برفو :

- لاتقولي شيئاً ، يا ابنتي .

لماذا هذه الكلمات بعينها ، لاسواها؟ . لماذا هذه الكلمات ، التي ستنمو نِقْياً في عظام شتولا عمرَها كلَّه؟ .

«ياإلهي» ، تقول شتولا ، أحياناً ، لنفسها : «لماذا لم تقلْ أمي غنِّي

لأبيك ، وليدعْني أكمل عشائي؟» . لماذا لم تحجب كلماتُ خالتها صافيا كلَّ صوت آخر حين تكلمت نائحةً : «أأنتِ تخيفيننا ، ياأختي المسكينة؟» ، ثم أطلقت صرخةً حجرية :

- هل خنقتها ، يا محمود جبري؟ .

هوَّم محمود جبري ، ظهيرة ذلك اليوم ، أمام كلمات صافيا بيده كأنما يطرد الكلمات . تهدَّلت كتفاه ـ هو الرجل القصير ، البالغ التاسعة والعشرين من عمره . قرفص أمام برفو ، وغطى عينيها المفتوحتين براحة يده .

لم يحاول أحد أن يتحقق من حماقة السؤال على لسان صافيا ، خالة شتولا الصغرى . بياضٌ كذاك لايُخنَق . أُغمِضتْ عينا برفو ، ففتح قلبُها عينيه على ثرثراتٍ عن موتها ، تتنصَّت إليها برفو من المقبرة ، التي تكلم الأرواحَ ، من حولها ، عن موتٍ لا يُحْسِنُ ، أحياناً ، تصنيفَ خياراته .

في السنة الأولى من التحاقها بجامعة ستوكهولم ، فرع تقنيات الضرائب ، انتقلت شتولا للعيش مع صديقها السويدي ، الذي يكبرها بثماني سنين ، أوليفر لوندغرين ، الشهير بسيادته على سباق الدراجات الهوائية . باتت متخصِّصة في تصنيف الخُوَذ ، التي يعتمرها الدرَّاجون ، بحسب علامة كل إمبراطورية اجتاحت الكونَ الرياضيَّ على دائرة الفلك . خُوذٌ بألوانِ القِدَم ، ونقوش مُختزَلَة إلى القَدْر الذي لايَعْدلُ تصميمٌ تصميماً ، أو يطابقه ، أو يتجاسر على إزاحته . خوذٌ مراكزُ في الصميم المتعدِّد لهندسة الرسوم وفق خيارٍ محيِّر : إشاراتٌ طِلسماتٌ على الخُوذ بحروفٍ لاتنتمي إلى أبجدية . أجنحةُ طيورٍ مُخْتَبَرَةٌ ، بتسامح كبير ، على طيرانٍ ثابت في أثير اللدائن الصلبة . فهودٌ لا أبعادَ للأرض من حولها . خطوطٌ متوازية كمِحْنةٍ تغدو ، بكَرَم العادة ، رفاهةً من رفاهة العلامات .

خوذُ اجتاحت الخزائن في شقة شتولا وأوليفر ، حتى اليوم الذي عادت فيه إلى البيت لتجد خوذةً ، غاب عن شتولا تحديد علامتها الإمبراطورية ، جاثمةً كطائر البَفَن على قضيب صديقها وخصيتيه : كان عارياً ، متمدداً على الأريكة المُخَططة ، وكانت الصديقة القريبة منهما معاً ، ايمّا رُوبِن ، سيدة سباق الدراجات بين النساء ، تعابثه ، عاريةً بدورها ، فتغطي أسفل بطنه بخوذتها الحمراء ، النارية .

اعتدلت ايمّا جالسة ، ملتصقة الردف بفخذ أوليفر . أشارت بيدها إلى شتولا معتذرةً اعتذاراً باهتاً : «لاتغضبي» ، قالت ، ثم ابتسمت :

- انضمّي إلينا طالما أنت هنا ، الآن . أقسم ، ياشتولا ، كنتُ أهيِّىء أوليفر ليكون جاهزاً لك ، ولا شيء آخر غير هذا . تعالي .

مشت شتولا إلى المطبخ متجاهلةً مارأته . أخرجت من البراد ست عُلب من الجعة عيار ٦,٥٪ كحولاً ، محزوقة بأشرطة من البلاستيك ، وجلست على كرسي تحتسي جعتها في هدوءٍ طاهر .

حصل ذلك في السنة الثانية من اشتراك شتولا ، وأوليفر ، في بناءِ لوازمَ هوائية للحياة كشريكين . وحصل ، أيضاً ، بعد أحد عشر يوماً من اعتذارات أوليفر المُملَّة ، عقب دخول شتولا عليه عارياً مع ايمّا ، أن عاد أوليفر إلى الشقة ليجد شتولا عارية فوق جسد ممدَّد على الأريكة ، مسترسلةً في شهقات ورطانات بالكردية لم يفهمها ، لكنها شقَّقت طبقةَ الطلاء المُتْقَنة على الخوذة ، التي يحملها في يده ، إذْ كان عائداً من رياضته اليومية درَّاجاً له خيالُ درَّاجة .

سَرْوَارْ شُوْلَيْك ، الذي فجَّر شهقات شتولا على الأريكة المُخطَّطة الصفراء ، في شقة أوليفر ، تزوج الفتاةَ الجامعية زواجاً تمَّ تسجيله بقيدٍ اجتماعي ، وعُرس جمع له الشاب ذو الثلاثين عاماً ، قطارَيْنِ من أكراد

تركيا القاطنين ضواحي ستوكهولم ، بجاذبية أبيه ، الذي يملك فرعين من متاجر vi في منطقة أوبسالا ، وفرعاً للبريد في مدينة ساندسفال الشمالية ، منذ باعت مؤسسةُ البريد السويديِّ فروعَها لمن يريد إدارتها .

زواج لم يَدُمْ حتى السنة الرابعة والعشرين من عمر شتولا ، بالرغم من رفاهة المنزل القائم بذاته طبقتين ، متصلاً ببيوت تجاوره على جانبيه ، وبالرغم من سيارة أَوْدي أنستْ شتولا القطارَ سنتين : «لستُ مهيَّأة ، بعد ، لأكون أُمّاً» ، كانت تردِّد على مسمع سروار ، الذي يردد على مسمعها : «أنا مهيَّأٌ لأكون أباً» ، يقولها بلسانه ، وبلسان أمه ، وأبيه ، وأقربائه ، وأصدقائه ، ومعارفه الأبعديْنَ في قرى جبال هَكَّاري ، شرق تركيا . كان هاتفه المحمول ، الملتهب كفوَّهة بركان في أرخبيلات آسيا ، يجمِّد قدرة يقينها ، يوماً بعد يوم ، في البقاء قريبةً من صوت لاينقطع ، من صالة البيت ، إلى طبقته العليا ، إلى غرفة النوم ، فالحمَّام ، فالمطبخ ، فالسيارة ، فالمسافة من البيت إلى موقف السيارة ، فالنوم ، فالحلم ، فالنهوض صباحاً ، فالشهقات في مضاجعة على عَجَل كي يعود سروار إلى أُمِّه الصوتِ في هاتفه .

غادرت شتولا مملكة الصوت . رمت هاتف سروار من النافذة فدلق على رأسها صحن المعكرونة بالصَّلصة الحمراء .

أنجزتِ الحقائبُ بقيةَ الحكاية : امتلأتْ ثياباً ، ومقتنياتٍ ، إلاَّ الصورَ المشتركة ، الجامعة لشخصَيْ شتولا ، وسروار : مزَّقت شتولا حصَّتها ، وتركت المِزَقَ في كيس يتولى سروار نقله إلى قمامة الورق . قصدت ، من فورها ، بالحقائب إلى شقة صديقتها تَنْدْرا بِيْتر شريكةً في دفع أجرة الشقة مناصفةً .

شتولا عرفت تَندرا في السنة الأولى من دراستها في الجامعة .

أحبتها . أحبَّت تلك الرِّقة الهادئة في أصابعها الخجولة . بَيْدَ أن تندرا غادرت الجامعة في السنة الثانية ، لتعمل موزِّعة بريد في منطقة فلامِنْغزْبيري ، على دراجة أحياناً ، أو في سيارة صغيرة الهيكل ، صفراء ، تتسع لشخص واحد ، ولِرَزم صحف وإعلانات ، ورسائل رقيقة الأغلفة ، وخشنة الأغلفة ، وعُلَبٍ ورقٍ تنبح شوقاً .

شتولا هجرت الجامعة ، أيضاً ، حين تزوجت سروار شوليك ، لتعمل معه في محل الفيديو ، الذي يملكه ، في منطقة سُولْنا ، على مقربة من محل لبيع أوراق المراهنات على سباق الخيل ، وأوراق الحظ lotto ، يملكه ابن خالته نذير تالي . لسنة ، تقريباً ، كانت شتولا تقضي ساعة واحدة ، بين التاسعة والعاشرة صباحاً ، تساعد نذيراً ، المزدحم المحلٌّ بالزبائن ، محاسِبةً على صندوق من صندوقيٌّ البيع ، وهي الساعة التي تسبق موعد فتح محلِّ الفيديو بابه ، في العاشرة ، بحسب القانون . أبدت شتولا لنذير رغبتَها ، بعد طلاقها مِن سروار ، في العمل معه ، موظَّفةً تبيع البطاقات بعد تسجيل أرقامها . رحَّب نذير : «لاتزالين في عيني فرداً من العائلة ، ياشتولا» .

كانت شتولا تستطيع التلويح لزوجها السابق ، من باب المحل ، إذا رأته داخلاً حانوتَ الفيديو ، أو خارجاً منه . وكانا يتبادلان أحاديث قصيرة أيضاً ، بأعين تتجنَّب التحديق أحدهما إلى الآخر . وقد تسنى لها ، بعد ذلك بعامين ، أن تداعب ابنة سروار الطفلة وهو يحملها بين ذراعيه إلى حانوت تأجير الأفلام اسطوانات مضغوطةً ، في وقت بات يبشِّر بنهاية أشرطة VHS الثقيلة . «كان ممكناً أن تكون هذه الطفلة ابنتي» ، قالت لصديقتها درخو إذ رأتها تداعبُ الطفلة ، مرَّةً ، وهي قادمة إلى محل صناعة الحظوظ بآلات الأرقام .

في الشهر الأول من عملها عند نذير تالي ، تعرفت شتولا إلى درخو - سيدة أشعار الفجر . كانت تأتي في الحادية عشرة عموماً ، حاملة شريحتي خبز مضغوطتين على خضار ورقائق من لحم العِجْل ، لتجلس إلى طاولة صغيرة في محل بيع الخطوط الكبيرة أرقاماً على أوراق ، ثم تنهمك في استنطاق المجهول ، واستدراجه بقُبَلٍ من فم قلبها . آخرون غيرها يجلسون قربها ، من حول الطاولة الصغيرة تلك ، أو يبقون واقفين من حول منصَّة دائرية ، عالية ، لامقاعد تحفُّ بها ، مُنْصتيْنَ بعقول تعَبهم إلى الممكن المتلكِّىء في اجتراح المعجزة : «كنْ ثريًا . عشْ ثريًا . مُتْ ثريًا . فكِّر بالجحيم ثريًا . فكِّرْ بالفردوس ثريًا . فكِّرْ بالعَدَم ، الذي لا قيامةَ فيه من فَقْرِ الموت ، ثريًا» . هكذا يتفكَّرون . هكذا تتفكَّر درخو وهي تقضم شريحتيِّ الخبز ، في زياراتها ثلاث مرات ، كل أسبوع ، إلى محل بيع الخطوط ، متبادلةً معاتباتٍ للأقدار مع شتولا ، مذْ عرفت درخو أن الشابة القائمة بمهامِّ المال ، على أَحد الصندوقين ، كردية قطعاً ، من الكلمة السويدية الأولى ، المُخْتَزَلة إلى عنايةٍ مفرطةِ الرتابة بالآخر : «هِيْ» .

سألتها شتولا عن أساور الخرز من أين تأتي بها المرأة القصيرة الممتلئة : «أحب الخرز . لا أحب المعادن» ، قالت لدرخو .

نظرت درخو بعينيها الشهلاوين ، اللتين تبدو اليمنى منهما نصف مغمضة ، إلى عيني شتولا الواسعتين ، تستجلي رقمَ الحظِّ موزَّعاً في عمقيهما البنيِّ الغامق . نزعت سواراً من معصمها وقدَّمته للشابة ، ذات الأربعة والعشرين عاماً :

- سأعضُّ يدي إن لم تأخذيه .

أخذت شتولا السوار الفيروز ، ذا الرباط الفضيِّ ، من درخو ، بشكرٍ أخرس .

«لاتقولي شيئاً» ، قالت درخو . «سرقتُ هذه الأساور من الله» .

«لن أقول شيئاً» ، تمتمت شتولا .

«أتتكلمين العربية؟» ، سألتها درخو .

«لا» ، ردت شتولا . أضافت : «غادرنا مدينة قامشلو وأنا في الثامنة . نسيت البعضَ ، الذي عرفتُه من اللغة العربية» .

«من قامشلو ، إذاً؟» ، سألتها درخو . استدركتْ : «أظنكِ أخبرتِني بذلك قبلاً . لقد أنهيت مرحلة الدراسة الثانوية في قامشلو . أنا من قرية عاكولة ، على الطريق بين قامشلو والحسكة . جئت السويد منذ إحدى وثلاثين سنة . لكنني لم أنسَ اللغة العربية» . تأملت درخو الشابَّةَ : «لغتك الكردية الكرمانجية جيدة . ماذا عن لغتك السويدية؟» .

«أفضَلُ من الكردية . جئت السويد وأنا في الثامنة ، كما أخبرتك» ، قالت شتولا .

«مارأيك ببعض ساعات من الترجمة في دائرة الهجرة من الكردية إلى السويدية؟» ، سألتها درخو .

«عرْضُك مشوِّق ، يادرخو . لكن لاوقت لدي . ترينَ . أعمل هنا حتى الثالثة بعد الظهر» ، قالت شتولا .

«مامن مقابلة بين طالبي الهجرة والمحقِّقين تستغرق اكثر من ساعتين . سأُعْلِمُك ، مُسْبقاً ، بمواعيد أوقات الترجمة لتتدبَّري تبريراً للغياب عن العملِ . مرة في الأسبوع . ربما أكثر قليلاً . يدفعون على ساعة ما تتقاضَيْنَه نصفَ أسبوع من العمل . سأقدِّمك بنَفْسي إلى قسم الترجمة في دائرة الهجرة . المبنى قريب جداً من هنا» ، ابتسمت . «تعرفينَه» ، قالت درخو .

عَرْضٌ مُغْرٍ . فكَّرت شتولا . ثم تراخى الإغراء :

- لا أعرفُ إن كنت أستطيع ذلك ، يادرخو . صاحب المحل ، هنا ، ابن

خالة زوجي السابق. منحني فرصةَ العمل بترحيبٍ. أخاف أن أبدو كمن يخذل مَنْ لا ينبغي أن نخذله.

«صارحيْه»، قالت درخو. «صارحيْه بحاجتك إلى دَخْلٍ إضافي».

«ماشأنه بحاجاتي الإضافية، يادرخو؟ . الإضافياتُ لا تنتهي. سأُحرجه. سأُحرجُ نَفْسي»، قالت شتولا. لكن شتولا صارحت نذير تالي: «ساعتان، لا أكثر، يانذير. سأعْلمُك بموعدهما قبل يومين لتتحوَّط للأمر»، قالت، فرد الرجل الكثيف الشعر، المنتصب قاسياً قصيراً:

– كنتِ زوجة ابن خالي وستظلين كذلك في عيني، ياشتولا. اكْسبي دخلاً إضافياً نتقاسمه.

ضحكت شتولا من دعابته. ضحك هو. أَمَرَها:

– أقيمي، في خمس سنين لا أكثر، مستعمرةً كرديةً، هنا.

كانت درخو دليلَ شتولا إلى أمسيات السبت عند صديقاتها الثماني، اللواتي عَقَدَتْ بينهنَّ ممرَّاتُ غُرَف المحقِّقيْنَ مع طالبي الهجرة هوى الثرثرات النبيلة، نهايةَ كل أسبوع، عند إحداهن، عن خزائن الترجمة - خزائن أمل المهاجرين بنصيبٍ في تَعَبٍ أكثر رقَّةً. خزائنُ تنفجر، في الثرثرات النبيلة، بمكنونها في كل اتجاه: فَحْماً، وأحذيةً، وعلبَ جعة، ونبيذاً، ولِفافاتِ تبغ، وأساطيرَ عن أَسِرَّةٍ مفقودة سقط على وسائدها، من جيوب درخو وصديقاتها، آخرُ نَفَسٍ عرفْنَه من أنفاس الذَّكَر.

«سأتزوج»، قالت شتولا، في الشهر الرابع من علاقتها بدرخو وصديقاتها الثماني - مدوِّخاتِ الفروْج بغزوٍ من ألسنتهن لا يصمد له سورٌ في جسد، أو سورٌ في روح.

«ستتزوجين؟»، هتفت درخو متعجبة، متفاجئة، ومتحسرة أيضاً:

«سنخسرك» ، قالت . ثم خفَّفت الأمرَ مستسلمةً للواقعيِّ المُنْصِف : «أنتِ شابة . لا ينبغي لي أن أنسى ذلك . مَنْ السعيدُ ابن الأير السعيد؟» ، هتفت ، فضربتها شتولا بخَفَرٍ على ردفها :

– أرمنيٌّ .

«أرمني؟ تعنين؟ ماذا تعنين؟ أرمني من أرمينيا؟» ، ساءلتها درخو بعينين صارختَيِّ الفضول ، فردت شتولا :

– أرمني من لبنان .

«من أين تدحرج إليك أرمني؟ من جبال أرارات؟ . لاتقولي إنك ستجرِّبين قضيباً بقناع من جلد؟» ، ساءلتها درخو ، فردت شتولا .

– سأجرِّبه .

تزوجت شتولا من أَرتيْن قُوْمجيان الأصلع ، من أمام ، حتى منتصف رأسه ، القويِّ البنية ، ذي البشرة البيضاء ، التي تتشرَّب زُرقةً في موضع لحيته الحليقة ، الموظفِ في كشك بيع بطاقات ركوب القطار في محطة سُوْدِرْمالمْ . حملت حقائبها من شقة صديقتها تندرا الحزينة إلى شقة أرتين الصغيرة ، في منطقة هورْن شْتول . حبلت بجنينٍ من مَنيِّهِ .

– ماذا سنسمِّي ابننا ، ياشتولا؟ .

– ماذا لو أنَّ الجنين بنتٌ ، يا أرتين؟ .

– نسميها أراكْسْ ، أو يريفان ، ياشتولا .

– أراكس؟ يريفان؟ .

– اسمان عريقان في بلدي ، ياشتولا .

– بل نسميها مادلين ، أو لونا ، أو أُوْلريكا ، أو يوانا ، أو سابريْن ، أو ماغدلينا ، أو آن ـ شالُّوتا ، يا أرتين .

– هذه أسماء سويدية .

- نعم . ليست أرمنية ، وليست كردية ، يا أرتين .
- لا أقبل ، ياشتولا .
- ماالذي لاتقْبَله؟ .
- أريد اسماً أرمنيًا .
- وأنا أريد اسماً كرديًا ، إذاً ، يا أرتين .

اتَّفقا ، بلغتهما المشتركة السويدية ، أن يسميا الجنينَ تُوْشْتِيشَا : اسمٌ صوتٌ لامعنى له ، لا أصلَ إلاَّ رحابة حروفه المتتالية كانهيار ثلجيٍّ .

في الشهر الرابع من الحَبَل طلَّقت شتولا زوجها أرتين . حملت حقائبها عائدةً إلى شقة صديقتها تندرا ، ذات القَسَمات المندهشة من كل شيء :

شقة في الطبقة الثانية من عمارة بأربع طبقات : غرفة نوم كبيرة بسريرين ، وخزانة في باطن الجدار . حمَّام صغير يسمح ، قياماً ، بإثارة غضب الماء في الرَّشَاش القوي . مطبخ صغير بطاولة عتيقة من سوق الأثاث المُسْتَعمل ، وكرسيَّين مستقيمَيِّ الظهرين على نحوٍ عموديٍّ صارم . وللشقة صالة مستطيلة ، لا تسمح باستدارات في المشي ، بل بالحركة باستقامة من جهة إلى جهة ؛ فيها أريكتان خشبيتان موضوعتان عَرْضاً وطولاً ، بمساند محشوة قطناً ، ووسائد للظهر هندية الطراز ، مزركشة برقائقَ مرايا مدفونة في شبكة من الخيوط كعيونٍ . تتمدَّد أمام الأريكتين طاولة مستطيلة بدورها ، ضيقة العرض ، خضراء الدهان ، لا يَستر غطاؤها البيروفيُّ الصناعة زواياها المتقشِّرةَ . وفي أرجاء الصالة ستُّ حشايا بأغلفة جلدٍ ، على الأرض ، لجلوس لا يناسب ، في الأرجح ، نساءً يرتدين تنانيرَ لا بناطيل تحتها .

مذ عادت شتولا إلى شقة تندرا عادت ، أيضاً ، إلى أُمسيات السبت

عند صديقات درخو، ببطن تتنصَّت آذانهنَّ إلى تكويرِه المعجزة: «إنه ذَكر»، تقول تاسو.

«كيف عرفت، ياتاسو؟»، تسألها زنتانا.

«وضعت أذني على بطن شتولا فسمعتُ صوتَ لعبة فيديو»، ترد تاسو. تمسك بيد زنتانا: «تعالي. ضعي يدك على بطن شتولا». تنظر إلى شتولا متوسِّلة:

- اكشفي عن بطنك، ياعصفورة السويد.

تكشف شتولا عن بطنها برفع قميصها من تحت نطاق بنطال الحَمْل الواسع، ذي الحِمَالتين. «ماذا تحسِّين؟»، تسأل تاسو صديقتها، وهي تضغط بيدها على يد زنتانا فوق بطن شتولا.

«أُحس نَقْراً. صوصٌ يفقس البيضة»، تقول زنتانا، فترد تاسو:

- لا. إنه رأس قضيبه.

حين وضعت شتولا حمْلَها، من غير استباق إلى معرفة جنس المولود، وضعت المصادفةُ بين يديها إسمَ المتَّفَق عليه: توشتيشا: طفلة أنثى، حمراء الجلد، حمراء الصراخ، في حضور أم أرتين وأُختيه، وغياب عائلة محمود جبري بكاملها.

بعد ثلاثة أشهر من ولادة توشتيشا وضعت شتولا الطفلةَ الرضيع بين يدي أمِّ أرتين، التي لاتعرف لغة غير الأرمنيَّة. «قلْ لها، أرتين، أنني لاأستطيع أن أكون أُمًّا. سأقوم بكل ما ينبغي عليَّ إلاَّ أن أكون أمًّا».

لقد شرحت شتولا الأمرَ لصديقاتها ـ صديقات درخو، على نحو مُبَسَّط، بمقدمة لا تعقيد فيها:

- لا أعرف كيف لم تتوقفْنَ عن إنجاب أطفال آخرين بعد التجربة الجهنمية للإنجاب الأول؟. أنا، كلما زرت حماتي ـ أم أرتين، ووجدت

ابنتي تبكي من غير أن نعرف سبباً لبكائها ، أتمزّق ألماً إلى درجة أستطيع فيها قَتْلَ شخص ، وقتْلَ نفسي ، بعده .

«اقتلي نَفْسَك أولاً . لن تحتاجي إلى قتل شخص آخر» ، قالت زليخا .

«قتْلُ شخص آخر ، قبل الانتحار ، يجعل العودة عن الانتحار مستحيلة ، ويجعل التردُّد في الإنتحار مستحيلاً . كل الذين سمعتم أنهم قتلوا أصدقاء لهم ، أو قتلوا أفراد عائلاتهم عن بِكْرتهم ، أو دخلوا مدرسةً يطلقون النارَ عشواءَ على من صادفوهم في الممرَّات ، أو خرجوا إلى الشارع بسواطيرَ يمزِّقون بها حناجرَ العابرين ، ثم انتحروا ، إنما سدُّوا على أنفسهم طريقَ العودة عن الانتحار . كلما قتل شخص مَّا آخرين أبرياء ، بسبب غضبهِ من نفسه ، بات الانتحار أيسرَ ، مُحتَّماً» ، قالت شتولا ، ثم التفتت إلى زليخا محدِّقةً إليها :

- ستنتحرين بسهولة ، وبيُسر ، إذا قتلتِني أولاً .

«فْلأُجرِّبْ» ، ردت زليخا وهي تنظر إلى عيني شتولا نظرةً تُقْسِم شتولا لنفسها أن المرأة الحمراء الشعر ، الممسوحة الردفين ، عَنَتْ ما قالته . منذ تلك المحاورة المُقْتَضبة تلعثمت العلاقةُ بين المرأتين في توضيح مقاصدها : ظلَّت علاقةً متوفِّزة ، على أُهْبةِ أن ينقضَّ قلبٌ على قلبٍ ببراثنه .

في المساء ، الذي جمع الصديقات التسع عند راوت ، متبارياتٍ في وصف ردفَيْ شتولا القويين على سريرٍ تخيَّلْنهُ يتمزق لوعة من صراخها ، ظلَّ قلبُ زليخا على أهبته : «فلنهاتفْها» .

«هاتِفيْ الشهيدَ كريم جَنْدل» ، قالت تاسو . شاب في الثانية والثلاثين مات بسكتة قلبية فوق صدر زليخا ، لحظة شهيقه نشوةً ، قبل عامين ، في

سرير لم تتخيل صديقاتُها ، إذْ رَوَت لهنَّ الحكاية ، أنه كان يتمزق لوعة من صراخ ردفيها الممسوحين .

«سأهاتفه» ، ردت زليخا متحدِّيةً ، وأشارت بإصبعها إلى الغَبَب المنتفخ شحماً تحت حَنَك تاسو :

– ماذا تأكلين؟ . الشحم يرفرفُ . .

«لاتُذَكِّريني ، أو أكلتك أنتِ ، يازليخا» ، قالت تاسو ، مستفظعةً إشارة المرأة ذات العِطْر الصاخب .

«ماذا تأكلين ، ياتاسو؟» ، ساءلتها راوت بصوت فيه نبرةُ حرْصٍ على صديقتها ، بلا استفزاز .

«آكل ، في الصباح الباكر ، طُرُقاً بكل مافيها من إشارات المرور . وآكل على الغداء سبع مقطورات من قطار ستوكهولم سنتر ، بما فيها من بَشَرٍ بيْضٍ ، وسودٍ ، وصُفْر ، وسُمْر ، وزُرْق . وآكل ، عشاءً ، حديقة Kungstragarden كاملةً ، بمقاعدها ، والأرصفة البحرية القريبة منها» ، ردت تاسو .

سعلت درخو : «أنا أشرب عني وعن شتولا» ، قالت . استدارت إلى تاسو الجالسة إلى يسارها :

– لماذا لا تتطوَّرين قليلاً ، يا أمَّ البرغل؟ . انظري من حولك إلى علامات القيامة الصغرى : كلابٌ نباتيَّة ، تأكل البطيخ الأحمر ، والفريز ، والكيوي . قطط نباتية تأكل الكُرَّاث ، والحَبَق المُجلَّد مكعَّباتٍ . دجاج يتغذى بشحم الخنزير مفتَّتاً كُراتٍ صغيرةً كحبوب الذُّرة ، ولها نكهة الذرة . عصافير تأكل جلودَ دجاجٍ مجفَّفة ، مطحونة ، معجونة بزيت دَوَّار الشمس . بَشرٌ يأكلون أحذية مُدخَّنة باحتراق كيزان الصنوبر الطرية . لم يعُد العالم ، ياتاسو ، عالم برغل بالزبدة ، وكُبة محشوة بالشحم ، وبقلاوى

تركية تشترينها من منطقة فِتْيا . انبحي قليلاً ككلبة . موئي كهرَّة . كُلي لحماً نباتاً ، وبقلاوى نباتاً . كوني طاحونة ماء . إشربي ماءً نيئاً ، مسلوقاً ، مشوياً ، مقلياً .

«ياالله ، يادرخو ، توقَّفي» ، قالت تاسو . جسَّت فخذ صديقتها الممتلئة :

– ماذا تأكلين ، أنتِ؟ .

«آكلُ فرْجي» ، ردت درخو .

«يلزم تاسو أن تصوم» ، قالت ريحاني البدينة القوية القوام . «متى شهر رمضان؟» ، تساءلت .

«شهر الاحتيال على الله . شهر الاحتيال على الطعام باسم الله . منذ الإفطار ، في المغيب ، وحتى الفجر ، تذبح الصحونُ أخواتها الصحونَ بالأطايب» ، قالت سلام . «أعرف لماذا يقولون إن الشيطان يهرب بعائلته كلها من شهر رمضان . لو بقي لغرق هو ، وأبناؤه ، وزوجاته ، وبناته ، في سيل من القَطْر . سيتفتَّت من تجشُّؤِ المُتخميْنَ لحماً وشحماً وزبدةً وقشدة ، مضافٌ إليها آخر اكتشافات ساعاتِ السحور : الآيس كرْيم» .

«هل تخفِّف المضاجعاتُ من الوزن ، حقًا؟» ، تساءلت شيراز .

«قشدةُ الرجل أكثرَ دَسَماً من قشدة اللبن» ، قالت درخو .

«قشدة الرجل؟» ، تساءلت سلام .

هزت درخو رأسَها أسفاً :

– نسيتُنَّ الرجلَ ، يامراهقات . الرجل ليس كائناً إلاَّ بقشدته . كلُّ شيء آخر فيه ورقُ سِلْقٍ مطبوخٌ بلا ملح .

«لا أريد خضاراً إلى جوار اللحم ، في صحني ، بعد اليوم . لن أطلب إلاَّ اللحم ، في أي مطعم أدخله ، وأنبههم إلى عدم وضع أي خضار في

صحني . هؤلاء النباتيون جاءونا بدِيْنٍ جديد آياتُه هي الهزالُ ، ورائحةُ الصِّنَّة ، والنظاراتُ الطبية ، والإرهاقُ الواضح ، وطقطقة المفاصل ، والهلع . النباتيون مذعورون ، بالرغم من هدوئهم المفرط» ، قالت تاسو .

«لك عقلٌ يقفز ، بلا موجب ، من فوق إشارات المرور ، لا من تحتها ، ياتاسو . عمَّ نتحدث هنا؟» ، سألتها راوت .

«عن أي شيء . عن كل شيء . فوق إشارات المرور ، وتحتها . ينبغي أن نتحدث ، ياراوت . ماذا سيجري للعالم لو صمتْنا؟» ، قالت تاسو .

اشتعلت لفافات التبغ عنيفةً في دخانها . بعضهن بدأ التدخين مع الانتهاء من الأكل ، وبعضهن توقف عن الأكل وقد أغواهنَّ تدخينُ الأخريات ، فدخَّنَّ أيضاً .

«قريباً أهاجر» ، قالت راوت . قطَّع صوتُها الدخانَ عن استرساله في حلم يقظته : عاد إلى واقعه في الأفواه دخاناً بدَّدته الأيدي ليتسنَّى للنساء النظر بتفحُّصٍ إلى صديقتهن .

«إلى الشمال؟» ، سألتها سلام ، فردت راوت :

- أخبرتكنَّ قَبْلاً . نعم . الشمال .

«ستهرب من زوجها السابق . من أولادها ، الذين يشبهون أبوهم بأنوفهم ، وبكلماتهم الكردية» ، قالت ريحاني استباقاً لعودة راوت إلى سرد أسباب التفكير في الهرب إلى أبعد من شمال .

«استدعتني دائرة الهجرة ، البارحة ، لا لأترجم لطالب هجرة ، بل للتحقيق في مزاعم شخص سودانيٍّ ادَّعى أنه لم يَقُل حرفاً مِمّا ترجمت من أقواله للمحقِّق» ، قالت راوت .

«هذا يحدث أحياناً» ، قالت زليخا مخفِّفة قليلاً عن صديقتها ، فردت راوت :

- متى حدث مثل هذا؟ .

بدت صديقاتُها غير واثقات من حدوث مثل ذلك الاستدعاء بسبب تراجع طالب الهجرة عن أقواله .

«ثم ماذا؟» ، سألتها درخو .

«قلتُ فليأْتِ بأمِّه ، إذا عاد طالباً اللجوءَ لمرة ثانية ، كي تترجم له» ، ردت راوت .

«أهذا جواب جيد ، ياراوت؟» ، سألتها درخو .

«جيد؟ أيهمني إن كان جوابي جيداً؟ سأهاجر ، يادرخو» ، ردت راوت . صرخت : «سأهاجر» . نهضت عن كرسيها راقصةً : «صفِّقْنَ لي» .

قُرِعَ البابُ قرْعاً ذا إيقاع ، باليد ، كإشارة متعارف عليها .

«أهذا زائر خاص؟» ، سألت تاسو صديقتها راوت ، متصنِّعةً ارتياباً ، فردت راوت وهي مسترسلة في لَيٍّ خصرها بلا إيقاع :

- لا زائرَ خاصاً . لا زائرَ عاماً . قد يكون زائراً على موعد معك .

استدارت متجهة إلى الباب . فتحته . أطلقت من فمها زفيراً يكفي للإطاحة بقدح مليء بالنبيذ :

- ماذا جاء بك ، ياجَنَابَ خَلُّو؟ .

«قولي : مرحباً ، ياراوت» ، قال الرجل الكبير الأنف ذو البِزَّة الأنيقة الزرقاء . دخل بلا استئذان ، أو تمهيد . تقدَّم صوب الصالة هاشّاً ، وهو يمسِّد على ربطة عنقه الزرقاء المرقشة بدوائر صُفْرٍ ، من أعلى إلى أسفل . هتفت به راوت :

- لم تخلع حذاءك .

«أوه» ، تمتم جناب . عاد إلى مدخل البيت . خلع حذاءه الأسود فوق بساط رماديٍّ سميك : «الدخول بلا حذاءٍ لائق ببِزَّة ، هو كالدخول بلا

بنطال» ، قال . «في دمشق ، نفسها ، لم نكن نخلع أحذيتنا داخل البيوت» .

«بل كنا نخلعها ، في كل بيت بسوريا ، من القرى حتى المدن» ، قالت ريحاني .

«أوه» ، تمتم جناب . «بدأت أكتشف أن لقُرانا الكردية ، منذ القديم ، تأثيراً على العادات في السويد» .

«ماذا جاء بك؟» ، سألته راوت من جديد ، وهي تتبعه إلى الطاولة ، التي توجه إليها ، ناظراً من وراء بعض الأكتاف إلى الصحون .

«شممت ، وأنا في القطار ، رائحةَ ورق عنب محشوٍّ . أنتِ قَدَرُ ورق العنب ، ياراوت» . قال جناب خلُّو ، الذي ردَّ طبقة من الشعر الرماد ، من جهة أذنه اليمنى إلى جهة أذنه اليسرى ، فغطى بعضَ صلعته . استدار إلى راوت : «أما من بقايا لي؟» ، ساءلها ، ثم مرَّر يدَه على أكتاف صفٍّ من النساء ، من وراء ظهورهن ، واحدةً واحدة ، وهنَّ يبتعدن عن لمسته بانحناءٍ إلى أمام ، ويتجنَّبن النظر إليه . حيَّا النساء مبتسماً : «الدنيا في خير . الدنيا على مايرام» ، مجيباً عن أسئلة لم يطرحها عليه أحد . أخرج علبةَ لفافات التبغ من جيب سترته اليسرى . وضع لفافة في فمه .

«ماذا تفعل؟» ، ساءلته راوت .

«ماذا أفعل؟» ، ردَّ جناب مستغرباً ، في وقفته .

«لا تدخين داخل البيت» ، قالت راوت . «أخرجْ من الشقة . دخِّنْ ، وعُدْ» . لوَّحت بيدها عكس كلمتها الأخيرة ، كأنما تقول : لا تعُدْ .

نظر جناب إلى درخو ، التي لم تزل لفافة التبغ متأججة بين شفتيها . تفهَّمت درخو الموقف . أطفأت اللفافةَ في صحن الطعام أمامها .

«أترى ياجناب؟ لا تدخين داخل البيت» ، قالت راوت بصلافة .

«أووه» ، تمتم جناب ، رافعاً حاجبيه ، مستسلماً لحصار راوت . أعادَ لفافة التبغ إلى عُلبتها . فتح ذراعيه : «لا تدخين . حسناً . ألا مِن بقايا ورق عنب ، ياراوت؟» . جلس على كرسيها .

«سأنقل صحونكن» ، قالت راوت لصديقاتها ، فنهضن كلُّهن ، تحمل الواحدة منهنَّ صحنها إلى مغسلة المطبخ : «سنساعدك» ، قُلْنَ .

ذهبت الصحون ، برمَّتها ، إلى مغسلة المطبخ ، متراكمةً في حفرتها المعدنية . عادت النساء إلى الصالة بأقداح جديدة ملآى نبيذاً ، وبعُلبِ جِعة ، وبفنجان ضخم من القهوة ، أيضاً ، في يد شيراز .

تلفَّت جناب من حوله بخيبة : «لا ورق عنب» ، تمتم . نهض عن الكرسي متجهاً إلى الردهة : «سأزور الصَّبيتيْن» ، قال . «هاتفني مَدَد ، منذ قليل . إنه يلهو» .

«ريبانه ، وروهلات مشغولتان ، ياجناب» ، قالت راوت .

«هما ابنتاي ، ياراوت . لن آخذ إلاَّ القليل من وقتيهما» ، ردَّ جناب .

«ليستا على موعد معك ، اليوم» ، قالت راوت بتصميمٍ قاطعٍ في كلماتها .

جَمَد جناب ، زوج راوت السابق ، في وقفته ، قليلاً . تردَّد أيمضي إلى غرفة ابنتيه أمْ يرجع . أخرجتْه زليخا من حيرة جموده :

– أراكَ زادَ وزنُك عن آخر مرة رأيتك فيها ، ياجناب .

تفقّدَ جناب بطنه بيديه ، مستغرباً :

– فقدت أربعة كيلوغرامات . بل فقدت أربعةً ونصفاً . أنا رشيق مثل رغيف باغيْتْ .

تلفَّت من حوله مستنجداً : «هل من علبة جعة لي؟» .

نظرت النساء ، جميعاً ، إلى راوت .

جلست راوت على كرسيها ، الذي كان جناب يقتعِدُه منذ برهة . لم تُعلِّق .

توجه جناب ، باستدارة هادئة ، صوب المطبخ :

- سأخدم نَفْسي .

أوقفتْه راوت :

- ماذا تفعل هنا؟ . هذا ليس بيتك لتدخل حين تشاء ، وتتجوَّل فيه حيث تشاء .

تصنَّع جناب ضحكاً يُخفِّف به ارتباكَه من صرامة راوت . مسَّد بيده على ربطة عنقه من أعلى إلى أسفل ، ثم أبقى يده على بطنه . تكلَّم متظاهراً بالحسرة :

- لا ورق عنب ، يا أحشائي . لا ورق عنب .

نهضت راوت عن كرسيها : «أتريد عشاءً؟ . اجلسْ» ، قالت مشيرةً إلى الكرسي ، الذي نهضت عنه . «اجلسْ» . استدارت صوب المطبخ . أطلقت زفيراً طويلاً . أطلق شعرُها المتوهِّج ذهباً زفيرَه الذهبيَّ .

رفعت راوت طنجرة الكوسا المحشوة ، المطبوخة بمَرَقِ اللبن ، عن سطح الفرن الكهربيِّ . كانت الطنجرة لاتزال ملآى بثلثها من حبَّات الكوسا التركية ، الصغيرة ، الأنيقة ، منضَّدةً ـ بَعْدُ ـ طبقتيْنِ في مَرَقها الأبيض المنكَّه بالثوم ، وبالنعناع اليابس . وضعت الطنجرةَ تحت حنفيةِ الماء ، الذي انهمر ، في صخب ، على محتواها ، فتمزَّقَ قِشْر الكوسا الرقيق ، المفرَّغة بالمِنْقَر الحديد بإتقان ، وتخالطَ الحشو فوضىً من أرزٍّ ولحم مفروم يطفوان متقلِّبَيْنِ في الشلال ، حتى غدا لون المرق الأبيض فاتحاً فاهياً كحليب امرأة ، وماجت الرغوةُ من تدفاق الماء فبلغت حواف الطنجرة تماماً . أوقفت راوت تدفاق الماء من الحنفية . حملت الطنجرة الرمادية ، الضخمة ،

بجهدٍ . أسندتْها إلى بطنها متوجهةً إلى صالة البيت . بلغت الكرسيَّ حيث يجلس جناب . وضعت الطنجرة ، بكل ما فيها من ثقل الماء والحشو المختلط ، في حِجْره :

- خُذْ هذه الطنجرة معك .

صُعق جناب . ضمَّ يديه على محيط الطنجرة يتفادى أن ينسكب من حوافها المرقُ المائعُ ، الحائل اللون ، على ثيابه ، دون جدوى : انسكب المرقُ خليطاً من ماء ، ولبن ، ورز ، ولحم مفروم ، على بطنه ، وفخذيْ بنطاله الأزرق . زاد ارتباكهُ . زادَ الاندلاق . نهض مذعوراً فسقطت الطنجرة من حِجْره على المنضدة المستطيلة .

شهقتِ النساء ، جميعاً . نهضن مذعورات يتفادين البَلَلَ ، فانقلبتِ الكراسي .

تناثر الأرزُّ ، ذو اللسان المُردِّد رطانةَ النَّشَاء . وبقَّع اللحمُ المفروم ، بلهاثه الأبيض ، الرقيق البياض ، كلَّ قماشٍ من حوله .

قُبلة بلا انقطاع. أو:
قُبْلةٌ لَم تُنْجَز بعْد.

«هل تعمَّدتِ هذا ، ياشتولا؟» ، صرخت زليخا قافزة عن كرسيها ، فاعتذرت شتولا علَى نحوٍ متوسِّل :

– لا يازليخا . والله ، لَم أتعمَّد ذلك . انزلق القدح من يدي .

سقط قدح الجعة ، الذي قدمته شتولا إلى زليخا ، من يدها ، على علو نصف سنتيمتر من وضْع قاعدة القدح على المنضدة الخضراء ، ذات الغطاء البيروفي ، في شقة شتولاَ وصديقتها السويدية تَنْدَرا بيتر .

«أنا مغادرة» ، قالت زليخا متجهة إلى ردهة الشقة ، حيث الأحذية مرصوفة على رفٍّ ذي قاعدة ، يعلو عن الأرض شبراً ، وحيث السترات ، والمعاطف الخريفية ، تتدلى من عقفات عالية ، مثبتة في عارضة من الخشب ملصقة إلى الجدار ، بعلو متر ونصف المتر .

أسرعت درخو ، وتاسو ، إلى زليخا تثنيانها عن المغادرة . أمسكتا بها متوسلتين :

– لم تتعمَّد إسقاط القدح . أنتِ في بيتها . شتولا ليست نذلة لتفعل ذلك ، يازليخا .

أسرعت شتولا ، بدورها ، إلى زليخا ، باعتذار جديد من كل جوارحها :

– إذا غادرتِ سأغادر أنا أيضاً .

خفَّفت دعابة شتولا من هياج زليخا قليلاً . عادت أدراجَها صوب الطاولة الخضراء ، فهرعت شتولا إلى علبة الجعة المعدن ، التي تخصُّها . حملتْها إلى زليخا :

- اسكبي مافي العلبة عليَّ .

هزَّت زليخا رأسها بقبولٍ فاترٍ لاعتذار شتولا . نفخت درخو من فمها زفيراً مصفِّراً :

- لا تحتاجان إلاَّ إلى سكِّينين .

جُفِّفَ ما تبلل من ثوب زليخا بمجفِّف الشعر . عاد سربُ النساء إلى هدوئه بعد الزوبعة العابرة ، على جهتي الطاولة المستطيلة ، ذات الغطاء المشغول بخيالٍ يدويٍّ من هنود البيرو . قرَّبت كل امرأة صحنَها الطافح بحساء من سمك ، وجزر ، وكرفس ، وبصل . مددن أيديهن إلى السلال الصغيرة ينتشلن شرائح من أرغفة الباغيت .

«أصحيح أن أيَّ زوجين امتدت العشرة بينهما عشرين سنة ، تبدأ ملامحهما بالتماثل والتشابه ، كأنهما من أمٍّ واحدة؟» ، تساءلت شيراز .

«نعم» ، ردت تاسو . «انظري إلى راوت . إنها تشبه جناب خلُّو» .

قامت راوت عن كرسيها . طوَّقت عنق تاسو بذراعها : «سأخنقك» ، قالت ممازحةً . عادت إلى كرسيها :

- لم أعش مع ابن القحبة عشرين سنة ، على أية حال . إنه يزور برلين كثيراً .

تلقَّفت صديقاتُها الإشارة الغامضة : «ماذا يفعل في برلين؟» ، ساءلتها سلام .

«يزور العاهرات» ، ردت راوت . «عاهرات ألمانيات ، ورومانيات ، وبلغاريات ، وصربيات ، وروسيات ، وأوكرانيات . فريدرش شتراسا بات

شارعاً أشهر من ماركس في الجزء الشرقي ، سابقاً ، من برلين» .

«كيف تحفظين اسماً بهذا الطول؟» ، ساءلتها شيراز .

«أين تعيشين؟ كل اسم في السويد أطول من هذا» ، ردت راوت . ثم غمزت صديقتها : «أحبُّ كل شيء طويل» ، قالت بتلميح جنسيٍّ .

«لن تجدي أي شيء طويل عند الرجال الأكراد ، واليهود ، والصينيين ، أو . .» ، قاطعتها ريحاني :

– أنتِ موسوعة . هل نزعت سراويل هذه الأمم كلها؟ .

تدخلت ريحاني :

– زوري أفريقيا ، ياراوت .

عادت شيراز إلى سؤالها ، الذي لم ينكفىء :

– أصحيح أن المتزوجين طويلاً . .

قاطعتْها درخو :

– نعم . نعم . لكن لا تخافي ياشيراز . ملامحك لا تشبه ملامح زوجك السابق وِسام .

«طبعاً لن أشبهه . عشت معه أقل من عشر سنين» ، ردت شيراز باطمئنان .

أَلْهَم سؤالُ شيراز عن تشابه الأزواج في الملامح ، مع مرور السنين ، خيالَ صديقتها درخو قَفْزاً إلى الأسرار البشرية :

– تنفخ المرأةُ ، من مهبلها ، في قضيب الرجل ريحاً تغيِّر ملامحه ، بالاستحواذ عليها . ذلك أكيد .

«أكيد؟!» ، ساءلتها شتولا مرتابةً .

«عمَّ تتحدَّثن؟» ، نطقت تندرا ، شريكة شتولا في شقتها .

«أووه» . ضربت شتولا جبينَها براحة يدها . «تكلَّمْنَ ببعض

السويدية ، أيضاً ، يا إرهابيات» . ضمَّت صديقتَها ، جانبياً ، بذراعها : «هؤلاء كرديات . اغفري لأوروبا هذا المستقبل» ، قالت معتذرة إلى تندرا المبتسمة .

«لا تصغي ، ياراوت . كلميني بالكردية» ، قالت تاسو ، مضيفةً وهي تميل على الطاولة باتجاه صديقتها الجالسة قبالها ، في الجهة الأخرى ، هامسة :

– هناك شيء يقلقني : ألا تزال ابنتاك عذراوين؟ .

ارتدَّت راوت بظهرها إلى الكرسي مُجفَلةً : «أتعنين ريبانة ، وروهلات؟» ، قالت من فم لم ينه مضغ لقمته .

«لم أعْنِكِ ، أنت ، طبعاً» ، ردت تاسو .

«ماهذا السؤال ، ياتاسو؟» ، تساءلت راوت بنبرة ازدراء .

«لا أعرف» ، ردت تاسو . «خطر ببالي» ، قالت .

«لا بنات عندك . أنتِ لا تفهمين البنات ، ياتاسو» ، قالت راوت بما يشبه التوبيخ .

– «اعذريني . ربما لا أفهم البنات ، لكنْ أفهم السويد . إن ظلت الفتاة عذراء ، في السويد ، حتى الثامنة عشرة ، فهي عانسٌ ، بالتأكيد» ، قالت تاسو .

«أفضِّل أن تكون ابنتاي عانسيْنِ ، إذاً» ، ردت راوت .

«لكنهما ليستا عانسيْنِ ، في الأرجح» ، قالت تاسو .

«إلى ماذا تلمِّحين ، ياتاسو؟» ، سألتها راوت . أردفت بنبرة فيها ضِيْقٌ ، وبَرَم :

– أين طوق الكلب ، الذي اشتريتِه؟ .

أدركت تاسو أنها تمادت . ابتسمت لصديقتها . بدَّلت مجرى صوتها

في اتجاه آخر :

- تسعة آلاف صوت . بلغ التأييد لي بتغيير اسم الشارع تسعة آلاف صوت . أرى بيوت قامشلو متقابلة على جهتي شارع كاترينا باركن .

بلغ النبرُ العالي في صوتها أسماءَ صديقاتها ، المنشغلات ، كل اثنتين ، بحديث عن هوىً مّا .

«باتت السويد ، أخيراً ، مستعمرة كردية» ، علَّقت درخو على أرقام صديقتها ، التي تتفتح ، من أسبوع إلى آخر ، عن أعداد متناقضة ، بسبب اختلاطها في ذاكرة تاسو . «باتت السويد بيضة ترقد عليها دجاجة كردية» . تمتمت درخو . تطلعت ، فجاءة ، إلى شتولا :

- هل سيتسنّى لامرأة مثلي ، مرة جديدة في هذه الحياة ، أن تضع يدها على ردف رجل وهي تشهق : أعبدُ لحمَكَ . أعبدُ لحمَ روحكَ؟ .

كانت شتولا مُطْرِقةً تصغي إلى شيء مّا تقوله تندرا .

علَّقت تاسو على كلمات درخو ، الجالسة إلى يسارها :

- فهِمْنا أن تعبدي لحمَه . أما لحم روحه هذا . .

«روحٌ لايحيط بها لحمٌ ، وليس عليها بعض الشحم ، ليست روحاً» ، قالت درخو . عادت فتطلعت إلى شتولا الجالسة إلى جوار تندرا على الأريكة القصيرة ، المتقاطعة بزاويتها مع الأريكة الطويلة :

«هيهْ . شتولا» ، همستْ . رفعت شتولا وجهها المُطرِق إلى عيني درخو ، التي أكملت ، باللغة السويدية ، على نحوٍ ملتبس بلا رابط :

- هنالك حرب في الدانمارك . المهاجرون المسلمون يطالبون المملكة بدفع الجزية لهم .

ابتسمت شتولا . ابتسمت تندرا .

«أنا لا أمزح» ، قالت درخو .

« ليس الآن ، ربما . لكنْ قريباً» ، قالت تندرا بصوتها الهادىء . «الهجرة الشرعية ، وغير الشرعية ، تجتاحان أوروبا» .

«هذا عالَمٌ كلُّه غير شرعي» ، قالت نازلي .

«لسنا صريحات ، في هذه الأمسية عند شتولا» ، قالت ريحاني ، فتوجَّهت إليها الأبصار بفضول .

صمتت ريحاني .

«ثم ماذا؟» ، حثَّتْها نازلي على التوضيح .

تمايلت ريحاني في كرسيها تستجمع لسانَها . التفتت ، من وراء ظهر راوت ، إلى شتولا :

- كنا صبورات حتى الآن ، ياشتولا . أنهينا وجْبَتنا الرائعة . نريد منك حديثاً يناسب الآيس كريم ، الذي ستقدمينه لنا بعد قليل .

«أي حديث تقصدين؟» ، سألتها شتولا بصوت بدا منكسراً قليلاً .

«أنت تخبئين عنا شيئاً . ماذا تخبئين؟» ، سألتها ريحاني .

«ماالذي أخبئه؟ . لاشيء» ، ردت شتولا ، وتجرعت من علبة الجعة ، بنَفس واحد ، أكثر من ثلثها .

تنبهت الصديقات إلى تلك الخيبة الخافتة في صوت شتولا . كُنَّ وعدْن أنفُسَهن باعتراف هاذ من لسانها عن الأمسية ، التي غابت فيها عن سهرتهن في بيت راوت . كُنَّ وعدن أنفسهن برائحة ذَكَر في أنفاس شتولا وكلماتها . وكانت درخو وعدتهنَّ ، في تلك الأمسية ، بعد القدح السابع من نبيذ ريحاني : «أنا جاهزة أن أقبِّل امرأةً قبَّلها رجلٌ قبل يومين . أنا جاهزة لتقبيل امرأة قبَّلها رجل قبل أسبوع» ، قالت . وسَّعت انحدار اعترافها :

- سأقبِّل فمَ شتولا في الموضع الذي أعتقد أن صديقَها قبَّلها منه .

«ماذا لو قبّلها صديقها من مكان غير فمها؟» ، سألتها تاسو ، حينئذ ، فردت درخو :

– لا تُحرجيني .

وها هن ، بعد أسبوع من ذلك المساء ، في شقة شتولا حائراتٌ من جوابها : «لاشيء» . ماذا يعني ذلك؟ . هي أخبرت راوت بموعدها مع رجل .

تجرّعت درخو نبيذاً من القدح الواسع الجِرْم حتى آخره . نظرت إلى تندرا : «وعدتُ نفسي بقُبلة من فم شتولا ، هذه الليلة» ، قالت بالسويدية .

اتّسع الدّهشُ المعتاد على وجه تندرا أكثر . لم ترفع عينيها البنيتين كعسل الأكاسيا عن درخو لبرهة مديدة ، قبل أن تلوي عنقها صوب شتولا ، المفتوحة الفم قليلاً مّما لم تتوقّعه من وَعْدِ درخو لنفسها .

«لا تخافي» ، قالت درخو بالسويدية ضاحكةً . «كنتُ سأقبِّل الفمَ ، الذي قبّله رجلٌ ، لا أكثر ولا أقل ، يا شتولا» .

ضحكت تندرا ذات الثلاثين عاماً . ردّت بأصابعها المفتوحة شعرَها الأشقر ، المتماوج ، عن أذنها اليمنى . هي لم تحضر سهرةً مع صديقات شتولا ، من قبل ، إلاّ مرة واحدة ، في شقتهما ، أيضاً . لاتأخذها شتولا معها إلى سهراتها الناطقة بالكردية . ذلك لا يستوقف فكرَها ، على أية حال ، فلها ، في مساءات السبت ، مواعيدُ ملآى بحقائق لحم تحجُبها عن العودة إلى شقتها ليلةً ، أو ليلتين حتى ، بحسب حظّها من جسدٍ ذَكَرٍ ، أو حظِّ جسدٍ ذَكَرٍ منها : رغباتٌ بريدٌ في كل اتجاه .

تبرّعت تندرا أن تطهو لصديقات شتولا حساء السمك . طعامٌ لم تشرّعه الذائقةُ الكردية ، إلاّ في السويد ، بقوانين الضرورات مرةً ، وقوانين

المحاكاة ، التي يقدِّم بها المهاجر امتناناً مّا على بلوغه سِنَّ المشاركة ، عن وعي ، في تقاليد مضيفيْهِ : قطع من سمك السلمون . رؤوس سمك السلمون . جزر . كرفس . بصل . كراث . زبدة لإضافة دسم إلى المَرَق . خبز منتفخ ، مُقطَّع شرائحَ سميكة للتغميس في المرق . نبيذ أبيض .

تذوقت تندرا ، في المرة الأولى التي حضرت سهرةَ صديقات شتولا ، بعضاً من نبيذ أبيض تصنعه ريحاني بنفسها في البيت ، فلم تستسِغْه . في أمسيتهنَّ ، تلك ، عند شتولا ، وضعت تندرا زجاجة نبيذ أبيض ، غير رخيص ، إلى جوارها ، على الأرض ، لصق الأريكة التي تجلس عليها . رفعت كأسَها الرشيقة الساق نخب درخو ، رداً على درخو ، التي رفعت القدحَ الواسع الفوهة نَخبها .

«تندرا» ، قالت درخو ، كأنما تستوضحها أمراً فاتها . «أنت مسيحية . أتعرفين ماذا طلب المسيح ، قبل تثبيت يديه بالمسامير على الخشبة؟» .

«ماذا طلب المسيح؟» ، تساءلت تندرا ببعض الاستغراب ، لكن ببعض الجهد أيضاً في تخمين ما قد يكون المسيح قد طلبه :

– طلب ماءً .

«طلب ماءً؟» ، ساءلتها درخو تحثُّها على إجابة أكثر ثقة .

قطَّبت تندرا حاجبيها متفكِّرةً :

– طلب مسامير لولبية ، أكثر سهولة في اختراق عظامه .

تنهدت درخو على نحوٍ ينمُّ عن عدم اقتناعها بتخمين تندرا الطريف .

«حسناً» ، قالت تندرا بحسم : «طلب ألاَّ يصلبوه» .

«بل طلب أن يحلقوا شَعر إبطَيه قبل صلبه» ، قالت درخو .

ضحكت تندرا :

– ماذا فعلوا؟ .

«حلقوا شعر أبطيه ، لكنْ بعد صلبه» ، ردت درخو .

تمدَّدت ظلالُ قلوب النساء ، من أعماق صدورهن ، إلى باحات عيونهن حين جاءت شتولا بوعاء القشدة المجلدة ، الزجاج ، خليطاً من بياض بنكهة الفانيلا ، وحُمرة بنكهة الفريز ، وبُنِّي غامق بنكهة الشوكولا . درخو ، وزنتانا ، وتندرا ، لم يهرعن كبعض الأُخريات ، في لهفة ، إلى وعاء الآيس كريم : «المثلَّجات الحلوة تسبِّب حموضةً في المعدة مع النبيذ والجعة» . قاعدة لا تنطبق على شاربات مثل نازلي ، وزليخا ، وشتولا نفسها . لكن درخو لم تُحْرم نَفَسَ اللذة من غمس إصبعها في الوعاء ولَعْقها : «أن ينطبع على قلبك وجهُ رجل في لحظة قَذْف منِّيه فيك ، أمر أشبه بهذا» . غمست إصبعها ، ثانية ، في الآيس كريم ، ولَعقتْها . قامت عن الأريكة لتجلس إلى جوار تندرا ، بعد نهوض شتولا إلى تقديم القشدة المجلَّدة لصاحباتها . مدت أصابعها ، بهدوء ، إلى شعر الشقراء المتماوج : «ما هذا؟» ، سألت وسط نظرة من تندرا إلى ظرافة ما تفعله درخو .

«هذا شعري» ، قالت تندرا .

«ظنَنْتُه غيمةً» ، قالت درخو . أضافت بلا تمهيد : «لا أعتقد أن بلدانكم تحب النساء المحجَّبات . كل شيء مكشوف ، سافر ، من الأجساد ، في بلدانكم ، إلاَّ أيور الرجال : كلُّها محجَّبة» . ابتسمت مستطلعة ظرافةَ ما تقوله في عيني تندرا العسليتين . فاجأتْها :

- ماطعم الأير المحجَّب؟ .

أجفلت تندرا .

تداركت درخو إجفالةَ تندرا باسترسالٍ في مَرَحها :

- قضيب المسلم مكشوف . لا قناعَ ، ولا حجاب . فلسفتُه صريحة .

تلقَّفت شتولا بعض كلمات درخو ، إذْ وقفت إلى جوار الأريكة ، حيث تجلس تندرا :

«عمَّ تكلمينها؟» ، تساءلت . نظرت ، من عليائها ، إلى عيني تندرا :

- احذري درخو .

«لا تحذريني . أنا زوجة زرادشت» ، قالت درخو . هتفت : «اسمعْنَ» ، تُلفِتُ إليها صديقاتها الغارقات في أشبار من أصواتهن ، فتلفَّتْنَ إليها .

«سأرشح نفسي نائبةً» ، قالت درخو .

علت القهقهات سريعاً ، ثم خمدت سريعاً . حلَّ فضولٌ قوي في صالة البيت .

«عن أي حزب سترشحين نفسك للنيابة؟ من يدعمك؟» ، ساءلتها زليخا .

«عن الاشتراكي الديمقراطي» ، ردت درخو .

«ستساعدينني في تغيير اسم الشارع» ، قالت تاسو جادَّةً .

«ليتني أستطيع تغيير فرجك ، أولاً ، ياتاسو» ، قالت درخو .

«لقد تغيَّر» ، ردت تاسو . «ألا ترينه منتصباً كالزجاجة في يد تندرا؟» .

«أأنتِ جادَّة ، يادرخو؟» ، ساءلتها شتولا .

«أكثر من جادَّة» ، ردت درخو .

«هل رأيتِ وشْمَ شتولا؟» ، قالت تندرا لدرخو . دهشت درخو :

- وشم؟!! .

«منذ عشرة أيام تقريباً» ، قالت تندرا . رفعت وجهها إلى شتولا الواقفة إلى جوار الأريكة :

- ألم تُريهنَّ وشمَك؟ .

نبتت لكلمة الوشم مناقيرُ لاتحصى ، تلتقط بها ذُرَةَ الفضول وقمحَه .

«وشم؟ أين هو؟» ، هتفت تاسو .

نظرت شتولا إلى تندرا نظرةَ توبيخ ، فازداد الدهشُ على وجه المرأة الشقراء ، ذات العينين العسليتين :

- ماذا؟ هل اقترفتُ خطأً؟ .

جاء سؤالها متأخراً بعد فوات الأوان .

«أرينا وشمَك» ، توسلت تاسو إلى شتولا . «أنتِ لم تخبرينا شيئاً عن وشم . ما هذه الصداقة بيننا؟ ما هذه الثقة؟» قلبت العتابَ إلى دعابة : «لن آخذك معي إلى استعراض المطالبة بتغيير اسم شارع بيتنا . حسناً . حين نغير اسم الشارع ، ياشتولا ، أفي المستطاع وضعُ الاسم الجديد بالكردية؟» .

ابتسمت شتولا ببعض الاستخفاف :

- ولِمَ لا؟ .

- بحروف عربية ، أم بحروف لاتينية ، ياشتولا؟ .

- بحروف عربية ، ياتاسو .

«بحروف عربية مرة . وبحروف لاتينية مرةً» ، قالت زنتانا .

- هل نضع اسم الشارع بالكردية قبل السويدية ، على اللوحة ، ياشتولا؟ .

- تحت الاسم بالسويدية ، ياتاسو .

- لماذا ليس فوق الاسم بالسويدية ، ياشتولا؟ .

- كي يتمكَّن موزع البريد من قراءته ، ياتاسو .

تدخَّلت درخو :

- إلى حين تغيِّر تاسو اسم الشارع ، يا مراهقات ، سيكون كلُّ موزع

بريد ، في السويد ، كرديًا .

«أكراد تركيا لا يُحسنون قراءة الكردية بحروف عربية ، يادرخو» ، قالت سلام .

«فليقرأوا مؤخرتي» ، ردت درخو

«دعْنَنا من هذا ، الآن» ، هتفت نازلي . «لم تُرِنا شتولا وشمَها» .

استدارت شتولا إليهن بظهرها . أرخت نطاقَ بنطالها الرمادي الداكن بفتْح زرين فوق عانتها . أنزلت البنطالَ قليلاً عن الجزء الأعلى من ردفها الأيمن . فتحت النساء أفواهَ ذهولهن : أيُّ يدٍ اعتصرتِ العفافَ اللائقَ بالسحريِّ المستور من لحم امرأة عَصْراً حتى انبثقت الرسوم لهباً من جلد شتولا الأبيض؟ .

أغلقت النساءُ أفواهَ ذهولهن . تزاحمن من وراء شتولا . مدت درخو أصابعها تتقرَّى الرسومَ بأناةِ استنطاق أبعدَ من الرسوم . مسدت على الجلد براحتها مفتوحةً حتى أسفلِ نِطاق البنطال المرتخي : «لمن صنعتِ هذا؟ . هيَّأتِ فخاً من اللحم هنا . الرجل الذي سيعرِّي ردفيك سيحفظكِ عاريةً تحت بصره إلى أقصى ما قد تحتمل شهوتُه ، قبل التهامِكِ» .

«أزيحي يدكِ كي نرى الوشمَ ، يادرخو» ، قالت تاسو ، وهي تُطيح بيد درخو عنوةً عن جلد شتولا : «أهذا دجاج؟» ، تساءلت .

«دجاج؟! هل رأيتِ طائراً قطُّ؟» ، سألتها شتولا باستخفاف .

«والله ، ياشتولا ، كانت عندنا دجاجة يُغمى عليها من الفرح كلَّما رأت ذُرة . تستلقي على الأرض على ظهرها مرفوعة الساقين . تغني لها أمي فتفيق الدجاجة . كل مرة يحدث لها ذلك إذا رأت ذُرةً . لم تذبحها أمي . ماتت الدجاجة ميتةً طبيعية : شيخوخة . سكتة قلبية» ، قالت تاسو . جزمت : «كانت تشبه أحد هذه الرسوم» .

«هذه ليست دجاجة ، بل بط» ، قالت شيراز .

«بل أرانب» ، ردت شتولا باستخفاف . أضافت : «أهذه الأعناق الطويلة هي أعناق بطٍّ ، ياشيراز؟» .

ثلاثة رسوم لفصيل واحد من الطير توزَّعت على نصف الاستدارة العُلوية من ردف شتولا الأيمنِ ، قريباً من حقوِها . جسومٌ في غيمة زرقاء ، وأعناق طويلة على عَلَمٍ من لهب متماوج خلف الغيمة الزرقاء .

«هذه إوزَّات» ، قالت شتولا .

«إوَز؟ أعرف الإوز الأبيض» ، قالت زليخا ، فردت شتولا بامتنانٍ للرسوم :

– إنها إوزَّات كندية .

ثلاث أوزات . ستزعم شتولا أنها لم تعرف أنها إوزات ، حين عُرِضَ عليها سِجِلُّ النقوش لاختيار ما تشاء . «ماهذه؟» ، سألت فتاةٌ في محل الوشم ، فردت الفتاةُ : «إوزٌّ كنديٌّ» .

ثلاث إوزات يستأثر بريشها لونان غالبان : بُنيٌّ متدرج من غامق إلى فاتح ، وسواد فاحم . ثمت بياض أيضاً تحت الذيل ممتد إلى جزء من البطن ، وتحت المنقار على أول البلعوم . وقد أضاف الرسامون إلى الإوز شيئاً من غوايات حمراء في العيون ، وفي المناقير ، وغشاء الأقدام ، مع شَرَرٍ متناثر من نهايات الأجنحة .

«أحسسْتهنَّ تحت جلدي» ، قالت شتولا . «هذه الإوزات كُنَّ تحت جلدي ، فخرجن إلى سطحه» .

«من قام بنقش الوشم؟ امرأة؟» ، ساءلتها شيراز ، فردت شتولا :

– رجل . رجل وسيم .

«أووووه» . خرجت الحروف صفيراً ساخناً من أفواه النساء :

«رجل؟» ، تساءلت تاسو . «كم اغْتَلَم وهو يغرز يديه في لحمك ، ياشتولا؟» .

«إنهم محترفون ، ياتاسو . اللحم بين أيديهم ورقٌ للرسم ، وليس لحماً» ، ردت شتولا .

أطلقت درخو عويلاً من شدَّة حَسْرتها :

– لو ألْهمني الشيطانُ أن أتعلم مهنة الوشَّام لقبَّلت خصيتيه . كم من رجل كان سيخرج من تحت أنفاسي محترق الجلد . كم من أنثى .

«حتى النساء؟» ، ساءلتها راوت بخبث .

تفكَّرت درخو برهةً :

– لا . كنت سأخرج محترقةَ الجلد من تحت أنفاسهن .

أعادت شتولا الحياةَ إلى حُفرة الأمسية برفْش العاديِّ المستور . غطت الوشمَ ببنطالها . تجرَّعت نبيذاً من كأس تندرا الرشيقة الساق ، ثم أردفت الجرعةَ برشْفة طويلة من علبة الجعة ، المنتظرة فم شتولا ، بفمها الصفيح ، على الطاولة .

جلست كل امرأة في مقعدها ، على الأريكة والكراسي ، بخيالٍ من وشم شتولا . للكرديات وشومٌ حروفٌ ، زرقاء ، على ذقونهن ، وجباههن ، وزوايا لحَاظِهنَّ . وشومٌ بسائطُ من الرسوم الخطوطِ ، والنقاط ، بلا حِذْق . خطوط قصيرة ، وسهام قصيرة : السِّحْر مُخْتَزَلٌ . لايريد الوشمُ الكرديُّ ، بالكحل والنِّيْلَج ، أن يستثير حَرَسَ الخواصِّ على بوَّابات الغامض . حروفٌ لطائفُ . خطوطٌ قصيرةٌ لطائفُ . نقاطُ توكيدٍ لامتنان جمالهن للعاديِّ المُمتنِّ لقِسْمَة العاديِّ .

ذلك ما تعرفه الكرديات من أعراف الوشم . لكن وشم شتولا كان سياقاً في النُّقلة بالجلد الكرديِّ إلى سحابٍ من هباتِ الجغرافيا الأرضية

بكائناتها : شتولا تمتلك كندا ، الآن .

«سأضع وشماً على سُرَّتي» ، قالت درخو .

«يازوجة زرادشت ، جلدُك مائع . لن يثبت عليه أيُّ وشم» ، قالت تاسو .

درخو لن تَسِمَ أيَّ مكان من جلدها بوشم . ثمت نقطةٌ حالَ لونُها على أرْنَبة أنفها منذ كانت في الخامسة . النقّطة الزرقاء لاتُرى الآن إلاّ بعيني ماضيها المعلّق كجُزّة ذهبية إلى غصنِ أَشعارها عن الفجر .

منذ السابعة عشرة كتبت درخو الشِّعر رقيقاً كخيال النهر ـ الذي جفَّ قبل سنين ، على تخوم قريتها عَاكُوْلة . حملت أشعارَها معها إلى بيت عمها رَجب بَرْدَغِيْلي ، لتنضم إلى بناته تلميذة في إحدى مدارس قامشلو . أحبَّت ابن عمها جُوان ، بالقَدْر الذي مكَّنَهما الاختلاطُ المتسامح في البيت المُقَسَّم غُرَفاً عدّة على جهات باحته الكبيرة ، المُظلَّلة ـ عادةً ـ بالسخاء العالي في شجرتي السَّرو الضخمتين . كان ثمت تواطؤ من عائلة عمها معها . مُذْ دخلت بيتهم تلميذة صمَّموا لها دخولاً إلى قرابةٍ أبعدَ من نَسَب الدم : ستكون درخو حديقة سلالة الابن جوان .

ثلاثة أُخرُ من أعمامها نظَّموا ، في نهاية السنة الأخيرة من دراستها الثانوية ، بعد ستة شهور من زواجها بجوان ، مداخلَ العبور إلى عالمٍ لا ثقةَ لقوانينه بالمصادفات : دخلوا قافلةً إلى السويد .

أثّثوا لأرواحهم معسكراتِها ، لاجئين إلى حيلة الوجود الجديد ، ومهاراتِ الحياة الصغرى في كَنَفه .

بعد سبعة شهور من وجودهم في السويد لفظ جوان أنفاسه على سرير في مشفى : سقط عليه نَصْلٌ من جليد حوافِّ السقوف ، من مبنى في المنطقة السياحية القديمة غَامْلاسْتَانْ . غارَ النصلُ الجليدُ أربعين سنتيمتراً

في أعلى كتفه اليسرى ، بمَيْلٍ مُحْكم صوب الرئة فالقلب .

مات جوان حالماً بصيفٍ عصبيٍّ ، شديدِ الاستهتار بأعراف الفصول الأبيَّة ، والخانعة .

لم تترك عائلة الابن ، الذي أخفقت رحمُ درخو أن تؤسس على بزرته شكلاً لصيرورة النَّسَب ، للأمور السيرَ برحمها إلى مصادفات غير محسوبة : عرضت على درخو الزواج من رَابُوبَرْدَغيلي ، أخي زوجها الراحل جوان بردغيلي .

تزوجت درخو أخا زوجها ، وقد بلغتِ العشرين . تنقَّلا من شقة صغيرة إلى شقة صغيرة ، في ضواحي ستوكهولم . درسا اللغةَ في هذه الأثناء . عملا هنا ، وهناك ، كلما توافرتْ لهما من صديق ، أو قريب ، فرصة ، في مطعم صغير ، أو رعاية المُسنِّين في دور رعايةٍ يتنفس من نوافذها الموتُ الضجران ، إضافة إلى تقاضيهما معونة من الدولة ريثما يتأهَّلا لإدارة الحياةِ ـ تلك الدُّميةِ المتحرِّكة ، في ثِقلٍ مُرْهِقٍ ، بخيوط يتحكمان بها .

درخو لم تتوقف عن كتابة الشعر بالكردية . شِعرٌ عن الفجر ، من سطره الأول على ضفة نهر عاكولة الموسميٍّ المفقود ، حتى باب قطار الأنفاق في المحطات كلها . يسألها زوجها :

– متى ستَبْلُغين الصباحَ ، يادرخو؟ .

– لم يزل الفجر متشبثاً بي . حين يُفلِتُ ثوبي سأدخل الصباحَ .

– اخلعي ثوبكِ . اتركيه في يد الفجر ، وتقدَّمي ، يادرخو .

– إذا قَبلتَ أن أمشي عارية ، لساعة واحدة ، من الفجر في اتجاه الصباح ، أمام عمارتنا ، يارابو .

– أَبْقي ثوبَك في يد الفجر . فلْيتشبَّثِ الفجرُ أكثر بكِ ، يادرخو .

أنجبت درخو ستة أولاد من زوجها رابو: ابنها الأكبر زكي، البالغ التاسعةَ والعشرين، يعيش في الدانمارك، مصمِّماً صُحفيًا. ابنها كامُوْ، البالغ السابعة والعشرين، يقيم مع صديقته التايلندية في شقة بمنطقة شيستا، مرتزقاً من مهنته كمصوِّرٍ حُرٍّ، يتقاضى على التكليف. وهو عمل لم يُعْفِ أبويه من نجدته بين حين وآخر. ابنها عِصْمَت، البالغ الخامسة والعشرين، يعيش مع أبيه، في منطقة أكالا، مساعداً له في إدارة حانوت بيع الصحف الشبيه بمقهى صغير، يرتشف الناس فيه قهوتهم على عجل، أو يتناولون، صباحاً، كعكةً مّا. إبنتُها نِمْرودة، البالغة الثالثة والعشرين، تعيش مع صديقها الثالث، السويدي، بعد فشل سريع مع فنزويليٍّ، وفشل أكثر سرعة مع هندي. هواية الانتقال بآلتها الكومبيوتر، من شقة حبيبٍ إلى آخر، تثيرها كلما كان أحدهم أكثر براعة في سُوق البيع على شاشة الآلة - بيع بطاقات الحظ، واشتراكات الكهرباء، وأقنية التلفاز، والتأمين ببعض أَصنافه، بسمَّاعة صغيرة على الأذن يربطها سِلْكٌ بلاقِطِ صوتٍ كزرٍّ بنطال، ملتصق بزاوية فمها. ابنها نديم، البالغ العشرين من العمر يعيش معها، مثله مثل أخته الصغرى غْرِيْتَا، البالغة سبعة عشر عاماً، ذات الاسم المتطابق الحروف مع اسم ممثلةٍ كالوشم على عَقِب السويد، في المكان الذي لن يصيبه سهمُ الحَسَد.

كلُّ أذن من أذني غريتا يحمل ست حلقات: حلقة كبرى في الشحمة، وخمس على استدارة قوس الغضروف، متساوية الحجم. ثمت مسمار قصير، فضيٌّ، مغروس في طرف اللسان، ذو رأسين كرويْن، أحدهما في الأعلى، والآخر منفصل يجري تثبيته، أسفل اللسان، لولبياً. مسمارٌ فضةٌ تعبث به الفتاة كيفما فتحت فمها، متذوقةً طعمَ المعدن نيئاً، بارداً، مُخْلِصاً بصلابته لعقل الفضة. كل شيء آخر، في

غريتا ، إيقاعٌ محض ، مُذ امتثلت متعةُ حياتها الصغيرة لدِيْنِ الرَّابْ (RAP) - فنٍّ الإقامة في المُرْتجَل ضد البراعات .

لم تلتفت غريتا إلى أيٍّ توصيفٍ من درخو لهذا الفن الهائج . بلا تجانس قدَّمت أُمُّها نَقْدَ أعماقها لما تظنه إخضاعاً لا موهبة فيه من الرعاع للموسيقا احتفاءً بتقويض الموسيقا . «ذبْحٌ في كل اتجاه» . ذلك هو تأكيد درخو الوفية لصوت جون ميتشل الكندية ، التي لا صورة لها إلاَّ مع كأس نبيذ ولفافة تبغ . ومغنو الراب لايشحذون سكاكينهم لتقطع . يذبحون بالحديد المثلوم . لا يسددون طلقةً إلى هدف ، بل عشواء إلى الجميع . مهارةُ المُبتذَل ؛ مهارةُ الصوت طافياً على غَرَق السوقيين في احتقار أيٍّ جلال للصوت . لا أحد منهم في حاجة إلى معرفة . يأخذون مذهبَهم الواحدَ عن الآخر ، لا عن أيٍّ آخر . لم يسمعوا أغنية من قبل . لم يصغوا إلى موسيقى . لم يتعرفوا إلى معهد . هم ، أنفسُهم ، رعاعةُ الشارع الخلفيٍّ ، مدمنو البطالة مع نَفَسٍ من الماريوانا . حيواتُهم المُرْتَجَلة ، على حافة الانزلاق إلى قتلٍ ، تستدير ، فجاءة ، لتنزلق إلى قتل البراعة . كل مُغنٍّ للراب تجلٍّ حقيقيٍّ للانتقام من جلالة البراعة ، وكَرَم الدُّرْبة . نبوغُ الدِّينِ الجديد للارتجال يقود قطيعاً هو الأضخم ، في التاريخ ، إلى دفن الموسيقا ؛ إلى دفن الكلمات ، التي تُرْصَف باتِّفاق الإيقاع المكرور مع سِحْر سذاجته في ترصيف الكلمات . زَجَلٌ من نَظْم الحديث العاديٍّ ، الأكثر عاديَّةً ، المتهافت على سُوقيَّةِ عاديَّته . زجَلٌ آلِيٌّ أشبه بإعادة الحياة إلى كسلٍ نهائيٍّ ، لايستخلِصُ معانيَ ولايُنْشِئُها .

تجزم درخو أن الرابط بين الرَّابْ ومسلسلات عَرْضِ الواقع ، في التلفاز ، نسيجُ عقلٍ واحد ، من مختَبَرات نفسية ، حول حق الذكاء ، الذي في حده الأدنى ، أنْ يستمتع بشلله . وأنْ لا يُعدَّ الشللُ ، في هذه الحال ،

إعاقةً بعدَ اليوم . لشلل الذكاء حقوق محفوظة ، الآن ، مثله مثل براءة الاختراع العلمي . تصرُّ درخو على ضرْب مثلٍ هو big brother ، عرْض التلفاز الواقعي ، المدوِّخ ، كل سنة ، في السويد : شركاتٌ ؛ جمعياتُ رأفة من كل نوع ؛ نقابات ؛ مطاعم ؛ مصانع مستحضرات تجميل ؛ عصابات هندسة معمارية ؛ قُطَّاعُ طُرُق ؛ علاماتُ آلاتِ تنظيف ؛ مجاميع ماسونية ؛ معامل نسيج ؛ أفران ؛ مافيات حلاَّقين ؛ مهرِّبو ملابس داخلية ؛ مروِّجو شتائمَ يتحفَّظ عنها الرقيب ، في التلفاز ، باجتزاء الصوت : كلُّ أولاءِ ينزلون بآلات علومهم إلى مسلخ «استعراض الواقعي» المرفَّه : آلة تصوير تستعرض حركة أناس في بيتٍ ، يوماً ، أسبوعاً ، شهراً ، سنة . ينهضون من فُراشهم . يأكلون . يتجشأون . يغتسلون . يمارسون حركات رياضية . يغتسلون . يأكلون . ينامون . ينهضون . يتلاسنون أحياناً . يتناكحون ، بصمت ، تحت الأغطية . يبكون ، أحياناً ، من ضجرهم . يتبوَّلون . «عروضٌ واقعية» تتجمَّد العيون في ملاحقة شخوصها : لا حاجة ، بعد الآن ، إلى تفكير في حَبكة ، أو تحليل مُحَاوَرة ، أو تبنِّي حُكْم . المشهد متَّفق مع العين على أن ما تراه هو الغاية القصوى ، بلا جاذبية ، أو مفاجأة ، ولاتبديل : اطمئنانٌ نهائيٌّ إلى أن المُسْتَنْسَخَ من التفصيل اليومي ، الثابت في تكراره ، هو جمال الحاسةِ السادسةِ ـ حاسةِ المُبْتَذَل .

إنها نهاية النقد .

«الراب؟» . تقول درخو الكلمة وهي تعض كُمَّ سترتها .

الحياةُ ، في موسيقا الرابْ ، وكلمات زجَّاليْه ، استخدامُ اسطوانة من موسيقا جليلة ، بإعادة إدارة الإبرة فوقها قسراً ، باليد ، شمالاً ويميناً ، لاستيلاد مسْخٍ قويٍّ : مغنٍّ بسلاسل هائلة من الذهب على صدره ، وحول عنقه ، أثرى فيِّ سبعة أيام . لا تتَّسع ساحة كرة قدم لِما يملك من طُرُز

السيارات . مسخٌ يظهر ، في كل أغنية مصوَّرة ، محاطاً بحريم من نساء عاريات ، عبر إنتاج جديد للعبودية انتقاماً من ماضي عبوديته .

غريتا لا تلتفتً إلى هذا التوصيف المتصاعد كدخان لفافات التبغ من فم أمها . لا تعنيها عبوديةُ المُرْتَجَل ، بل أن تستعيد الصوتَ إيقاعاً من حركة تتدافع فيها ذراعاها ، كفِعْل السود الأمريكيين ، أمام عانتها ، بأصابع مفتوحة تتقاطع ، وترتدُّ ، وتنفصِل ، وتنقذف في اتجاه مُخَاطَبٍ نكِرَةٍ ، قبل أن تستقر على فَرْجها . مغنو الرَّاب ، الذكران والإناث ، يقبضون ، عقب كل سطر من زَجَلهم النابغة في احتقار الشعر ، على خُصاهم ، وأُيورهم : «لا تهربي» . يخافون الخصاء . الذكران يخافون الخصاء ، والإناث يَخَفْن الخِفاض .

إعادة إنتاج للعبودية في أغنية الرَّاب المصوَّرة : نساءٌ مذهلاتٌ يتمسَّحن بأذرع المغنِّيْنَ ، وأفخاذهم ، راكعات ، أو مستلقيات تحت الأقدام . كل أغنية رَابْ مصوَّرة تحوي مشهد استعباد . هي أغنية التبشير بالعبودية ، بلا نقد .

لكن غريتا واثقة ، بلا دعم من أيٍّ يقين ، أن الراب كحركةٍ جَموحٍ ؛ ككلمات ذاتِ قطيعة مع أيٍّ شعريٍّ ؛ كغناء متقشِّفِ المهارة حتى الصِّفرً ، متساهلٍ في نَبر الصوت المُحَطَّم بتكراره ؛ أن هذا كلَّه هو نهاية البراعة الشريرة ، وأمل تلك النهاية . غريتا ضد البراعة ، والمهارة المدرَّبة : يولد الطفل بملعقة من الرابْ في فمه . وداعاً للتربية الموسيقية .

«هذا فن . .» ، تقول غريتا ذلك لأمها .

«فن الأغنية الخاملة» ، ترد درخو .

«Bitch» ، تقول غريتا بالإنكليزية .

درخو تفضِّل ابنتها غريتا على أولادها . هي صغراهم . الصغرى ، في

الأرجح ، حظوةُ العاطفة من القطاف الأخير . لكن غريتا تُربكها : لا تأكل الدجاج . لا تأكل السمك . لا تأكل الضأن . بينما تأكل البقر ، ونقانق الخنزير ، ولحم الدجاج الرومي . عبثاً تحاول درخو فهم المنطق في خيار المذاق عند ابنتها ، وهو خيار يستند إلى فِقْهٍ خاص : «آكلُ كلَّ ما لا أستطيع تخيُّلَ شكله حيًا . ولا آكل ما أستطيع تخيُّلَ شكله حيًا» ، تقول .

يستعصي على درخو تفنيدُ مُعْتَقَدٍ مجهول الوحي :

- ألا تستطيعين تخيُّل بقرةٍ ، ياغريتا؟ .
- لا .
- ألم تري بقرةً ، ياغريتا؟ .
- بلى . لكنني لا أستطيع أن أتخيَّلها .
- ألا تستطيعين تخيُّل خنزير ، ياغريتا؟ .
- لا .
- ألم تري خنزيراً ، ياغريتا؟ .
- لا .
- أفهم ذلك . لم تري خنزيراً ، لذا تأكلين نقانق الخنزير .
- نعم .
- ألم تري صورةَ خنزير ، ياغريتا؟ .
- بلى . لكنني لا أستطيع تخيُّل خنزير حيًا ، متحركاً .
- أرأيت خروفاً ، ياغريتا؟ .
- لا .
- لم لا تأكلين لحمَ الضأن ، إذاً ، ياغريتا؟ .
- أستطيع تخيُّلَ خروف حيًا ، راكضاً من حولي ، يا أمي .

- أرأيت دجاجة رومية ، ياغريتا؟ .
- رأيتها ، في منتزه .
- ماذا تشبه الدجاجة الرومية ، ياغريتا؟ .
- لا أعرف . لا أستطيع أن أتخيل شكل الدجاج الرومي ، لذا آكل لحومها .
- أتستطيعين أن تتخيلي أباك ، ياغريتا؟ .
- نعم .
- ليتك لاتستطيعين ، فلربما طبختُه لكِ ، ياغريتا .

مشادات بين درخو وغريتا ، عن الخيال التائه في حروب الصور ، تختزل قائمةَ الطعام ، الذي ينبغي أن تُعدَّه الأم . لكن الحياة تدبرت لنفسها ، على قائمة الطعام غير المُعْلَنة ، تفاصيل أكثر سخاءً من لحم الضأن ، والسمك ، والدجاج العادي ، ابن خالة الدجاج الرومي . والحياةُ ذاتُها أعفت درخو ، قبل ست سنين ، وهي في الرابعة والأربعين ، من قُربى العقد القانوني مع زوجها .

كانت تلميحات رابو ، عن حنين ذَكَرٍ في عمره إلى فرْج صغير ، لا تطاق . ولا تُطاقُ تلميحاتُه المتنكِّرةُ في تصريحات واضحة عن شهوته . كان يسترسل في توصيف الفُروج العذراء ، الصغيرة ، الضيِّقة ، والثُدِيِّ الناهدة ، والأرداف المشدودة ، والألسنة الفتيِّة العذبة مصًا ، حتى يُغمى على وجدان درخو من الهول . وبَّختْه مراراً . هدَّدته خنقاً بوسادة تجلس عليها حتى الانتهاء من تدخين لفافة التبغ السابعة والسبعين . عمدت إلى ترويع خياله بالمُنَفِّرات : «ماذا لو أن رجلاً ، في عمرك ، يصف ـ الآن ـ ابنتيك نمرودة ، وغريتا ، كوصفك أنت فروج بنات الآخرين الصغيرات في خيالك ، أيها المُسْتَمْني؟ . تخيَّلْ ابنتيك عاريتين . .»

يقاطعها رابو مشمئزًا :

- لم تعودي عجوزاً فحسب ، بل مقرِفة .

- أنا مقرفة يا مشْجَبَ الخُصى؟ . تزوَّجْ فتاةً صغيرة . سينكحها كل جيرانك ، يارابو ، في السرير ، الذي تشخر عليه .

لن يستعرض رابو على خياله احتمالاً كهذا . رغبةُ قضيبه في هجرة معاكسة لا تُقاوَم . أُيورٌ كثيرة لن تُقاوم هجرةً معاكسة إلى مسقط رؤوسها في الأقاليم ، التي هاجرت منها إلى السويد . هجرة إلى البلد الأصل . حنين أيور الأحفاد إلى أُيور الأجداد في نكاحهم الأصليِّ ، الأول ، القديم قِدَم الجسد . ورابو يصوِّب مسار الهجرة المعاكسة لشهوته في أروقة دوائر الهجرة ، بطلبٍ لاستيراد جسد .

طلَّقت زليخا زوجها رابو بردغيلي ، منتقلة بابنها نديم ، وابنتها غريتا ، إلى شقة في منطقة سُوْلْنا ـ أرض العراك في الترجمة لأولئك المهاجرين إلى رحمة الشمال القاسي .

ستُعِدُّ درخو نفْسَها ـ هي القادمة إلى السويد قبل إحدى وثلاثين سنة ـ رائدة في الترجمة بين المهاجرين الكرد ، والعرب ، وبين المحقِّقين في دعاوى عالَم كلُّ أرضه ، وكلُّ سمائه ، على أهبة الهجرة هرباً من مصائر مختومة بنكبات اللاإنصاف ؛ بنكبات وجود الأرض ، والسماء ، خطأً ، في مكانيْنِ خطأٍ مفصَّلٍ من تعاقب الإهانة ، التي تغدو ـ وحدها ـ وِحْدَةَ قياسٍ للزمن بدل الساعة .

يحمل المهاجرُ ، في حقيبته ، شظية من سمائه المهشَّمة ، وشظية من أرضه المهشمة ، ليعرضها في كلمات مهشمة على مسمع درخو : «قولي للمحقِّق ، ياسيدة . قولي ـ والله ـ إنني . .»؟ هكذا يخرج استعطافُ البعض من صدوعٍ في هيكله تحت الثياب .

شهدت الأروقة ، في مبنى دائرة الهجرة الكبير ، لعقبَيْ حذاء درخو بجدارةٍ نحتها الصُّلب في حجر الصوت . الأروقة ، بين غُرَف المحققين ، وصالة الانتظار الكبيرة ، المُتهيئة بتوتُّرٍ لتطبيع الأحوال بين الأرض الجديدة والشقاء الوافد الجديد ، تعرف رائحةَ درخو ، المكتفية من العطور بفوح المراهم . وهي ذاتُها ، التي شهدت لقاءَ درخو بزوجها السابق متنقِّلاً بأوراق مُعْتَمَدة لاستيراد الزوجات ، والأزواج ، من خارج السويد . تُرفع الطلباتُ إلى المختصِّين . يجري تحقيق عبر السفارة السويدية في بلد التصدير ، للتأكد من أنه لن يكون زواجاً بتهريبٍ قانونيٍّ . وهو أمر لن يستطيع أحد التأكد منه ، على أية حال . الحقوق تكفل لكل مقيم إضافةَ سراديب إلى مدينة حقوقه ، وإضافة جُسُور ، ومحطات ، وقاعات لِلَعب البليارد . الحقوق تتسع لتشمل امتلاك السويد : «أنا أوروبا» ، يقول لسان درخو المُعْتَمَد لترجمة أوروبا كلِّها إلى جملةٍ من مستقبل المُهاجر .

«هكذا ، إذاً؟» ، سألت درخو زوجها السابق .

مُرِّغَ الخبرُ في بيوت صديقات درخو بسمادٍ كثير من ألسنتهنَّ ، فنبتَ الخبرُ قوياً : «إنها فتاة في الثامنة عشرة ، من قامشلو» .

- أليست ابنة عِمْران حمدو؟ . هي في السادسة عشرة .
- لا يُسمح بالزواج من فتاة في السادسة عشرة .
- الإسلام يسمح بالزواج من فتاة في العاشرة .
- نتحدث عن القانون في السويد .

«اسمعي ، ياملكة القانون ياريحاني . متدينون في المغرب يهيئون لطالبي الزواج ، من مسلمي الأمم كلها ، فتيات في الثالثة عشرة ، والثانية عشرة ، والعاشرة ، والخامسة ، بمهر لا يُجاوز ستة آلاف دولار . الفتيات في العشرين مهرُهنَّ أقل من ذلك ، لأنهنَّ في عِدَاد العوانس» ، تقول شيراز .

«إناث في العاشرة، والخامسة؟»، تسألها سلام مستغربة، فترد شيراز:

- ليس ذلك بالتحديد، لكنْ قريباً منه. هناك فتاوى، على الإنترنت، بجواز تقليد السُّنَّة المحمدية: الزواج من البنت في الحادية عشرة.

- تغير العصر، ياشيراز.

- لم تتغير الأُيور، ياسلام.

«هذا مزاح»، تقول زنتانا. تضيف: «لقد تغيَّرت القوانين، وعلى الأُيور أن تغيِّر معتقداتها».

«لاتتفاءلي كثيراً، يازنتانا. أجيالٌ من المتدينين سينتظرون أن تتنازل القوانين لحقوق الخُصى. النكاحُ نكاحٌ. سيفهم العالم ذلك، ويحترمه، عاجلاً أوْ آجلاً. زوجات، في التاسعة من أعمارهن، ينتظرن الدخول إلى الأسِرَّة اللاهثة مع نهاية نصف هذا القرن. أوروبا ستوافق، أو تنتحر. أوروبا لن تنتحر، بالطبع، دفاعاً عن معتقدات الفُروج الناضجة في الثامنة عشرة. الفروجُ فروجٌ، وهي ناضجة دائماً»، تقول شيراز.

تهز زليخا رأسها علامةَ عدم فهم:

- ماذا يفعل الرجال ببنات في الحادية عشرة؟.

«يعلِّمونهنَّ الخياطةَ»، ترد راوت مستهزئة.

تصحِّح درخو الأمرَ برُمَّته:

- بل يدربونهن على ٦٠ كم من الصراخ في الدقيقة الواحدة من النَّيك.

لن تتفق الصديقات على عمر الفتاة، التي يدور رابو بطلب استيرادها من مسقط خصيتيه ـ قامشلو، على دارسي الحاجات الإنسانية في دائرة الهجرة.

كان كل شيء على مايرام . طلبُ استيراد زوجةٍ تنقَّل ، وفق المراسيم المعتادة في التدقيق العاديِّ ، من موظف إلى آخر . انزلق الإيعازُ المعتاد إلى السفارة السويدية في دمشق من ميزاب وزارة الخارجية ، للاستقصاء الضروري حول الزوجة المستورَدة . أشياء صغيرة كهذه ليس لها إلاَّ مَخْرَجٌ أخيرٌ وحيد : الموافقة . حقوق الاستيراد محفوظة لشركات القلوب البشرية كما لشركات استيراد الباباغنوج اللبناني ، ومشروب ياني راكي التركي ، والأوزو اليوناني ، والباميا المصرية المجلَّدة ، وهريسة الفلفل الأحمر الحرِّيف ، والسردين ، المغربيين . لكن عطْلاً طرأ على عقل المشيئة الإدارية : لقد بلَّغ أبو الفتاة سفارةَ السويد ، فجاءة ، رفضَه تزويج ابنته إلى رابو ، بعد قبولٍ كاد يُنْجز انتقال الفتاة إلى الطائرة التحاقاً بسرير زوجها ، الذي لم يرَ إلاَّ صورتها . أُصيب رابو بصاعقة انحدرت عبر بَصَلَته السيسيائية إلى نُخاع عموده الفقري ، لتستقرَّ في خصيتيه زوبعةَ لهبٍ . انكمش جسدُه كله . انكمش خياله . تفتَّتت رابو : «لماذا ياعمران حمدو؟ . ماالذي تغيَّر لتمنع عني ابنتك؟» ، كتب ذلك إلى الشيخ . حادث ، هاتفياً ، كلَّ من يعرف عمران ليبدِّل رأيه . تحرَّى رابو ، المصاب بنكسة في أمل خصيتيه ، أسبابَ انقلاب عمران العجوز عليه ، فاتضح له ماليس لُغزاً : صديقه القديم ، الذي يماثله عُمراً ، حسن عبَّاسو ، الأرمل ، قدَّم مَهراً مغرياً إلى عمران ، مع قائمة من محاذير إرسال ابنته الصغيرة بِيْنَاز إلى بلد لا يتوقف النكاح ـ غمضة عين ـ في حدائقه العامة ، وفي السيارات ، وفي محطات القطار ، وفي القطَّارات ، وفي المراحيض ، وعلى شرفات المنازل ، وفي مصاعد العمارات ، وفي مداخل البيوت ، وعلى الأرصفة ، وتحت مناضد العمل في كل مهنة . ومن لايتوفَّر على مكان من هذه الأمكنة ، يستطيع مجامعَة امرأةٍ في موقف باص ، بعد الطلب من الواقفين ، بتهذيب ، أن يغمضوا

عيونهم لدقيقةٍ .

«هذا ما يجري في السويد» ، قيل لعمران ، فارتعدَ العجوز . ذهبت ابنتُه بيناز ، بدلاً من السويد ، إلى مكان طاهر في بيت حسن عباسو مباحةَ الفَرْج لشهيقه . فُضَّتِ العذراء في مسقط رأس قضيب رابو بردغيلي ، وانقضى الأمر .

لا . اختفى حسن عباسو بعد شهر وستة وعشرين يوماً من قطاف عُذرة بيناز ، وهو ـ بَعْدُ ـ في أوج غُلْمتَه ـ غُلْمةِ العقد الخامس من العمر .

اختفى أخوه علي عباسو الأصغر .

اختفى عمُّه الأصغر عبد العزيز ، صديق أبي بيناز .

اختفى جارا حسن عباسو ، الصديقان مَرْمَر هَدْلَهْ ، وجبرائيل جَاجان .

اختفى سلمان ، شاهد ، مُريد ، عادل ، عيسى ، اسمعيل ، فرهاد ، رسول ، بشير ، قولنج ، درغام ، حسيب ، رأفَتْ ، تامو ، زوزان ، شهيد ، مصطفى ، يعقوب ، بهرام ، زرادشت ، خالد ، فرحان .

سبعة وعشرون شخصاً من مؤيدي زواجِ حسن عباسو بالفتاة بيناز ، ومُدبِّري عرسه الصاخب ، اختفوا . اثنان نجَيا : هرموش ، وأخوه سلطان : موجةُ الاختفاء المتسارعة للأصدقاء ، والأقران ، لفحت قلبَيهما ، فاستبقا الحريقَ هاربيْنِ إلى أهل لهما في ديار بكر ، بتركيا .

سيتضح الأمر فيما بعد . الأسرار لن تصمد في قلب رابو ، المُنتشي : لقد كتب إلى كل شخص من هؤلاء رسالة هي ردٌّ على رسالة مزعومة تلقَّاها . كتب رسائله بصيغة تفخيم ، مجهولةَ المُرْسِل ، بالكردية : «نعم . نتفهم استياءك من النظام . نتفهم رغبتك في تحطيمه بأي وسيلة . لستَ وحدك . نشاطرك بعقولنا ، وبعواطفنا ، هذه الرغبة النبيلة في الحرية .

سيصلكَ مِنَّا ما يُشفي غليلك . كُنْ متنبِّهاً . كنْ حذراً» .

كل رسالة من هذه حَوَت قشرتَيْ جزرة رقيقتين ، طويلتين ، تجعلان مظهر الرسالة منتفخاً ، ومُريباً . لصوص الرسائل ، المشهود لهم باختفاء المغلَّفات المنتفخة قليلاً ، القادمة من أوروبا إلى سوريا ، لم يجدوا فيها أوراقاً نقدية مخبوءة ، لكنهم لم يهملوا دافع الإخلاص ، الذي يجعلهم يعرضون تلك الرسائل الكردية اللغة ، المريبة ، على مُعْتَمدي الرقابة في محطات البريد أولاً بأوَّل . لَمْ يُسألوا - ربما - لِمَ يفتحون الرسائل . لن يهتم أحد بشكاوى عن اختفاء البريد يتداولها سيئو حظوظٍ في أنحاء العالم ، مادامت بلا قرائن تُرفع إلى المفوَّضية الدولية لحقوق الطوابع المدفوعة الثمن . على أية حال ، إن مصادفة بحث لصوص البريد عن صيدٍ أدَّت ما ينبغي اعتبارها مهمة مشكورة .

اختفى سبعة وعشرون شخصاً ، ليظهروا ، بعد سنتين ، تباعاً ، مهشَّمِيْنَ ، مرتجِّيْنَ ، مرتعشين ، هلِعين ، مرتابين ، يهذونَ في نومهم باسمٍ من طلَّسمات القيامة : الجَزَر .

تسعة تهديداتٍ وصلتِ السويدَ بذبح رابو بردغيلي طُوْلاً ، من حنجرته إلى مثانته . التهديد العاشر حمل بشارةً من الرأفة : طلقة في الرأس . طلقة واحدة من مسدس تُوغَارِيْف .

لاتعرف درخو ، تحديداً ، من الذي هدد رابو بطلقة واحدة في الرأس ، لكنها أبلغت صديقاتها أن يُحَمِّلْنَ كلَّ مسافر إلى قامشلو عن استعدادها للزواج من الشخص المُهَدِّد ، لتُسَهِّل عبورَه إلى السويد : الانتقامُ بياضُ دقيقة ، وليكنْ بعدها الوقتُ بلا لون .

تلكَ الأمسية في بيت شتولا ، ذكَّرتْ درخو صديقاتها بالعهد ، الذي قطعتْه على نفسها : سأتزوج من يأتي منتقماً . سأتزوج مسدسَه

التوغاريف» ، قالت ، ثم تتبعت شتولا إلى المطبخ لتملأ قدحَها السابع من نبيذ ريحاني المِزّ .

ملأت درخو القدحَ .

فتحت شتولا علبةَ جعة .

مدت درخو يدها إلى علبة الجعة الصفيح في يد شتولا . ارتشفت جرعةً وأعادتها إلى صديقتها الشابة .

«فمي رطبٌ ، الآن» ، قالت درخو . اقتربت برأسها من شتولا :

- هل تمانعيْنَ إنْ قبّلتُكِ؟ .

حدقت شتولا إلى درخو مليًا : «ماذا؟ لم أفهم» ، قالت .

تنهّدت درخو مبتسمةً :

- أنا أيضاً .

أضلاعٌ مشوية.
أرزٌّ مُفَلْفَل.
عُصابة من عَلَم الدانمارك . أو :
لا أحد يستطيعَ أن يوقف هذا .

خرجت شيراز من الحمَّام بثدييها العارمين تحت القميصِ القُطنِ القصير . توجهت إلى صالة البيت ، حيث استلقى بنطال أسود على الأريكة الزرقاء السميكة القُماش . ملأتِ البنطالَ ، عنوةً ، بلحمها . توثَّب ردفاها القويان صلبيْنِ أكثر من سنين عمرها التسع والثلاثين .

«ألا تتوقَّعين وصول زَابو إلى البيت؟» ، ساءلها صوتٌ من غرفة نوم غرب الصالة ، فردت شيراز وهي تكمل ارتداء سترة رقيقة فوق قميصها القطن :

– ستنام زابو عند صديقتها ، الليلة .

«ماذا عن ابنيْكِ جوهر ، وحُسْني؟» ، ساءلها الصوتُ ، فردت :

– سيناما ليلتين عندي ، منتصف الأسبوع ، وبقية الأيام عند أبيهما . أنت تعرف ذلك . لماذا تسألني عنهما؟ .

«ألا يتغير هذا النظام أحياناً؟» ، ساءلها الصوتُ ، فردت شيراز :

– ستكون أول من يعرف ، إذا طرأ شيء على هذا التدبير .

«أأنتِ ذاهبة ، هذه الأمسية ، إلى بيت ريحاني؟» ، ساءلها الصوتُ ، فردت شيراز :

- ماذا تظن؟ .

اقترب الصوت خارجاً من غرفة النوم : «سلِّمي على أمي» ، قال نوح ، ابن نازلي ، ذو الثماني عشرة ، وهو يزرِّر صدرَ قميصه .

تقدمت منه شيراز . احتضنتْه ، واعتصرتْه : «سأسلِّم على الأم ، التي أنجبت هذا» ، قالت ، وهي تتحسّس خصيتيه براحة يدها ، وتدسُّ في جيب بنطاله مغلَّفاً صغيراً ، مطويًا .

قبل ساعتين من لقائها الشابَّ الصغير ، عادت شيراز من عملها مُدرِّبة للتمارين البدنية ساعتين أسبوعيًا ، في إحدى قاعات مركز منطقتها ـ أَكالا . ثماني عشرة امرأة يتواجهن مع شيراز في تقليد عدالة جسدها الرشيقة بتدوينها آيةً آيةً على هواءِ حركاتهن . كلهن في العقد الرابع : كرديات ، سريانيات ، عربيات ، تركيات ، بولنديتان ، سويديتان ، أفريقية واحدة من إثيوبيا . الكرديات ، والتركيات ، يحضرن في جلابيب واسعة ، طويلة ، محجَّبات ، يلهثن في القفزة الأولى من تراقُص الشحم ظاهراً على بطونهن المتكوِّرة . يُعاندن لحمَهن ، فيبقين ، بالرغم من الإعياء والرَّهَق ، على وفاءٍ لتمارين شيراز حتى آخر رَمَقٍ في الدقيقة الستين من الساعة .

«ليس هذا كل شيء» ، تقول لهن شيراز العارمة الثديين . «لا تلتهمْنَ ، في العودة إلى البيت ، طَبَقاً من القطائف . لا تلتهمن طنجرة من الباذنجان المحشوِّ أرزاً» .

لا شحم ينقص عن بطون الكرديات ، والتركيات ، تحديداً . الجلابيبُ تقفز أعلى وأسفل ، على استدارة خصورهن المُحصَّنة ضد بسالة الحركات القوية . شحمٌ صامدٌ . بطونٌ وفيَّة لصمود الشحم . لكنهن لا يتغيَّبن عن ساعتَيِّ الإرهاق في الأسبوع . يُحضِرنَ ماءً كثيراً في أوعية الكوكاكولا البلاستيك . حَفظْنَ ، بنباهةٍ ، نصائحَ شيراز عن جدارة الماء الساحرة في

تذويب الرياح الصُّلبة ، العالقة في شرايينهن ، وعن مَكْر الماء في استدراج الشحم إلى أن ينقلب ماءً . يمتصصْن أفواهَ الأوعية البلاستيك بنهَم ، بين قفزةٍ وأخرى ، وانحناءة وأخرى . في انصرافهن يُعِدْن أوعيةَ الماء البلاستيك ، والمناشف الصغيرة المبتلَّة ، إلى حقائبَ puma و Nike الرياضية . يعلِّقن الحقائبَ إلى أكتافهن ، فوق الجلابيب ، بلا اكتراث لطبائع الهواء خارجاً ، عائداتٍ إلى بيوتهن في فخْرٍ .

استحمت شيراز مرتين ، قبل ذهابها إلى أمسيةِ السبت في شقة ريحاني . غسلت عن مسامِّها عرقَ التمارين مرةً ، وغسلت في الثانية عَرَقَ البهاءِ أنيقاً سكبتْه مسامُّها تحت جسد نوح صراخاً كنزفِ الفاكهة .

كانت شيراز تتنفَّس من فم الرِّضا الأزلي حين دخلت شقة ريحاني . خلعت معطفها الخريفيَّ القصير ، المخمل . خلعت حذاءَها المسوح العقبين ، ونشرتْ فوحَها الهادىء في العبور إلى الصالة ، حيث جلست الصديقات ، اللواتي وصلن توّاً ، على جهتيّ المنضدة المستطيلة ، المُحاطة بكراسيَّ وبأريكة ، في الشقة الصغيرة : غرفتا نوم عند الردهة ، على بعد مترين من المدخل . خزانة لتعليق المعاطف ، والسترات ، والقبعات ، ومِصطبة واطئة لحمْل صفوف الأحذية . كلُّ داخلة إلى الشقة ستترك هناك ، عند أول الردهة ، بعضاً من متاعها ، وبعضاً من رغباتها ، التي ينبغي تحصينها بالصمت قليلاً ، حتى البرهة المناسبة لإشعال حريقٍ صغير ، أو كبير .

تخيَّرت شيراز مجلساً ، على الأريكة ، قرب نازلي ، المأكولة الأظافر قَضْماً بأسنانها : «هذه أول مرة أنتبه فيها إلى أنك أطولُنا» ، قالت شيراز ، فردت نازلي :

– وأطولُكن طريقاً إلى أوروبا .

لم يوافق بعضُ الأخريات على ثقة نازلي بأنها اجتازت ، في المجيء إلى السويد ، طريقاً هي الأطول . تبارتْ كل واحدة منهن في قياس طُرُق الوصول بأمتارِ المشقّات ، لابأمتار مقسَّمة إلى سنتيمترات :

– مترُ إهانة يَعْدِلُ ستين كيلومتراً من مسافات الأرض .

– مترُ خوفٍ يساوي سبعة وسبعين كيلومتراً من مسافات الأرض .

– مترُ ارتباكٍ يَعْدِلُ ثلاثين ، بل أربعين ، بل أربعة وأربعين كيلومتراً من مسافات الأرض .

– مترُ خديعةٍ يعدل طولَ قارَّة .

«ماذا؟» ، تساءلت تاسو . «ماذا قلت ، يازنتانا؟» .

«قلت : مترُ خديعة» ، ردت زنتانا .

«مَنْ خدعك؟» ، ساءلتها تاسو .

«خدعني عمري ، ياتاسو» ، ردت زنتانا ، فأطلقت تاسو بلسانها ما ظنَّتْه تصحيحاً :

– الخدعة أن تدلِّلي قضيباً بيديك وبشفتيكِ ، ساعةً ، ولا ينتصب .

«هذه ليست خدعة ، ياتاسو . هذه إهانة» ، قالت درخو .

تأوهت زليخا . لفتَتِ العيونَ إليها : «ماذا سيحدث لي؟» ، ساءلت صديقاتها بصوتٍ متعَبٍ ، متوسِّلٍ . «ساعة واحدة من النوم لا تكفي جسدي» .

«أَراجعتِ طبيباً؟» ، سألتها تاسو .

«نعم . لم يفهم العارِضَ الغريب ، ولم يوصِ لي بحبوب للنوم . هذه حالٌ ستأخذ مداها ـ قال لي» ، ردت زليخا .

«أنا أدرى من طبيبك بهذا العارِض ، يازليخا» ، قالت شتولا .

تدخلت درخو معترضةً بإحساسٍ وقائيٍّ :

- لاتقولي شيئاً يطحن أُمسيتنا ، ياشتولا .
«لا» ، ردت شتولا . تأمّلت وجه زليخا ذات العينين السوداوين :
- أردت أن أمزح ، لكن بلا إهانة .
رفعت زليخا كتفيها استسلاماً :
- قولي ما لديكِ ، ياشتولا . تعبي الثقيل يجعلني هادئة .
«حسناً» ، قالت شتولا . «إنَّه أَرَقُ البظر» .
وَلْوَلَتْ درخو مستنكرةً ، وهي تنظر إلى زليخا باحتراسٍ من ردٍّ فعلها .
تمتمت زليخا في هدوء :
- لابظرَ لي .
قرعت الأقداحُ الأقداحَ نَخْبَ أمسية الخريف في أسبوعه السادس ، باردةً قليلاً ، رطبةً ، ملجومةً ، ساكنةَ الهواء ، لكنْ صاخبة النكهة ، في الداخل : كثير من عَبَق القرنفل اليابس ، والقرفة ، وصمغِ المصطكى ، اندلق على الرئات ، من مطبخ ريحاني : أرزٌّ مُفَلْفَل عليه لوز وصنوبر مقليّان ، وأضلاع خروف بكامل استدارتها مشوية في الفرن بقليل من مَرَق اللبن .
«إملأن صحونكن ، في المطبخ» ، قالت ريحاني آمرةً .
تسللت الصديقات إلى المطبخ يملأن صحونهن . تململ أنفُ درخو :
«رائحةُ الحَمْضِ قوية ، في البيت» ، قالت فردت ريحاني :
- أظنني أكثرتُ من الخميرة في النبيذ ، هذه المرة . رائحةُ الحمَّام ، حيث أحفظُ آلة التخمير ، تزعج ابنتي رُوْنوش .
«لا تعتذري» ، قالت درخو . «سنشرب نبيذَك حتى لو تحوَّل دمُنا إلى خلٍّ» .
دخلت رونوش ، الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً ، إلى المطبخ . تلقَّفَتْها

النساء ، واحدة واحدة ، باحتضانها ، مع قُبلة على الصدغ . «أأملأ لكِ صحناً؟» ، سألتها أُمها ، لكن الفتاة أومأت بإشارة إلى الأمِّ تدعوها إلى اللحاق بها . تتبَّعت ريحاني ابنتها الممتلئة قليلاً إلى غرفتها . قادتها الفتاةُ ، الجميلة العينين السوداوين ، إلى النافذة : «انظري ، يا أمي» ، قالت .

كان شابَّان عاريان ، في نافذة إحدى شقق العمارة المقابلة ، المضاءة ، المكشوفة الستائر ، يتبادلان القُبَل بنَهم ، واقفيْنِ ، لايعنيهما من الفراغ ، الذي يلي نافذة شقَّتهما ، إلاَّ ما ينعكسُ من جسديهما عليه . كانا في برهة تلتهم فيهما الروحُ العماراتِ من حولها ، بأسنانٍ لحمٍ كحلمٍ لحمٍ .

«أسدلي الستارة على النافذة» ، هتفت ريحاني بابنَتها ، التيً بدت مبتسمةً ، مُسْتعْذِبةً ما تراه . كشَّرت لها عن أسنانها مهدِّدةً : «لماذا تبتسمين؟» .

جلست الفتاة على سريرها محتضنة آلة الكومبيوتر . تأمَّلتها أمها مستنكرة لِمَ لمْ تُسدل الستارةَ على النافذة . تقدَّمت بنفسها فأسْدلتها . عادت إلى المطبخ . ملأت صحناً وانضمت إلى صديقاتها حول المنضدة المستطيلة :

- هناك شابَّان يتناكحان .

جلجلتِ الكلماتُ متناثرةً فلفلاً أسود على الأرزِّ في الصحون .

«أين؟» ، سألتها سلام .

«في العمارة قبال نافذة رونوش» ، ردت ريحاني .

«سألقي نظرة» ، قالت تاسو .

نهضت ريحاني تستوقفها :

- مابك؟ . أسدلتُ الستارة .

«سأرفع الستارة سنتيمترين ، لا أكثر ، ياريحاني» ، ردت تاسو .

هرعت سلام تسبق تاسو إلى غرفة رونوش . لحقت بها شتولا ، ونازلي .

«ماذا تفعلن؟» ، سألتهن ريحاني مرتبكةً . لم تردَّ أيٌّ منهن .

تَتَابع دخول النساء إلى غرفة رونوش ، وخروجهن ، وسط ترحيب من عينيٍّ الفتاة ، وتسلٍّ بما تفعل صديقات أمها ، باستراقهن النظر من الشابين المنهمكيْنِ ، واقفينِ في الضياء الهَرِم للمصباح الكهربي الكبير فوقهما ، بتوريث أعضائهما طغيانَ الجابهات ، ملتفَّيْنِ أحدهما على الآخر ، نصفَ راقصيْنِ بأردافهما .

اكتملت شهادةُ صديقات ريحاني ، كلهن ، على المُعْلَن المُباح من نافذة ابنتها . لم يكترثن للاستياء في عيني صديقتهن : «ماذا تعتقدن أن ابنتي تقول لنفسها ، الآن ، عنكنَّ؟» ، قالت ريحاني .

«هَوِّني عليك» ، ردت درخو . «إنها تقول لنفسها كمْ نحن مسلِّيات» .

«نحن شاهدات على أديان العالم الجديدة ، ياريحاني» ، قالت زنتانا . «اللواط . السحاق . أكل النبات ، لاغير . عمليات التجميل . التنحيفُ لتصير كل امرأة عارضة أزياء» .

«إنها أديان أفضل من أديان العالم القديم ـ عالمنا» ، علقت زليخا . أضافت : «أصحاب الأديان الجديدة لا يتذابحون من أجل معتقداتهم . لا يقتلون» .

«يعجبني منطقُك ، يازليخا» ، قالت شتولا .

نهضت شيراز عن الأريكة ، فجاءةً ، وهي لمَّا تزل تمضغ لقمةً . جلست على الأرض مستندة بظهرها إلى الحائط . «لاشيء» ، قالت ، وهي ترى صديقاتها يحاصرْنَها بأبصارهن .

«أهي عودة إحساسك بالطعنة ، وأنتِ في رحم أمك؟» ، سألتها زنتانا

الواسعة الفم .

هزت شيراز رأسَها من غير أن تعني شيئاً . «أنا عائدة بعد تسع ثوان . لا تلتهم إحداكن صحني» .

لاتعرف شيراز كيف استطاع جسدُها ، في رحم أمها ، أن يرتِّب لخيالها صوراً . قد يذهب بها الزعمُ أنها رأت نصل المدية يغور ، وَمْضاً ، واضحَ المعدن ، في وَرْكها اليمنى ، ليصيب عظم حرْقَفَتها ؛ وأن العظم أُزيحَ قليلاً عن موضعه .

في أي شهر كانت شيراز من حمْلِ أمها بها؟ . لايهم . مات أبوها رحمان رحماني بعد أحد عشر شهراً من الزواج بأمها مَرْمَر . تركها حاملاً تحت بصر نَظْمي أُسْمان ، الذي خذلتْ مرمر شراعَ الرجل فيه إذْ خطبها قبل زواجها من رحمان ، فرفضته . تمالك نظمي ، الجارُ العاشق المخذول ، قَدَرَ قلبه المتخلْخل ، فعاد ألى سؤال مرمر بكلماتٍ حملتْها أختُه إليها : «تزوَّجي نظمي . سيعتبر الجنين ، الذي في أحشائك ، من صُلبه . سيهتم بكما» ، قالت ، فردت مَرْمر :

- مابه أخوكِ؟ . لم أضع حملي بعد . ولم أقرر إن كان الوليد ، الذي في رحمي ، يحتاج إلى أبوَّة نظمي .

مدية قصيرة النصل غارتْ ، حتى المقبض ، في بطن مرمر . يدُ نظمي جـمعت خـذلانَ أربعين ألف قلب في الطعنة . ترك المدية في بطن المرأة الحامل ، وتوجَّه ذاهلاً إلى مخفر الشرطة في بلدة دَيْرِكي : «لقد قتلت امرأةً مرتين ، اليوم» .

كان الفصل ربيعاً ـ تزعم شيراز . تشمَّمتْ عبقَ السوسن البري من الشّقِّ الذي أحدثْه المدية . وكان الوقت قبل المغيب : شعاعان رماديان عبرا الشقَّ في بطن أمها ، حين سُحِبت المديةُ ، فلامسا عينيها المغلقتين .

لم تمت مرمر . تزوجت مَجيد شَتُّو الأرمل ، بعد سنتين من وضع ابنتها شيراز ، ذات الجرح الظاهر على وَرْكها اليمنى .

في التاسعة من عمر شيراز ، تدبَّر زوجُ أمها للعائلة ، المكوَّنة منه ، ومن الأم ، ومن شيراز ، وأولاده الثلاثة من زواجه الأول ، رحيلاً إلى السويد . تركوا خلفهم بلدةَ دِيْركي عائمةً على رغوة من صابون زيت الغار .

في العشرين من عمرها استوردت شيراز زوجاً من بلدة دِرْباسية ، بشمال سوريا ، هو ابن أخي زوج أمها : وِسَام شَتُّو . متخرج من جامعة دمشق بشهادة في اللغة الإنكليزية ، وهي اللغة التي سهَّلت عليه نقْلَ مملكة السويد إلى جهة دفاعاته .

أنجبت شيراز من زوجها وسام ابنَها جوهر ، وأخاه حُسني ، وأختهما زابو . انفصلا من دون طلاق ، وهي في الثامنة والعشرين ، بإحساس منه أن زوجته ، منذ الأيام الأولى من إقدامها على الدخول مترجمةً عن الكردية ، إلى أروقة دائرة الهجرة ، تستعذب الهاتف ، الذي لاينقطع رنينه في البيت ، من ستيفان لُوْندغرين ، المحقق السويدي الناطق بألفاظ متفرقة من اللهجة الكردية الكرمانجية .

إحساس وسام شتو لم يخِبْ : منذ فراقهما ، باتت شيراز صديقةَ فراش ستيفان ، وصديقة سهرات نهاية الأسبوع معه ، أربع سنين . ثم نَمَتْ بذرة الرتابة شتلةً باردةً في مخاطباتهما . خفتت نبرةُ جسديهما في كَيْلِ الأناشيد لذَّةً أحدهُما للآخر . لم يعد عُريُهما عُريَ رجل أمام امرأة ، وعري امرأة أمام رجل . بات الأفضل ألاَّ يتعرَّيا .

انفصل الصديقان . كانت شيراز حاضنةَ أطفالها الثلاثة حتى ذلك العام ، مع بعض العون من أبيهم وسام . لكنها قررت أن تتخفَّف من بعض الأثقال بموجب القانون الاجتماعي الناظم للعلاقات الأُسرية التي تصمد :

- ألا تخشى أن ينزلق بنطالك عن حوضك، في الشارع؟ .

نظر نوح إلى عينيها الخضراوين، المشوبتين بصُفرة. ردَّ:

- ممنوع أن ينزلق.

حولت شيراز وجهها صوب نازلي، المنهمكة في حديث مع درخو. تحدثت من غير أن تنظر إلى نوح:

«أهناك ما يمنع انزلاق بنطالك؟». عادت ببصرها عن أمه إليه: «ألك صديقة؟»، سألته.

«كانت لي صديقة»، ردَّ نوح.

«أينَ هي؟»، سألته.

«ذهبت إلى تايلند منذ أربعة شهور، في رحلة جماعية، ولم تعد»، قال نوح.

- أتُهاتِفُك، يانوح؟ .

- لا.

- ألا تهاتفُها؟ .

- لا.

- هل تظنُّ الأمورَ انتهت بينكما؟ .

- صِدْقاً، لا يهمني.

- هي صديقتك، يانوح.

- كانت صديقتي.

- لا يهم، يانوح. فتيات كثيرات يتمنَّيْنَ لمسَ نِطاق سروالك الداخلي.

ابتسم نوح. جذب نطاق بنطاله أعلى قليلاً بيديه، وقد أبقى أسنانه مُطبقةً على فم زجاجة الماء الغازيِّ. باغتتْه شيراز بسؤال ملتبس:

ـ ألا تفضِّل صديقة ناضجة ، غير هؤلاء المراهقات؟ .

أبقى نوح عينيه على وجه شيراز منتظراً إضافةً مًّا ، فلم تتأخر الإضافة :

- أتصارح أمك بكل شيء ، يانوح؟ .

«أمي» ، تساءل الشاب . «مَنْ يصارح أمَّه؟» .

«دعني أسألك التالي . أبقِه بيني وبينك : هل نمت مع امرأة أكبر منك؟» ، سألته شيراز ، وقد أحست ضيْقاً في نَفَسِها . أبقت عينيها ثابتتين على عينيه الواسعتين بأهدابهما الشبيهة بالمراوح . تسارعَ نبضُ قلبها . دلقت في بلعومها قَدَحاً من الجعة باتت دافئة من حرارة يدها .

«لا» ، ردَّ نوح . دار بوجهه إلى حيث تقف أمه ، على بُعد أمتار قليلة ، فأدارت شيراز وجهها إلى نازلي . ارتبك شيء مًّا في خيالها . بدَّدت الارتباكَ المفاجىء ، الخافت ، بسؤال لامعنى له :

- أتحبُّ وضْع عُصابة حول رأسك ، يانوح؟ .

«ماذا؟» ، تساءل نوح .

«عُصابة . أحيط رأسي بعُصابة حين أدرِّب المشتركات في النادي الرياضي على التمارين البدنية . عُصابة جميلة» ، قالت . أضافت : «كلهن نساء بدينات . لا رجال» . زفرتْ بقيةَ هواءٍ ظلَّت محتبسةً في مكان ما من رئتيها .

«لم أُحِطْ رأسي بعُصابة ، قَبْلاً» ، قال نوح .

«انتظرْ» ، همست شيراز . مضت إلى سترتها الطويلة ، المُعلقة إلى مشجب في ردهة القاعة الكبيرة . أخرجت شيئاً من جيب السترة ، وأقْفَلتْ راجعةً . أمسكت نازلي برُدْن قميصها الأسود ، الخريفيِّ . أجفلت شيراز .

«كيف حاله؟» ، قالت نازلي مشيرة بعينيها إلى ابنها نوح . «هذه أول مرة أراه يصغي إلى صديقة لي . عمَّ تتحدثان؟» .

«عن هذه» ، فتحت شيراز راحةَ يدها عن عُصابة أنيقة ، حريريَّة الملمس حتى لو لم تُلْمس : «أظنها ستليق برأسه الحليق» .

مطَّت نازلي شفتيها استغراباً ، واستخفافاً : «نوح بعُصابة حول رأسه؟ ما هذه الفكرة الخرقاء؟» .

«ربما . أووه» ، قالت شيراز كأنما تشاطر صديقتها أن الفكرة خرقاء حقًا . «لا أعرف . خطر لي ذلك بلا تفكير . أحب هذه العُصابة» .

«لم أردْ إحباطك ، ياشيراز» ، قالت نازلي بلسانٍ تصنَّع شعوراً خفيفاً بالذنب . لَكَزَت خاصرة صديقتها : «أعطيه العُصابة . ربَّما لفَّها على قضيبه» .

ارتعدت شيراز ، أو تصنَّعت رعدةً . همست توبِّخ نازلي :

- عليك اللعنة .

«قضيب؟ . سمعتُ من يلفظ ذلك» ، قالت تاسو مقتحمةً حديثَ الصديقتين ، فدفعتها نازلي من كتفها ، في رِفق ، تُبعِدها : «عودي إلى تصريحاتك عن فرْج مفقود . ألست تتكلمين عن فرْج مفقود؟ فَرْجُ مَن؟» .

انسلَّت شيراز صوب نوح ، تاركة نازلي وتاسو في جدلهما عن قطعة مفقودة من لحم مقدسٍ مدنَّس ، إلهيٍّ شيطاني ، سماوي أرضي ، حاكمٍ عبدٍ ، لكنه لحمٌ أُمٌّ لكلٍّ ما لا يُوصف .

وضعت شيراز العُصابة الحريرية الملمس في يد نوح ، مُرْفَقَةً بلفافة من نقودٍ ورق . فتح الشاب عينيه على وسعهما محدِّقاً إلى شيراز ، التي التفتت إلى صديقاتها المُبعثرات مع أولادهن ، على بُعْدٍ قليل . تمتمت من غير أن تنظر إليه :

- أتريد شخصاً تحب أن تتحدث إليه ، يانوح؟ .

استدارت بوجهها صوبه ، مطمئنة إلى غفلة الأعيُن المنشغلة . تأمَّلته بقلب مرتبك .

«عمَّ أتحدث؟» ، تساءل نوح .

لم تجد شيراز جدوى في محاورة تبدو فارغة . ذهبت مباشرةً ، بلسان جاف قليلاً ، إلى ما ينبغي الذهاب إليه :

- أتحب أن تكلمني؟ أعني : اتَّصلْ بي هاتفيًا ، إذا شئت .

أدار الشاب بصره على القاعة يستجمع ، قَدْرَ استطاعته ، مراتبَ الخفيِّ في كلمات شيراز ، التي تراجعت خطوةً كأنما ستهرب من نفسها . أخرجَ هاتفَه المحمول من جيب بنطاله . وسَّعَ ذاكرةَ الدليل في آلته الصغيرة : «مارقم هاتفك؟» .

تفجَّرت الكواكبُ كلها ، مختلِطةً تعيد البدءَ الكونيَّ إلى يقظته ، في سرير شيراز ، تلك الظهيرة التي تعرَّت فيها لنوح . مدَّت إليه عُصابة هي أخت العصابة الأنيقة ، الحريرية الملمس ، التي أهدتْهُ : «ضعها حول رأسك ، واقتلْني» .

عُصابة بيضاء يتوسطها ، في موضع الجبين ، عَلَم الدانمارك . عصابة رشحت عَرَقاً ثلاث مرات من مسام الصليبِ الحريرِ ، المُدخَّنِ حُمْرةً . دوَّخ المنيُّ رُسُلَ جسدها بآيات من وحي خياله العريق : لقد أطاح دِيْنُ لحمها ، في نشوته ، بأديان الأبدية .

كانت شيراز مُمتنَّة لعافية السماء تحت جلدها ، تلك الأمسية في شقة ريحاني ، بعد ساعتين ، أو أكثر قليلاً ، من تبديل نوح للزمن في أعماقها ، بقضيبه ، إلى عَدْلٍ من لحم . جلست إلى جوار نازلي ـ أمِّ دينها المُوحى من خصيتين قويتين . صاحتْ ريحاني ، فجاءة ، وهي تخشخش

بالسلسلةِ الذهبِ السميكة ، على صدرها : «خمسة وأربعون طفلاً اختفوا البارحة» ، قالت بلا ترتيب للخبر على وجهٍ مفهوم .

«اختفوا؟ أين؟» ، ساءلتها سلام .

«لم تُحضرهم أمهاتهم إلى دار الحضانة . يغيب واحد ، اثنان ، ثلاثة ، عشرة أحياناً . لكنَّ الجميعَ ـ الخمسةَ والأربعين طفلاً غابوا عن الحضانة . مرضوا في يوم واحد . بقينا نحن الستّ الراعيات لا نعرف ماذا نفعل . قرأتُ لهن خطوطَ الحظوظ في راحات أيديهن . صرعتهُن بمستقبل مدوِّخ» ، قالت ريحاني ، التي توزعت ساعات كَسْبِها مَعَاشاً على بعض الزيارات لدائرة الهجرة مترجِمةً عن الكردية ، وعلى دوام متقلِّب ، ثلاث مرات أسبوعياً ، في دار صغيرة لحضانة الأطفال قريبة من بيتها . خشخشت بالسلسلة الذهب ، السميكة ، المتدلية من عنقها ، ثانيةً : «لم أعرف أن قراءة الكفِّ تثير فضولاً هائلاً في عقول نساء من هذا البلد» .

«أهُنَّ ، جميعاً ، سويديات؟» ، سألتها سلام .

«أربع سويديات ، وسيدة كوبية» ، ردت ريحاني .

«منذ متى تُحسنين قراءة خطوط الكفِّ ، يا إرهابية؟» ، سألتها تاسو .

«اخترعي أيَّ شيء . حتى التنبُّوء الأكثر تلفيقاً سيلمس مكْمناً مَّا . قلتُ لإحداهن : ستكون لك تجربة فضائية . ضحكت أولاً . ثم ظلت تتأمل راحةَ يدها عشر دقائق» .

سقطت ملعقة من يد شتولا على الأرض . رنَّ المعدن . شتمَتْ : «أكان ينبغي أن تسقطي ، ياقحبة؟» . انحنت تلتقطها : «آسفة» ، قالت اعتذارَها خافتاً .

«لله رائحةُ الماء» ، قالت سلام .

«واوو» ، هتفت درخو مُستظرِفةً . وضعت سلامُ الجملةَ في سياق

طرافتها : «قبل يومين كنتُ أترجم لعربي مُلتح من العراق ، أمامَ المحقق ، على رأسه خمار أبيض . قال إنه صابئي مندائيٌ . ابتدأ جملتَه : لله رائحة الماء» .

ربما بدأ الرجل الصابئي ، في زعم سلام ، جملته الأولى على نحوٍ يثير فضول المحقِّق . وقد بدا واضحاً أنه أنجزَ استدراجَه الرقيق بحكمةٍ مَّا .

«أهذا مُعْتَقَدُك؟» ، سأله المحقِّق ترجمةً عن لسان سلام .

«نعم» ، رد الصابئي .

«لا نسأل عن معتقدات ، عادةً ، بل عن أسباب طلب اللجوء ، وسيرة الطالب» ، قال المحقق .

توسَّع الصابئي في ترجمة وجوده إلى جرح في محيطٍ دينيٍّ ينظر إلى حقائقه بارتياب كبير . إلهُه ابتكر نفْسَه إلهاً بعِلْم خاص لا يعلمه سواه . أُمته تتعمَّد لا لتتطهَّر ، أو تغتسل ، بل لتكتسي جِلداً ماءً . هم يعمِّدون الدجاجة قبل ذبحها ، ويتوسَّلونَها المغفرة على فعلهم . لايريدون لإلههم أن يتوسع أبعد من قلب الصابئي . دِينُهم دِينُ كفايةٍ ، لايجيز غزواً ، أو انتشاراً لِيَسِمَ الأرضَ الأبعدَ بطبائع مُعْتَقده .

«اسألْيه» ، قال المحقق : «هل سبب طلبه اللجوءَ هو خوفه من اضطهاد يصيبه في محيطٍ يرى دينَه مُريباً؟» .

سألتهُ سلام . أوعزت إليه ، مُداورةً ، أن أيَّ زعم بالخوف من الاضطهاد ، بسبب مُعْتقده ، يساعده في تسهيل اللجوء . فقدَّم الصابئي مرافعَةً قصيرة تحيِّر المنطقَ : «بالطبع ، هناك مايجعل صابئيًا مثلي قَلِقاً في محيط ينظر دِينُه بارتياب إلى ديني . لكنني أقدمت على طلب اللجوء بدافع أكبر : أن أصيرَ أقربَ إلى الله . نصلي بوجوه إلى الشمال . لاإله إلاَّ في الشَّمال . ها أنا أشمُّ رائحة الماء» ، قال .

«لا أظنه يشم شيئاً غيرَ رائحة حَمْض نبيذ ريحاني ، في السويد» ، قالت شتولا . نظرت إلى ملعقتها : «لماذا لا تسقطين ، ياقحبة؟» .

«لماذا تشربين نبيذ ريحاني الحامض ، ياشتولا؟» ، سألتها زليخا ، فنقرت شتولا حافة صحنها بالملعقة :

- فلنسأل ريحاني ، أولاً ، لماذا تصنع نبيذاً ، وهي لاتشرب إلا الماء؟ .

«كم مرة سألناك ، ياريحاني ، عن هذا؟» ، قالت زليخا .

«لم يسألني أحد» ، ردت ريحاني باستخفاف .

«لم يسألك أحد؟» ، سألتها درخو مستغربة . «كل شخص في شارع ماغنوس أُوتو - شارع عمارتك ، يعرف جوابك ، ياريحاني» .

«ماجوابي؟» ، سألتها ريحاني .

«اسمعي» ، قالت درخو . «أمضى عمي ، أبو رابو ، جدُّ أولادي ، ثماني سنين جالساً بوجهه إلى النافذة ، قبل وفاته ، وهو يردِّد : سيأتي الأعداء من هنا . سألوه : لماذا سيأتون من النافذة ، وليس من الباب؟ ، فكان رده : الأعداء يأتون من النافذة . حاولوا إقناعه أن العمارة عالية ، ومجيء الأعداء من الباب أكثر يُسراً وسهولة ، فأصرَّ : لا معنى للأبواب . لا معنى للعمارات العالية . الأعداء يأتون ، أبداً ، من النوافذ» .

توقفت الصديقات عن الأكل ينتظرن ربطاً لحكاية درخو بجوابِ ريحاني عن عدم شربها النبيذَ ، الذي تصنعه ، أو أيَّ نبيذ آخر . رنَّ هاتف ريحاني .

«الآن؟!» ، تمتمت المرأة البدينة ، القوية القوام ، وهي تمسح يدها بمنديل ورق ، وتستخرج الآلة الناطقة من جيب في تنورتها السوداء غطاه طرفُ وشاحٍها الأصفر ، من جهة كتفها اليمنى .

«نعم» ، قالت بصوت لا ترحيب فيه . صمتت . قامت عن كرسيها ،

الذي توسَّط ـ أمام المنضدة ، كرسيَّيْ زنتانا ، وراوت . تراجعت باتجاه المطبخ . دخلتْه ، ثم خرجت منه في اتجاه الحمام . أغلقت الباب خلفها :

– لماذا تهاتفني الآن؟ . لماذا في هذه الساعة؟ .

توقفت عن الكلام باردةَ القلب برهةً . عادت إلى استنكارها المكالمةَ ببعض التوسُّل :

– أرجوك . كلِّمني غداً . أنت تعرف أنني لا أستطيع التحدث الآن . ماهذا؟ . غداً . لن أتكلم أكثر .

خرجت من الحمام وقد أقفلت هاتفَها ، وأقفلتْ صوتَها أيضاً .

نظرت إليها صاحباتها في فضول ، وهي عائدةٌ بوجه يستثير الفضول حقًّا ، ممتقعة قليلاً ، تهتز شفتُها السفلى الممتلئة .

«تبدو المكالمةُ مُملَّحةً جداً» ، علَّقت تاسو .

جلست ريحاني على كرسيها . فتحت فمَها ثم أغلقته سريعاً لأنها لم تجد صوتَها . ابتسمت . ارتشفت ماءً من القدح . استعادت بذرةً مَّا من تراب لسانها ، وهي تجول ببصرها عليهن : «ماذا؟» . بدتْ حاسمةً في نبرتها أنها لا تريد تعليقاً منهن على ارتباكها الظاهر .

غيرت راوت الحديثَ . دفعتْه باتجاهٍ لاتوتُّر فيه ، لا توقعاتٍ مُحْبِطةً ، لا ارتباكَ ، لا تطفُّل على أعماق قد تغدو حذرةً في برهة مَّا :

– كم أُمَّةً انضمَّت إلى مؤيدِّيْكِ في تغيير اسم الشارع ، ياتاسو؟ .

تألَّق شحم تاسو تحت ثيابها طَرَباً . ارتجَّ إذْ هزَّت جذعها في مجلسها على الأريكة الزرقاء ، على جهة من المنضدة :

– عدا الأكراد ، والشخص السويدي ، والآخر اللاتيني ، ثمَّت اسمٌ يوناني ، واسم آسيوي .

تحسَّست جيوبها . أمسكت بها درخو الجالسة إلى يمينها ، مقاطِعةً :

- لاتقولي إنك تحملين ورقةَ التأييد في سروالك الداخلي .

«لا» ، ردت تاسو . «نسيت أن أجلبُها . لكنني متأكدة من اسم يوناني ، واسم آسيوي . بات إحصاء العدد صعباً . عليَّ التهيُّوء لترتيب لقاء في ساحة رِنْكبي . ستهتز الساحةُ كشحم ردفيَّ» .

«ستكونين الأولى ، التي تمهِّد للسويد دخولاً إلى الخلود : السويد الخالدة في الفردوس الكردي» ، قالت شيراز .

«حمدًا لله أننا لا نملك وطناً» ، قالت سلام .

«مالذي يوجب حَمْداً منك ، ياسلام ، على هذا؟» ، سألتها زليخا ، فردت المرأة الصغيرة الثديين ، ذات العطر القوي :

- لاصداعٌ ، لامهاجرون يطلبون الجوء .

«أإن امتلك شعبُك وطناً ، سيأتي من يطلب اللجوء إلى بلدٍ كرديٍّ ، ياسلام؟» ، سألتها شتولا ، فردت سلام :

- العاهرات .

«العاهرات؟ لِمَ العاهرات؟» ، سألتها شتولا ، فردت سلام :

- الرجال الكرد يضجرون سريعاً من زوجاتهم .

«وماذا عن زوجاتهم؟» ، سألتها درخو .

رنَّ هاتف ريحاني من جديد . أخرجت المرأة الكثيرةُ الخواتم هاتفها من جيب تنورتها . استطلعتْ رقمَ المُتَّصِل بها . نهضت عن كرسيها في حركةٍ أفقَدَتِ الكرسيَّ اتِّزانه فكاد ينقلب لولا إمساك زنتانا به .

غادرت ريحاني الصالة ، والهاتف لما يزل يرنُّ في يدها . سُمعَ صوتُ باب الحمَّام يصطفق عنيفاً في دخولها إليه .

سبْتُ النساء

«أي سكين هو الأفضل؟» ، همست رُوْنُوش ، ذات السنوات الخمس ، إلى أختها رُوْنو ذات السبع .

«المنشار . السكين المنشار» ، ردت رونو .

قرقعت السكاكينُ في دُرْج من أدراج المطبخ ، على صوتِ صراخٍ جعلت الطفلتين أكثر ارتباكاً في بحثهما .

«اجلبا سكيناً ، يا ابنتيَّ الشيطان» . هكذا جاءهما صوتُ الأم ريحاني مختنقاً ، مضطرباً ، مذعوراً ، من صالة الشقة .

أوقفت رونوش أختها عن حَمْل السكين المنشار . أرتْها سكيناً عريضاً : «هذا أفضل» ، قالت .

«منذ متى تعرفين أي سكين أفضل للذبح ، يارونوش؟» ، سألتها أختها الكبرى . جمدت برهةً . تأملت السكين العريض . «نعم . هذا السكين أفضل» ، قالت رونو . رمت السكينَ المنشار من يدها فوق مصطبة المطبخ المعدن ، الممتدة ، عبوراً على سطح آلة غسل الآنية ، حتى حافة الفرن الكهربي .

«انتظري» ، همست رونوش ، وقد استلّت سكيناً طويل الشفرة ، رقيقاً ، كسيفٍ صغير : «هذا يذبح أفضل من ذاك» ، قالت .

ارتجفت الصغيرتان ، في برهةٍ من مفاضلاتهما بين السكاكين ، حين

سمعتا انهيار خزانة في صالة البيت . زلزلَ الشقة كلَّها صوتُ ريحاني : «أعطياني سكيناً» ، قبل أن تتأوَّه باختناق .

جمدت الصغيرتان ، وهما تتأملان السكينَ الرقيق الشفرة . حوَّلتا بصرهما إلى الدُّرج المفتوح ، مستعرضتين أصنافاً أخرى من السكاكين فيه .

تناولت رونو سكيناً آخر ـ ساطوراً قصيراً لفرم الخضار : «هذا يقطعُ أفضلَ» ، قالت .

«فلْنُسرعْ» همست رونوش ، المرتدية منامة صفراء ، مرقَّطة ، وخُفين على شكلَيْ أرنبين بآذان مرتخية .

«أمسكي بهذا السكين» ، قالت رونو . وضعت السكينَ الساطورَ في يد أختها الصغيرة . نبشتِ الدُّرْجَ ، ذا الأقسام البلاستيك المتفاوتة اتساعاً ، بحسب أحجام السكاكين . «أمسكي بهذا أيضاً» ، قالت ، وقد أخرجت سكيناً رهيف الشفرة ، يشرِّح اللحمَ رقيقاً كالورقة ، ويسلخُ الأغشيةَ بِحذْقٍ كقَطْع الجُبْنة .

أمسكت رونوش بالسكينين في راحتيها الصغيرتين . ارتعدت إذْ بلَغَها صوتُ سقوط جسد على الأرض . صراخٌ محترق لسع مسمعها ومسمع اختها الماضيةِ في اختيار سكين آخر من الدُّرج الثاني في الستة الأدراج ، الحاوية ملاعقَ عادية وملاعقَ شوْكاً ، ومغارف ، ومَبارِش ، وخفَّقات بَيْض ، ومصافي صغيرة ، وأضواء كهربية ، وأكياس بلاستيك ، ولفائف ورق معدنيٍّ ، وبطاريات شتى ، وأسياخاً خشباً رفيعة الحجوم ، وأوراق غار في كِيس ورق ، ومغلَّفات شفيفة تحوي توابل من كل صنف .

«خذي هذا» ، قالت رونو ، وهي تمد إلى أختها ملعقةً شوكةً كبيرة الأسنان .

«هذه ليست سكيناً ، هذه ملعقة شوكية» ، قالت رونوش .

ارتجفت رونو من زعيقٍ قوي عبر باب المطبخ . أعادت الملعقةَ الشوكية إلى الدُّرج . بحثت بعينيْ قلبها المذعور عن شيء أكثر فتكاً . لمحت مطرقة صغيرة لطَرْقِ اللحم ، ذات بثور معدنٍ لَمْعْسِ شرائح البقر القاسية الألياف ، وتليينها . حملت المطرقةَ . قلَّبَتْها أمام خيار بصرها . ارتجفت من صراخ أمها بهبوبه من الصالة إلى المطبخ ، ثانيةً : «أين السكين ، يا ابنتيِّ الشيطان» .

سقطت المطرقة الصغيرة من يد رونو . غطَّى على رنينِ سَقْطتِها عواءٌ أَعقَبه تهشُّمُ زجاج . تقدمت الصغيرتان خارجتين من باب المطبخ ، تحمل كل واحدة سكينين في يديها . توقَّفتا على بُعد أشبار من أريكة زرقاء لن تبدِّلها ريحاني قبل إحدى عشرة سنة قادمة . ارتجفتا متلاصقتيِّ الكتفين ، شاحبتين ، معتَصَرتيِّ القلبين : كان أبوهما عَادِيْ رَامَشْ يضرب رأسَ أمهما ريحاني بآلة التحكُّم في التلفاز متفسِّخة قسمين في يده ، وهي جاثية على ركبتيها أرضاً ، تتَّقي رأسها بذراعيها فيُباعد عَادِيْ بينهما ليتيح لنفسه انهيالاً جديداً عليها . ابتعد عنها قليلاً . رمى رأسها بالآلة من عليائه فانفلقت الآلةُ السوداء ، الخشنة ، ذاتُ العيون ـ الأرقام ، والإشارات . ركلَ ريحاني بقدمه فتهاوت إلى الخلف مرتطمة بمستطيل خشبي استقرت عليه آلة تسجيل ، وشرائط موسيقى . تناثر كلُّ شيء أرضاً . شدها من شعرها الأسود ، الفاحم ، الطويل ، ملء قبضتيه فرفعها عن الأرض . ألمٌ لن تنساه ريحاني ثمانية عشر يوماً ، كأنما تسرَّب هواءٌ إلى فراغٍ أحدثَهُ الشدُّ بين جلد فروتها وعظم الجمجمة .

ارتفعت ريحاني واقفةً من جذْب عادِيْ لشعرها . التقت عيناها الزائغتان بعيون صغيرتيها لُمحاً ، فأرَيَتاها سكاكينهما لُمحاً مرتجفتيِّ الشفاه عن فميْنِ ملجومين .

ثقيلاً نزل مشهد العراك القاسي بتفاصيله، كالإبر، على خيال ريحاني، صباحَ الإثنين، الذي أعقب أمسيةَ السبت الأنيسة في بيتها مع الصديقات، وهي تودِّع ابنتها رونوش، ذات الخمسة عشر عاماً، مغادرةً إلى المدرسة. ألقت نظرة من النافذة على غيوم مشقوقة جروحاً، بسكين، تقطرُ منها شعاعات لاتلبث أن تجفَّ، في مطلع الأسبوع السابع من خريف السويد. لمست هاتفها المحمولَ صريعاً على المنضدةِ المستطيلة، الخاضعة لإشراف الأريكة الزرقاء، متردِّدةً. عادت إبرُ مشهد العراك القاسي تَخزُ خيالَها: زوجها عَادِيْ يتمتم بفم مزبد: «ذهَبٌ. ذهبٌ»، وهو يخرج قَدَّاحاً من جيبه: «سأحرقك»، قال. أشعلَ شعرها، فولولت ريحاني تضرب رأسها براحتيها فأخمدت الحريق الصغير. ركضت باتجاه الباب. نظرَ عادي إلى ابنتيه. نادى رونو: «هاتي السكين، سأذبح هذه القحبة»، قالَ، فسقطت السكاكين الأربعة من أيدي الصغيرتين وقد تخدَّرت رعباً. توسَّلت رونوش: «لاتقتلْ أمي». أفاق قلب ريحاني على صوت ابنتها الصغيرة. ارتدَّتْ على زوجها فاقتحمتْه بجسدها الممتلىء القويِّ القوام، فترنح منهاراً على طرف المنضدة المستطيلة. اعتلتْه ريحاني واضعةً ركبتها على صدره بحقد ألف قلب: «أعطياني سكيناً»، قالت صائحةً. بكت الصغيرتان، في البرهة ذاتها. «لاتقتليه، ياأمي»، قالت رونو.

أحست ريحاني عَرَقاً بارداً بين ثدييها، صباح ذلك الاثنين، بعد عشر سنين من العراك المهين. «ذهبٌ». تشتري ريحاني الذهب. تحبُّ الذهب الأكثر ثقلاً في عنقها، فيما تكتفي لأصابعها بالخواتم الفضة. منذ السنة الخامسة من زواجها أضافت دَخلاً، من الترجمة بالكردية للمحققين في دائرة الهجرة، إلى دخلها من رعاية الأطفال في حضانة قريبة من البيت. غير أنها اعتبرت ما تجلبه لنفسها من بيع النبيذ تحصيلاً

خاصاً بها ، تصرفه على شراء الذهب .

صديقة من أقصى الشمال السويدي جذبتها إلى شراكة سهلة في صناعة النبيذ المنزلي : ما من متَّسع في شقة آنْ ـ شارلوت لآلة تخمير ثالثة . طلبٌ متزايد على نبيذها من معارفها الفنلنديين ، وبعض البولنديين . تسويقٌ سهل بثمن سهلِ التحصيل . ليس على ريحاني إلاَّ اقتناء آلة تخمير في بيتها ، والنبيذ الذي تصنعه ستسوِّقه آن ـ شارلوت : لكل زجاجة ثمنها المعلوم تدفعه آنْ لريحاني . أما الثمن ، الذي تقطفه آنْ من بيع الزجاجة لمعارفها ، فذلك سرُّها الهشُّ إذا تحرَّى أحدٌ سِرَّها .

آلات التخمير مباحة للبيع قانوناً ، والخمائر مباحة للبيع . الاستهلاك الشخصي محفوظ لصانع النبيذ ، والجعة ، المنزليين . علَّمت آنْ ـ صديقتها ، وزميلتها في حضانة الأطفال ، سُبُلَ الإنتقال بالماء المعجزة إلى وعده السماويِّ نبيذاً . استقرَّت الآلة ـ الدَّنُّ ، ذات العشرين لِتراً سِعةً ، في ركن من حمام ريحاني الكبير .

ريحاني لم تتقيَّد كثيراً بالمواعيد المرعيَّة للقِطاف الإلهيِّ المُسْكر من الشراب النبيذ : تسوْدُ العَجَلةُ أحياناً . ينفد الصبرُ قبل اكتمال وعد الكيمياء ، أحياناً أخرى . لايهم ذلك ، مادامت نسبةُ الكحول موفورةً ، والشارب لا يموت .

آن ـ شارلوت ، البدينة قليلاً ، العذبة ، الشديدة البياض ، تصف النبيذ كزلَّة لسان من إبليس على ما يُضمر اللهُ ولن يقوله . إبليسُ التاجرُ الأكثر مهارة ، في الخيال الإنساني ، الأكفأُ تسويقاً لله ، على أي شكل ، أو سلعة ، بحسب الطلب . إنه تاجر خُرْدة ، وأثريات ، وروائعَ ، وعاديَّاتٍ يدوية الصنع أو آلية . النبيذ زلَّةُ لسان يستطيع الشاربُ انتحالَها كشرْعٍ كُليٍّ .

حين طلّقت ريحاني زوجَها عادي رامش ، بعد خمس سنوات وبعض الأشهر من ولادة ابنتها الصغرى رونوش ، البالغة خمسة عشر عاماً ، توقفت عن صنع النبيذ سنتين . آن ـ شارلوت غادرت السويد لتعيش تحت شعاع لايغيب من شمس كورسيكا ـ خليلةِ البحر المتوسط بلا حُظوة . لكن ريحاني عادت إلى نفْخ روح الخمائر في آلتها ، مستولدةً نبيذاً بلا دنس لصديقاتها لايدفعن عليه ثمناً غيرَ امتنانهنَّ أنهنَّ لم يَمُتن بَعْد .

تشمَّمت ريحاني نَفَساً خفيفاً من الحَمْض قادماً من حمامها ، أو عالقاً بجلدها مذ خرجت منه لوداع ابنتها المغادرة إلى المدرسة ، صباح ذلك الاثنين ، المتعلِّق بخيطِ حريرٍ إلى أمسيةِ سبتِ الأُنس في بيتها .

«ذهبٌ» . ستتكرر الكلمة في خيال ريحاني كذبابة عالقة بين الزجاج المزدوج لنوافذ السويد . كان الوقت مغيباً ، قبل عشر سنين ، أو أكثر بقليل ، حين انهال عليها زوجها عادي رامش ، بحقد قلبه المؤرَّق ، عضًّا بأسنان الألم المُهينة . «ماذا تفعلين بالذهب؟ لمن تشترين الذهب؟» . أفرغ صندوقاً صغيراً ، مغطى بالمخمل ، استخرجه من تحت مغسلة المطبخ ، في كيس . «أين تخبئين الأطنان الباقية ، ياقحبة؟» ، قال ، وسط رنين متواصل من جَرس البيت ، وقرع بالأيدي استياءً نقله الجيرانُ بصراخهم : «ماذا يجري هنا؟» .

«سأتهمك بسرقة حِليٍّ ومَصاغي» ، قالت ريحاني ، فرد الزوج باستخفاف : «سأتهمك بالدعارة» . استغلَّ الهدوء ، الذي أعقب صراخَ الجيران ، وقرْعَهم ، ليخرج من الشقة .

اتهمت ريحاني زوجها ، أمام الشرطة ، بسرقة حِليٍّ ومصاغ ، فرد زوجها ، أمام الشرطة إذِ جلبوه للتحقيق : «زوجتي تهذي ، أو أن عشّاقها يسرقونها» . كلامٌ يدفع كلاماً . تهمة تَجْبَه تهمةً . لا أكيد . هذا أقصى ما

تستطيع شرطة مهذبة أن تستقصيه ، مادامت القرائنُ غيوماً .

ظهيرة ذلك الاثنين ، الذي أعقب أمسية سبت الأُنس في بيتها ، جلست ريحاني على مقعد تحت شجرة البندق الفخمة ، المنكشفة الأغصان عاريةً ، تحتسي قهوةً من كوبٍ ورقيٍّ سميك اشترته من كشك لبيع النقانق ، قريباً في الاتجاه إلى دائرة الهجرة . نظرت إلى ساعة يدها . وضعت الكوبَ الورقَ جانباً . أخرجت هاتفها الصغير من حقيبتها . نقرت على أرقام مختارة بإظفر سبَّابتها اليمنى ، وانتظرت ردًا . جاءها الصوتُ من الجهة الأخرى للمسافة الصلبة في الآلة : «أتعرف ماذا فعلتَ بي؟ أنا مرتبكة منذ مساء السبت» ، قالت . لم تنتظر جواباً؟ «لماذا كلَّمْتني وأنت تعرف أن البيت مليء بصديقاتي ، يانوح ، وبينهن أُمك؟» .

اختارت ريحاني ساعة الظهيرة ، آن يكون التلاميذ في موعدهم مع قاعات طعام الغداء أحراراً ، لتكلِّم الشابَّ الصغير .

تريَّث نوح قليلاً في الإجابة ، ثم نطق :

- ربما لن أستطيع شرح الأمر كفاية ، الآن .

«اختصِرْ . قُلْ ماالذي دفعك إلى إحراجي ، حتى الموت ، مساء السبت؟» ، سألته ريحاني ، فردَّ الشاب ذو الأهدابِ المَراوح :

- كان أخي تُوْفُو يلمِّح إلى رغبته في شراء حذاء لكرةَ القدم .

«ماعلاقة هذا بمكالمتك إيَّايَ على هاتفي ، في بيتي؟» ، سألته ريحاني تتوسَّله العَجَلةَ في التوضيح . أردفت : «إختصِرْ . لم أفهم» .

«النقود لم تكن كافية ليشتري حذاءً لكرة القدم» ، قال نوح .

إبَرٌ جليدٌ وَخَزَت ركبتَيْ ريحاني . عضت لسانَها مصعوقةَ .

«ريحاني . أتسمعينني؟» ، سألها نوح ، فردت المرأة ذات العينين المتَّقِدتين ، المتحرِّكتين في كسلٍ ، بصوتٍ دَبِقٍ :

- إلى مَ تُلمِّح ، يانوح؟ .

«لاشيء» ، رد الشاب بصوت أنيق ، بريءِ النبرة .

رفعت ريحاني كوبَ القهوة الورقَ ، إلى فمها ، ثم أعادته إلى جوارها ، فوق سطح المقعد ، من دون أن تشرب . «ماذا أبلغكَ تُوفو؟» ، ساءلته ، فردَّ نوح :

- لا شيء سوى رغبته في الحذاء .

«ما ثمن الحذاء؟» ، سألته ريحاني ، فرد الشاب :

- لا تنزيلات ، بَعْدُ ، على أسعار الأحذية ، في هذا الفصل . ثمن الحذاء ٦٠٠ كرون .

قبل خمسة أسابيع ، على التقريب ، اتصل نوح بريحاني هاتفيًا . أعاد تذكيرَها بشكره على هديتها ، ليلة الأُنس في بيتهم .

«أأخبرت أمك بأمر الهدية؟» ، ساءلته ، فردَّ في صيغة مَرِحة ، لكنها تؤكِّد النفيَ ضمناً :

- لا أعتقد .

ارتجفت ريشةُ التوقُّعِ المُنْتَظَرِ ، الصغيرةُ ، في جناح الرغبة . قالت ريحاني بصوت جسدها :

- ماذا لو أقمتُ لك حفلاً ، يانوح؟ .

- حفلاً؟ أين؟ .

- عندي ، يانوح .

- من سيحضر الحفلَ؟ .

- لا أحد .

- ماذا عن ابنتيْك؟ .

- رونو لم تعد تسكن عندي ، تقريباً . رونوش لن تكون في البيت ، يانوح .

- أيُّ حَفْل هو هذا الحفل؟ .

- حفل على أيِّ صورة تريدها ، يانوح .

تململ خيالُ نوح الساكنُ . تفتَّقتْ قشرتُه عن سُرْمان الحِيلة ، الذي يُسْعِدُ جسدَ ريحاني أن يحوِّم فوق قصب مياهه . قال نوح بصوت خافت :

- تمنَّيتُ حفلاً يغطيني فيه ، أحدٌ مَّا ، بشيء أشتهيه ، من عنقي إلى سرَّتي .

«ماالذي تشتهيه؟» ، سألته ريحاني مُستثَارةً ، فردَّ نوح :

- أوراق ٥٠٠ كرون .

ابتسمت ريحاني . سألتْه :

- أتريد الورقات مصفوفة طولاً ، أمْ عَرْضاً؟ .

«لا يهم» ، ردَّ نوح .

«سأغطيك» ، قالت ريحاني ذائبةً .

غطت ريحاني ابن صديقتها نازلي من عنقه حتى عانته بخمس ورقات من فئة ٥٠٠ كرون طولاً . لعقت جلدَه بلسانها ، تحت كل ورقة ، لتلتصق الورقةُ بجلده . تاهَ لسانُها نزولاً ، بعد لَصْقِ الورقات الخمس . تاهت ريحاني في النهايات الخالية من نقوش النقود .

مرتين زارها نوح ، في شقتها ، بترتيبٍ محسوب لاحظٍّ للمفاجآت فيه ، أي : حين تكون ابنتها رونوش في زيارة لأبيها وفْق موعدٍ معلوم . ابنتها الكبرى رونو ، ذات السبعة عشر عاماً ، شبه غائبة عن البيت ، عادةً . سِيرتُها المتعثرة في المدرسة أوقعتْ كلَّ من حاول إغراءها بعَالمٍ مَجيد ، إذا أكملت تحصيل العِلم ، في اليأس . التحقت بصديقها السويدي رِيْكاَرْد في محل بيع اسطوانات الموسيقى ، وألعاب الفيديو ، الذي تديره أُمُّه المنفصلة عن أبيه . تزور رونو أمَّها إذا دعتْها ، بإلحاحٍ وتوسُّل ، مع

صديقها الذي يكبرها بسبع سنين ، إلى العشاء . قد تُبْقيهما في الشقة ليلةً . لكن الأمر ، كلّه ، يتم بترتيب محسوب لا حظَّ للمفاجآت فيه .

في المرة الثانية من زيارة نوحٍ لريحاني ، بعد اكتمال تيه لسانها ، وعبورها البرازخَ على جلد الشابِّ بأقدامٍ من ورق النقود ، قدَّم نوح اعتذاراً قوَّض ، لبرهةٍ ، مادشَّنتْه ريحاني من سدودٍ الطاقة النَّقية للّذائذ على سيل عمرها :

– ليس لديَّ وقت كثير ، ياريحاني لأزورك . عندي دروسٌ متراكمة هذا العام .

أدرك نوح تخبُّطه في الإكثار من حروب جسده على جبهة شيراز ، وجبهة ريحاني ، وجبهة صديقة سويدية يلتقيها في نهايات الأسابيع ، على نحوٍ متقطِّع . لكنْ ، ترنَّح وجدانُه أمام عيني ريحاني المخذولتين :

– أنت رائعة .

«روعتي فِدى خصيتيك» ، ردت ريحاني يائسة على مجاملته المُمَزَّقة . أردفتْ بلسان عليه بعض الغضب :

– ما الروعة فيَّ ، يا ابن نازلي ، وأنت تدحرجني إلى مَرْطَبان المُخلَّلات؟ .

«مرطبان المخللات؟!!» ، تساءل نوح باستغراب . هزت ريحاني رأسها شفقةً على ما لا تريد توضيحَه لنفسِها المُنتكِسة :

– لا تخبر أحداً .

طوَّق نوح خصرَ ريحاني من وراء ظهرها :

– ماذا لو اقترحتُ عليك أخي تُوْفو؟ .

قال نوح كلماته الرطبةَ كتدبير مُمكن ، فانتفضت ريحاني . نزعت ذراعيه عن خصرها ، واستدارت إليه مُنْتهكَةً على نحوٍ مًّا :

- أيها الصغير .

تبلبل نُوح برهةً أمام ذلك الجموح المفاجىء في عينَي ريحاني ، كأنما أُهينتْ . لم يعرف أين أخطأ : «لستُ صغيراً» ، قال مُحتجًّا بصوت خافت .

«أنت تسكب عليَّ بنزيناً لتحرقني» ، قالت .

بدا نوح كأنْ لم يفهم . دار بعينيه على المنضدة ، والأريكة . تحسَّس جيبي بنطاله : هاتفه . محفظته . ساعة يده . آلة الموسيقى الصغيرة ، ذات السماعتين على جهتَيِّ الرأس . كلُّها معه . لا شيء منسيًا . اتجه صوب الباب ، وهو يومىء لريحاني مودِّعاً بكلمات لا عزاء فيها للمرأة المطوَّقة العنق بسلسلة ذهبٍ :

- أراك قريباً .

أمسكت ريحاني بكتفه ، في رفقٍ :

- ماذا تعني بهذا الاقتراح السخيف؟ أخوك توفو؟ . كم عمره؟ ست عشرة سنة؟ .

«ست عشرة سنة» ، رد نوح . أكمل تقدُّمه إلى الردهة حيث حذاؤه وسترته .

تقدَّمت ريحاني معه ، خطوة خطوة . لوَّحت بيدها استنكاراً :

- ما اقتراحُك هذا؟ كيف خطر لك أن تقترح عليَّ الهبوط إلى جهنم؟ .

«إلى جهنم؟!!» ، تساءل نوح . حاول أن يشرح رغبتَه في ألاَّ يتركها مخذولةً :

- أنتِ لطيفة ، ياريحاني . ربما لم يكن اقتراحي لائقاً . لكنني . .

لم تدعه ريحاني يسترسل أكثر . جرَّته من نطاق بنطاله :

- تعال . فلنتحدَّثْ جالسَيْن .

إنقاد لها نوح . جلسا على الأريكة الزرقاء ، السميكة القُماش . وضعت راحة يدها على صفحة وجهه اليسرى . تكلَّم جسدُها قبل لسانها :

- أهيَ دروسك ، حقاً ، ما سيمنع مجيئَك إليّ؟ . أتريد أن أغطيك بالورق النقود من شعرك حتى عقبَيْ قدميك؟ .

وضع نوح يده ، اعتباطاً ، على ثديي ريحاني ، ثم استعادها مرتبكاً ، فأمسكت المرأة ، ذات الشفة السفلى الممتلئة ، بيده ، ووضعتها ، ثانيةً ، على ثدييها . رفعت تنورتها السوداء حتى بطنها :

- خذني لمرة أخيرة .

تجرَّد نوح لريحاني بإنزال بنطاله حتى ركبتيه . نشر عليها غطاءً من لهاثه ، في الحَلَبة اللامرئية ، التي يجزم خبراءُ الجروح أنَّ كلَّ مُصارع دخلها لم ينْجُ من كسرٍ في العظم ، أو تمزُّق في العضل .

تقلَّبا على الأريكة الزرقاء . قلَّبتْهُ هيَ البدينة ، القوية القَوَام ، على الأريكة الزرقاء . لن يَرْوي جسدُها ، ارتجالاً ، في سياقٍ لا معنى له ، سيرةَ مقبرة المصارعين ، التي تكوَّمت فيها ، قبل ألفي عام ، جماجمُ مثقوبة ثقباً متشابهاً ، يزعم المحقِّق في جروح الترفيه عن الإنسان ، أنها الأصل الأول لفكرة قَتْلِ الجواد ، إذا أصابَه عطبٌ ، بطلقة في الرأس . سُدِّدت إلى جرحى الحَلَبات من المصارعين ضربةٌ بإزميل رأفةً كي لايدوم الألم . منذ ألفي عام شُرِّعَ الترفيهُ عن الألم بالألم . مصارعون كثيرون تساقطوا من حول ريحاني ونوح ، على جنبَيِّ الأريكة الزرقاء ، منتظرين رأفةَ الضربة الأخيرة .

صرختْ ريحاني لِذّةً . بكت لذّةً . تمتمت بصوتٍ هاذٍ :

- أرسلْ لي أخاك .

أفاقت ريحاني ، بعد ساعات من استعادة جسدها وعيَ حقائقه البـاردة . ارتبك قلبُـهـا الواقـعيُّ المُنْصِف في مـواجـهـة قلبـهـا الواقـعيٍّ اللامنصِف . تناقرتْ عدالتاهما . لمست بأُنْمَلة إصبعها السبَّابة أرقاماً على لوح الهاتف الصغير المُضاء . انتظرت برهةً . تكلَّمتْ :

- نوح . هل سألتك أن ترسل إليَّ أخاك توفو؟ .

«نعم» ، ردَّ نوح .

ارتجفت ريحاني من عقبيْ قدميها :

- أتعتقد أنني سألتُك ذلك؟ .

«بلى» ، ردَّ نوح .

- ماضمانة سكوت توفو؟ إنه في السادسة عشرة ، يانوح؟ .

«أنا الضمانة» ، ردَّ نوح .

- ماذا تستطيع أن تفعل إذا . . .

لم يدعها نوح تكمل جملتَها القَلِقة :

- أستطيع أن أفعل الكثير . لاتقلقي .

أرسل نوح أخاه توفو إلى ريحاني ، باتِّفاقٍ حَسَمَ الخيارات فيه :

- اسمعْ . ساذبحك ، ياتوفو .

- لِمَ ستذبحني ، يانوح؟ .

- عندي لك مهمَّة ، لو أخبرت بها أحداً ذبحتُك ، ياتوفو .

- لا أريد مهمة تذبحني عليها ، يانوح .

- لم تفهم ، ياحمار . مهمة لن أذبحك عليها ، إذا كتمْتَها ، ياتوفو .

- ماهذه المهمة ، يانوح؟ .

- اسمعْ . سأذبحك . سأحوِّل حياتَك إلى جوع . لن تدخل البيت إلاَّ

على صراخ . لن تخرج منه إلاّ على صراخ . لن تأتي بصديق إلى البيت . لن تأتي بصًديقة . سأهينك أمامها . لا ألعاًب فيديو . لا موسيقا هادئة ، أو صاخبة . هل أنت شاب ناضج ، ياتوفو؟ هل أنت شابٌ؟ .

فتح توفو عينيه الخجولتين ، الماكرتين قليلاً ، على وِسعهما ، محتاراً من تهديد أخيه . رفع كتفيه يائساً :

– ماذا فعلتُ ، يانوح؟ .

«لم تفعل شيئاً بعد . لكن ماستفعله لن يعلم به حتى الشيطان ؛ سيبقى بيني وبينك» ، أمسك بنطاق بنطال أخيه وشدَّه إليه : «أتريد أن تصير ثريّاً؟» ، سأله نوح .

– ثريّاً؟ أتعني نقوداً كثيرة؟ . كيف ، يانوح؟ .

– إمرأة .

– ماذا تعني ، يانوح؟ .

– إمرأة تجعلك ثريّاً . تعطيك نقوداً ، ياتوفو .

– إمرأة تعطيني نقوداً؟ لِمَ ، يانوح؟ .

«إذا . .» ، قال نوح ، مُكملاً إشارة النكاح الواضحة بيده .

بدا توفو منبهراً بفكرةٍ اعتصرت خياله . ردَّدَ كلمةَ أخيه الملجومةَ الصاخبةَ : «إذا . .» ، وأكملَ بيده ، أيضاً ، حركة إيلاج قضيبٍ في فرْج .

:نعم» ، قال نوح .

عاد توفو من شقة ريحاني بأربعمائة كرون عَرَضها منتشياً أمام بصر أخيه .

«أهذا هو كل ما أعطتك ريحاني؟ كم مرَّةً . .» ، غمز نوح أخاه ، فرد الشاب الصغير :

– مرتين .

«هذا مبلغ قليل» ، قال نوح .

«بل جيد» ، ردَّ توفو .

مدَّ نوح يده إلى ورقة من فئة مائة كرون :

- هذه لي . ستحصل ، ياتوفو ، على أكثر .

كان مُرْبِكاً أن تعرِّي ريحاني ذلك الشاب الصغير ، بتمهيد مُرْتبكٍ ، حين جاءها حاملاً وردتين حمراوان كزائر يعرف الأصول .

«ماذا تشرب ، ياتوفو؟» ، سألْته .

- ماء . بيبسي كولا .

- عندي جعة ، ياتوفو .

- شكراً . لا أشرب كحولاً ، يا . .

- نادِني ريحاني . كيف أُمك؟ .

- جيدة .

- جيدة؟ كيف ، ياتوفو؟ .

تناثرت نظرات الشاب على صالة شقة ريحاني بحثاً عن تفسير :

- جيدة . تدخن جيداً .

تراخت شفة ريحاني السفلى ، الممتلئة ، حين وضع توفو يده على ثديها . «أرجوك . لاتقُلْ لأحد» ، قالت . ردَّ : «لا» . استقرَّت يدها ، هيَ ، بين فخذيه . «لا تقُلْ لأحد» ، قالت مرتجفةَ الأهداب ، فردَّ توفو : «لا» . عَرَّتْهُ .

- لا تقُلْ شيئاً لأحد .

- لا .

قبَّلتْه بنَهم قُبلةَ الجسد الأصل ، الذي ابتكر للوجود أُبوَّةَ المجهول ، وأمومةَ المفقود .

- لاتقُلْ لأحد شيئاً .
- لا .
فاجأ أحدُهما الآخرَ بالعاديِّ ، المحيِّر ، المسحور .
- لاتقُلْ . .
- لا .
اعتنقَا دِيْنَ البرهة المائية مُمتزجيْنِ مائيَّيْن .
- لن تقول شيئاً لأحد .
- لن أقول شيئاً لأحد .
أراحتْ رأسَه فوق صدرها ، هادئيْنِ ، لايقدر شيءٌ أن يبعثر ماجمعه جسداهما من ذاكرة الأبديِّ .

تغاضت ريحاني ، ظهيرةَ الاثنين ، التي أَلْمحَ فيها نوح إلى رغبة أخيه في حذاء ، عن نبرة المساومة الخفيَّة ، اللاذعة . غفرَ جسدُها تنازل عقلها : ستمنح توفو ، في كل لقاءٍ ، ما يشتري به حذاء كرة قدم ، حتى لو رُصِفت معابرُ الأثير بالأحذية من براكين المياه في السويد ، إلى شلالات الجفاف في قامشلو ، التي غادرتْها وهي في الثانية عشرة . أخوها اصطحبها مع ابنتيه الاثنتين ، وزوجته ، مدعياً أنها ابنتهُ . ولما بلغت الحادية والعشرين ، استورد لها أخوها ابنَ صديقه في الحزب الشيوعي عادي جلال رامش ، الذي طلَّقتْه في السنة الخامسة بعد ولادة رونوش . اتَّخذت عشيقاً إيرانيًّا اسمه شابور ديلاميان ثلاثَ سنين . رمتْه ، في مطعم إيرانيٍّ ، بصحن من الأرزِّ يعلوه صَفارُ بيضة نيئة . كانت في الثالثة والثلاثين آنذاك . أكملتِ العبورَ ، وحيدةً ، سبعَ سنين ، إلى أربعين عمرها .

لم تستطع ريحاني ، أُمسية الأُنس ، التي جمعت الصديقات في شقة درخو ، من الأسبوع السابع للخريف ، أن ترفع عينيها عن نازلي . شحوب

نازلي بدا جميلاً . أنفها المحدَّب بدا جميلاً . فمها الواسع بدا جميلاً . شارع مَاريا فِيلْمَرْ ، الذي تقطنه نازلي وسط منطقة فَيْلِنْغبي ، بدا ساحراً في لفظه حين نطقت به صديقتها الطويلة ، أم نوح ، وتوفو .

قبل وصولها إلى شقة درخو ، أُمسيةَ الأنس ، خالت ريحاني أنها ـ ربما ـ لن تستطيع النظرَ إلى نازلي . لكنها ، إذْ جلست إلى جوارها ، جذبت قَدَحَ الجعة من يد صديقتها . تجرَّعت جُرعةً من الشراب المسحور ، هي التي لا تشرب كحولاً . صفَّقت لها الأُخريات .

«تبدين سعيدة ، ياريحاني» ، قالت نازلي ، فردت المرأةُ ذات الخواتم الفضَّة :

- أنا سعيدة ، كعِجْلَةٍ صغيرة في يوم ميلادها الثامن والثلاثين . أنا سعيدة كالسويد .

«لو أستطيع الرجوع إلى الوراء سنة بعد سنة ، لأصحِّح كلَّ خطأ فيها» ، قالت راوت ، وهي تلتهم شريحة من إحدى اسطوانات البيتزا الثلاث ، الكبيرة ، التي تدبَّرتها درخو ، بطلب على الهاتف ، وليمةً لصديقاتها .

«تعنين أن تصيري غيرَ موجودة» ، قالت شيراز .

«بل لأصيرَ موجودة كفرْج ماعزة لم يركبها تيسٌ» ، ردت راوت .

«مابكِ ، ياراوت؟» ، ساءلتها سلام .

«مابي شيء» ، ردت راوت محتدمةً قليلاً ، من غير سبب واضح . أضافت : «لم يعد في استطاعة إحدانا أن تحلم في حضوركن ، أو تصرِّح برغبتها في حلم» .

«ألديكِ أفضل من هذا الحلم ، ياراوت؟ أن تكوني معنا؟» ، قالت درخو بصوتٍ مازحٍ ، فردت راوت :

- هذا كابوس .

«كابوس؟ . سيبقى هذا الكابوس أفضل أحلامك» ، قالت شيراز بنبرةِ عَتَبٍ على وصْفِ راوت وجودَها معهن بالكابوس .

«ماهذا؟ ماهذا؟» ، صفَّقت شتولا . «مزاجُكن ، هذا السبت ، ليس على مايرام . عِرْقُكنَّ المُسْلم يحتَكُّ بعِرْقكن اليهودي» .

«أريد أن أكون مرتاحة . هذا هو سبتُ النساء» ، قالت زليخا ، كأنما تهدِّىء بصوتها ، من وراء عِطرها الصاخب ، ما لا تحوجُهُ تهدئةٌ . لوَّحت لها شتولا ، من مكانها حول منضدة الطعام المستديرة ، التي يمكن فصلُها قسمين بسهولة :

- كوني مرتاحة ، يازليخا . أستطيع الجزمَ أن أحداً مًّا سيُقسِمُ ، في القريب العاجل ، أن يحترم فرْجك .

«بحقِّ الله أبعِدْن عنا شيطانَ الكلمات» ، قالت درخو خائفةً من اشتباكٍ بين الألسنة ، وعراكٍ بين الأصوات ، لكِّن زليخا بدت هادئة :

- على أيِّ نحوٍ سيحترم فرْجيَ ، ياشتولا؟ .

«بتلقينه درساً في الغِناء» ، ردت شتولا .

ضحك بعضهُنَّ . تصنَّع البعضُ الآخر ضحكاً ، ثم انقلب الضحكُ ، ونصفُ الضحك ، إلى صَخَبٍ مُريح حين قهقهت زليخا ، ورفعت قدحَ الجعة نَخْبَ شتولا ، فبادلتها شتولًا النَّخبَ برفع قدح النبيذ الأبيض عالياً .

«ياللفُروج الناطقة» ، قالت تاسو توصيفاً للموقف .

«أنتِ ماذا ، ياتاسو؟» ، سألتها درخو ، فردت تاسو :

- أنا من يحدِّثها فرجُها ، أبداً ، عن زُبٍّ أبيضَ ، ورديٍّ ، أشقرَ ، سماويِّ اللون ، حِنْطيٍّ ، مُحَزَّز كرغيف الباغيت .

«ألا ينفعك واحد أسمر، أسود، طينيٌّ، رماديٌّ كرغيف الخبز الخالي من النَّشاء، ياتاسو؟»، سألتها درخو.

«لا»، ردت تاسو. هزت رأسَها أسفاً:

- فرْجي عنصريٌّ.

«ها عدنا إلى قمامة العقل»، قالت شيراز موبِّخة. «أما من حديث حقيقي يجمعنا، ولو لأمسية واحدة، يانساء؟».

ارتفع صوت المغنية الكندية جوني ميتشل في آلة درخو المكعَّبة، على رفٍّ تحت التلفاز الكبير.

«ماذا تفعلين بنا؟»، قالت تاسو مستاءةً من مغنية درخو ذات الصوت المتناثر في جَمالٍ موحش.

أسكتت درخو الصوتَ على مضض. غمغمت من حنجرتها الخشنة:

- أنتن في حاجة إلى إله.

«كل كائن، هنا في حاجة إلى إله»، قالت سلام.

«هنا؟»، ساءلتها درخو. «هنا؟ أين؟».

«في السويد»، قالت سلام موضحةَ.

«لا أعرف من هنَّ في حاجة إلى إلهٍ غيرَكنَّ، هنا. أنا واثقة أن السويديات ليست بهنَّ حاجة إليه»، قالت درخو. قضمت الطرفَ المحمَّص من حافَّة قوس البيتزا الباقية في صحنها: «من لهنَّ أردافٌ كأردافهن لسن في حاجة إلى إله». جالت ببصرها على صديقاتها واثقةً من أنْ لا تعليق. أضافت إلى كلماتها ثقةً عَصيَّةً على المَسِّ بها: «من لهن بشرات كبشرات السويديات لَسْن في حاجة إلى إله. مَنْ لهن ألوانٌ كألوانهن لسْن في حاجة إلى إله».

«مزَّقتِ قلوبَنا، نحن اليائسات، يادرخو»، هتفت زنتانا، وهي

تغمض عينيها الصغيرتين متصنِّعةً ألَماً . «أما زال الحزب الاشتراكي الديمقراطي يحتفظ بكِ مرشَّحةً للنيابة على قوائمه؟» ، ساءلتها كي تصرف خيالَ النساء عن مقارنات أعفتْهنَّ الطبيعةُ منها بين أجسادهن وأجساد شعوب أخرى أنصفتْها المصادفاتُ . لم تتوقف . استرسلتْ في مخاطبةٍ بدتْ بلا نهاية : «لا أسمع صوتَيْ نديم ، وغريتا . أين هما؟» .

«ألديك اسئلة أخرى؟» ، قالت درخو مبتسمة .

«نعم» ، قالت زنتانا . نهضت عن الطاولة المستديرةِ ، التي جمعتْهن بتمامهنَّ ، حولها ، متلاصقات : «هل وصلت الآلهةُ إلى بلداننا متعَبَةً؟» .

«وصلت بلدانُنا إلى الآلهة متعَبَةً» ، قالت درخو . أردفت :

– أنا زوجة زرادشت ، قتلْتُه بإعارته كلماتي .

«عمَّ تتحدثن ، هذه الأمسية؟» ، تساءلت شتولا . «أشعار» ، تمتمت ناعسةً نُعاس النبيذ مبكِّراً في قَدَحها . «أنتنَّ نساءُ أشعارٌ؟» .

تطلعت ريحاني إليها في حنان . أعادت بصرَها إلى وجه نازلي . أثبتت عينيها على عيني صديقتها الكبيرتين ، الدَّعجاوين ، في بوحٍ صامت .

لاحظت نازلي ذلك التحديقَ السُّكَّريَّ من ريحاني إليها . أحرجَها بصرُ صديقتها المُحَاصِرُ . حاولتِ التسلُّلَ من ثغرة مًّا ، في الكلمات ، خارجاً :

– لم أجد يوماً أكثر غيوماً متراكبةً من هذا اليوم . ستتشقَّق من تصادُمها .

رفعت ريحاني ذراعيها عالياً .

«ماذا؟ ستطيرين؟» ، هتفت شيراز وهي ترى ذراعي ريحاني المُرَفْرِفتَيْنِ : «لاتأخذي معك البيتزا» .

«أعطينني سُلَّماً» ، قالت ريحاني .

تطلَّعت إليها صديقاتُها متفحِّصات كلماتِها الظريفةَ . استرسلتِ المرأةُ ، ذات الشفة السفلى الممتلئة ، في توسُّلها العذب :

- أعطينني سُلَّماً لألتهم غيومَ السويد .

أحذية عالية الأعقاب. أو:
خيباتٌ عادلة.

«زهرة واحـدة تكفي لكي نرى زهرةً . هذا الحـشـدُ من الزهور ، في شقتك يازليخا ، يحجب عنَّا أن نرى زهوراً» ، قالت شتولا ، بتعليق ساخر من الاثني عشر أصيصاً ، الملآى زهراً أصفر من فرع أبيه الأقحوان الكبير ، على الرَّفين الرُّخاميين ، أسفلَ قاعدتيِّ النافذتين ، وعلى مصطبة المطبخ ، من جهتيِّ المغسلة ، وفوق البراد . «شقَّتُك معرض زهور» ، أضافت شتولا ، وهي تستعرض ، ببصرها ، المطبخ المفتوحَ على الصالة ، ليس بينهما إلاَّ حاجز بعلوِّ متر ، يمكن للصحون أن تعبرها طائرةً في الهواء إلى منضدة الطعام .

«زهرة مـثلك تكفي كي نرى زهرةً بيننا ، ياشـتولا» ، قالت زليخا . وضعت يدها على كتف صُغْراهنَّ سِنًا :

– أنتِ في بيتي . سأتغاضى عن أيِّ شيء منك ، هذه الأمسية . كوني حُرَّةً قَدْر ما تستطيعين ، وسأساعدك أحياناً إذا لم تجدي تعليقاً يثير أعصابي .

رفعت شتولا علبة الجعة من عيار ٦٪ كحولاً ، احتفاءً بالعقد النبيل بينهما .

صَحْفةُ باميا كبيرة ، عميقة ، مع أضلاع من لحم الضأن ، مُنكَّهة بحبوب كزبرة يابسة ، في مرق من رُبِّ البندورة ، توسَّطت منضدة الطعام

المستطيلة في شقة زليخا ، إلى جوار صحفة أخرى عليها هَرَم من الأرز . باميا تركية ، طازجة ، صغيرة كألسنة الدجاج ، حرَّضتْها صديقاتُها على إنعاش خيال بطونهنَّ بها . «نريد باميا ، يازليخا» . صبرُ المرأة ، الممسوحة الردفين ، في طهو الباميا ، لايَعدِلُه صبرٌ : تنظيف مفرط في الحذر بقَطْع الجزء العُلوي ، من كل حبَّة ، على شكل قِمْع سطحيٍّ لايصيبها بجرح قدَ تنزف منه الحبةُ صمغَها . على الصمغ ، الذيً تدعوه تاسو «مَنيٌّ الباميا» ، أن لايخرج من الثمرة . يد زليخا ، بسكينها الصغير ، الرهيف الشفرة ، لا تجرح الباميا . لهذا لاتخذلها الباميا إذا طُهِيَتْ في مطبخها .

سلام ، وحدها ، بدت كئيبة أمام رفاهة الصَّحْفتين الجليلتين وسط منضدة الطعام ، التي تحيط بها سبعة كراسيَّ من القش ، بحشايا قطنية سوداء للجلوس ، وحشايا مساند للظهر قطنية خضراء . كرسيَّان عاديان ، وقطعة خشب عالية ، مستديرة كسطل ، أكملت للعَشْر النساء مجلسهن في أمسية السبت ، من الأسبوع الثامن للخريف ، في مبنىً بشارع أُولافْ فريتيوفِيسْدُوْتر - الشارع الأقصر في منطقة شِيْستَا ، على تُخْمٍ من ستوكهولم .

«أيُّ إله يسمح أن يُخْلَعَ نصفُ أسنان امرأة وهي لم تبلغ الخمسين بَعْدُ؟» ، قالت سلام .

«أيُّ إله يسمح أن يُخْلَع فرْجُ امرأة ، وهي لم تبلغ السابعة والأربعين بعدُ؟» ، تساءلت تاسو أُسوةً بكلام صديقتها عن الأسنان . أردفتْ : «فرْجٌ مخلوع من مكانه هو الفرجُ الذي لايُستخدم» . أنزلت بصرَها إلى بطنها . «هيهْ . أنتَ . أين أنت؟» ، تساءلت . «أتسمعْنَ ردّاً؟ . لا . لا شيء بين فخذيَّ» ، قالت تاسو .

نفخت سلام زفيراً من فمها متأفِّفةً : «عرضتُ محنةَ امرأة مثلي في

أسنانها ، فجاءتنا تاسو بمحنة بظرها» ، قالت . هتفت محتدمة وهي تنظر إلى تاسو :

– أسناني ، يا امرأة . أنا أفقد أسناني .

لسعتهنَّ الحرقةُ في كلمات سلام ، فهزت تاسو يديها بإشارة اعتذار واضحة :

– هل أستطيع أن أعيرك جسرَ الأسنان ، الذي في فمي ، ياسلام؟ .

قهقهتْ آنساتُ الأمسية .

«دخلتُ السويد بأربعة أسنان ناقصة ، وأنا في الرابعة والعشرين» ، قالت راوت .

«دخلتُ السويد بأسنان زائدة عن اللزوم ، وأنا في السادسة والعشرين» ، قالت سلام متحسِّرةً . فتحت حقيبتها القماشَ المركونة إلى جوار كرسيها . أخرجت علبةَ تبغ .

«ماذا تفعلين؟» ، ساءلتها زليخا .

«سأدخن» ، ردت سلام .

«لم تأكلي بعد» ، قالت زليخا .

اعترضتِ الأخريات ، جميعهن ، بكلامٍ متداخل :

– كُلي ، أولاً ، ياسلام .

أعادت سلام ، الصغيرة الشذين ، علبة التبغ إلى حقيبتها . رنَّ هاتفها . «ليس الآن» ، قالت وهي تسحب الآلة الصغيرة من جيب بنطالها المخمل البنيِّ . قُرِعَ جرسُ الباب . «أووه . تأخَّر قوَّادا الأقنية الميتة هذان» ، قالت زليخا ناهضةً . هرعت إلى الباب مرسِلةً اعتذاراً من عينيها السوداوين الصغيرتين إلى صديقاتها .

«أهلاً . تأخرتما» ، قالت زليخا بالسويدية وهي تفتح الباب ، فردَّ

أحدهما بالكردية :

– لم أتأخر أنا . تأخر هذا الهندي .

«ادخلا» ، تمتمت زليخا . أردفت : «أجزم أنكما لستما جائعيْنِ» ، كأنما تُصْدر إيعازاً بوجوب البدء بالعمل ، فرد الكردي :

– أكلنا كباباً ، قبل قليل .

«ذلك زادكما تأخيراً» ، علّقت زليخا ، فردَّ الكردي :

– أكلنا لِفافتَيْ خبز بالكباب ، في السيارة . لم نضيِّع دقيقة ، يازليخا . الهندي تأخر في المجيء إليَّ .

أدخلَ مَعْصوم علبةً كبيرة ، رقيقة السُّمْك . أدخل مساعدُه الهندي سُوْنِيْل ماسورةً طويلة ، وصندوقين حديديين ، وأسلاكاً رفيعة من المطاط الأبيض . اتَّجها ، من فورهما ، إلى الشرفة المفرطة في صغرها ، من بابٍ في المطبخ يُفضي إليها ، كأنما يعرفان خريطةَ المكان .

«ماهذا الغزو؟» ، تساءلت درخو نيابة عن النساء كلهن ، اللواتي هطل على أمسيتهنَّ ، كالرذاذ ، شريكان لم تحذِّرهن زليخا من حضورهما بآلات تكفي لتفصيل يوم السبت ، من فجره إلى ليله ، على مقاس خصيةٍ مُضجرة .

«اللعنة» ، تمتمت زليخا معتذرة . «ليس لديهما وقت لنصب صحنٍ لاقط لأقنية التلفاز غير هذا المساء» . أبدت خجلاً من وجهها ، وتضرُّعاً : «لاتظلمنني» .

«تعالي اجلسي . لن نظلمك» ، قالت تاسو . التقمت بأصابعها حبةَ باميا ، وأتبعتها بحبَّة ثانية ، فثالثة ، سريعاً ، من صحنها : «ماذا لو احتجزْنا هذين الاثنين في إحدى الغرف ، يانساء؟» ، قالت . نظرت إلى سلام المنتحيةِ رُكناً قرب إحدى النافذتين متحدثةً إلى أحدٍ مَّا في هاتفها .

لوَّحتْ لها : «أوقفي المكالمة . لدينا خطَّة لخطف رجلين» .
«يبدو الهندي وسيماً» ، قالت زنتانا .
«كلُّ ذكَرٍ وسيم بالنسبة إليك ، إن كان دون الثلاثين» ، علَّقت تاسو .
تدخَّلت زليخا :
- إنه أسمر . فائضُ السُّمرة .
«الكردي يبدو عصبياً . أتعرفينه ، يازليخا؟» ، ساءلتها نازلي .
«أعرفه . أعرف أمَّه . أعرف . .» ، قالت زليخا جملتها الناقصة ، التي اقتطعتْ منها تاسو بقيتها :
- أتعرفين شيئاً نتمنى أن نعرف؟ .
«ألا ترين الهالتين الدَّاكنتين حول عينيه ، ياتاسو؟ . ليستا عينين تشتهين أن تفتحي عينيك عليهما إذا أفقتِ من النيك» ، قالت زليخا .
«تكرهين الآسيويين ، والأفارقة ، واللاتين الأمريكان ، والعرب ، والكرد . من يعجبك ، يازليخا؟» ، ساءلتها شتولا .
«أحبُّ الجلودَ المضيئة» ، ردت زليخا .
«سنتدبر لكِ قوَّاداً يحمل بطاريةَ شاحنة بقوة ألف حصان» ، قالت شتولا .
حدَّجتْها زليخا بنظرة مَغْليةٍ على نار قلبها الهادئة .
ارتفع صوت المثقاب الكهربي حَفْراً في عارضة الباب المُفضي ، من المطبخ ، إلى الشرفة .
«توقَّعْنَ مظاهرةً على باب شقة زليخا» ، قالت شيراز .
نهضت زليخا ، وهي تلقِّم فمَها ملءَ ملعقتها أرزاً . عبرتِ المطبخَ إلى الشرفة ، ثم عادت مبتسمةً :
- ثقبان ، لا أكثر ، لتمرير السلك البلاستيك الرفيع . تثبيتُ السلك

فنيًا ، في عبوره من الشرفة إلى التلفاز ، سيُنجز غداً ، بمسامير لاصقة ، أسفل الحيطان . العمل الباقي ، الآن ، ليس إلاَّ ربطاً لماسورة الصَحن اللاقط إلى سياج الشرفة . براغٍ ، ومفكَّاتُ براغٍ . لا مسامير . لا صخب . استرخيْنَ كأنكنَّ على شاطىءٍ .

«شاطىء؟؟» ، تساءلت نازلي . «متى استعرضتُنَّ هذه الأجسادَ الإلهية على شاطىء؟» .

«نستطيع أن نكسب استرخاءً ، بلا تعرٍّ ، على أي شاطىء في السويد ، بكامل ثيابنا . لا حظْرَ على الثياب حتى لو سبحنا في بركة الملكة مرتدياتٍ معاطفَ من جلْد جناب خلُّو ، زوج راوت» ، قالت درخو ، فردَّت راوت ممتعضة :

– ليس زوجي . خذيه هِبةً مني لكِ . أنا راحلة إلى الشمال .

«أقْبَل هديتك ، ياراوت . سأحمل جناب خلو في سروالي وألحق بك إلى الشمال» ، ردت درخو .

جاء معصوم ، البالغ نهاية عقده الثالث من العمر ، حاملاً طرفَ السلك الأبيض ، المطاط ، باتجاه التلفاز : «أشم رائحة دجاج مطبوخ بالفاصوليا» ، قال ، فردت زليخا ، التي تتبَّعت ، من مجلسها على كرسي مُفرد من عرْض المنضدة ، حركتَه :

– هذه باميا ، يامعصوم ، مع أضلاع ضأنٍ . ألا تطبخ لك أمك باميا؟ .

«إذا كانت للباميا رائحة دجاج ، فما الحاجة إلى طبخ باميا؟» ، رد الرجل ، الذي أمسك ، في زاوية فمه بلفافة تبغ غير مشتعلة . وضع نهايةَ السلك الأبيض قرب التلفاز ، عائداً إلى الشرفة .

«متى سينتهيان من نصب الصحن اللاقط؟» ، تساءلت درخو .

«سينتهيان من نصْب الصحن اللاقط حين ينتهيان» ، قالت شيراز

تحسمُ الأمر للعودة إلى مشاغلهن العادية في أمسية السبت عند زليخا .

«تعنين أنْ لن يكون هنالك وقت لاغتصاب هذين الذَّكريْن؟» ، تساءلت تاسو .

هزت شيراز رأسها أسفاً :

- لاوقت ياتاسو . اغتصبي صحنَك . هذا آخر ماتبقّى لنا ـ صحونٌ نغتصبها ، ولفافات تبغ نغتصبها ، ونبيذ من صُنْع ريحاني نغتصبه ، وأُمسياتُ سبتٍ ، أدامها اللهُ طريَّةً كآخر خصية يمكن أن نحلم بها .

تنهَّدت تاسو . خلَّلت بأصابع يدها شعرَها الخفيفَ ، المصبوغَ بُنِّيًا بخُصَلٍ شقراء : «لو أن لي شَعْراً كشعر امرأة سويدية ؛ أعني لو نهضتُ من نومي ، صباحاً ، وقد نَما لي شعرُ امرأة سويدية ، لركبت الطائرةَ ، من فوري ، عائدةً إلى قامشلو . سأدوِّخ بيوت قامشلو . سأدوِخ رجال قامشلو . سأدوخ نساء قامشلو . ستلتهم مدينة قامشلو نفْسَها ، ورجالَها ، ونساءَها» . .

قاطعتها درخو :

- توقَّفي ، ياتاسو . أتتمنَّين شَعْراً كشعر السويديات ، أم تتمنَّين مجزرةً؟ .

«أما زلت تصفِّفين شَعرك عند الحلاق الباكستاني آصِفْ زَلْماي ، يادرخو؟» ، ساءلتها زليخا المصبوغة الشعر أحمرَ متوهِّجاً .

«لا» ، ردت درخو ، ذات الشعر القصير ، المُسرَّح جيداً من مَفْرِق وسط الرأس ، المصبوغ أحمرَ فاتحاً ، شفيفاً ، ملتمعاً . «تأتيني امرأة تشيكيةٌ إلى البيت ، ولاتتقاضى نصفَ ماكان يتقاضاه ابنُ حكومة طالبان ، آصف الباكستاني» .

«لم تعد طبيعةُ شعر المرأة مهمة ، هذه الأيام ، يانساء . أعاجيبُ السَّحرة الحلاَّقين أقوى من عصا موسى . نحن محظوظات ببلوغنا عصْراً

يضع قلقَ المرأة من شعرها وراء مؤخِّرتها» ، قالت زنتانا .

«لماذا تتركين شعرك أجعدَ ، إذاً ، يازنتانا؟» ، ساءلتها راوت ، ذات الشعر المتماوج ، المشتعل ذهباً بصِباغ النار . فردت زنتانا ، المستسيغةُ رائحةَ التبغ أبداً ، من غير تدخينه :

- لو ترين حَسَدَ السويديات حين أترك شعري طليقاً حلقاتٍ متداخلةً ، متلاحمةً ، رجراجة . الشعر الأجعدُ شعرٌ متهيِّىءٌ للوثوب .

«للوثوب على مَنْ» ، ساءلتها سلام الطويلة الأظافر .

«للوثوب على مدرج غلوبن الهائل ، في ستوكهولم» ، ردت زنتانا .

«فهِمنا . فهمنا ، يازنتانا . أول خصية سوداء دخلت الأقاليم الإسكندنافية ظنَّتها النساء الذَّهبيات رسالةً سقطت سهواً من جيب الله» ، قالت درخو . أردفتْ : «تمتَّعي ، يازنتانا ، بحُظوة شَعرك في السويد . إنها آخر حُظوة تبقَّتْ لك» .

«مالَكِ ، يادرخو ، كأنك تدفنيننا ، واحدةً واحدةً ، في تراب أعمارنا؟» ، ساءلتها شيراز ، فردت درخو :

- أعتذر . ربما أنا قاسية قليلاً ، لأن قلبي ليس في موضعه العادي كقلوب الناس .

«أين قلبك ، يادرخو؟» ، ساءلتها شيراز .

«إنه أسفل ، هنا ، على الأرض ، متَّصل إلى قدميَّ بشريانين . إنه بين قدميَّ» ، قالت درخو وهي تُبعد كرسيها قليلاً لتتسنىَّ رؤيةُ قدميها . «ألا ترينَه؟» .

ابتسمت شيراز :

- أرى شيئاً من أشعار الفجر في كلماتك هذه .

«لاأُريكِ أشعاراً . أُريك قلبي على الأرض ، بين قدميَّ ، أتعثَّر به كلما

تحركتُ» ، قالت درخو .

خرج الشاب الهندي من المطبخ . توجه بكلمات سويدية عليها ذَرورُ زنجبيل ومسَّالا من لكنته الهندية :

- ياسيدة زليخا ، هنالك صفٌّ عالٍ من الشجر ، قريبٌ من سياج الشرفة . قد ترتبك أقنيةُ الصحن اللاَّقط قليلاً .

«ترتبك؟ ماذا تعني؟» ، ساءلته زليخا .

«أعني أنها قد تتشوَّش» ، رد الشاب الهندي .

«فليكلِّمني معصوم» ، قالت زليخا تسأله ، بتهذيب ، أن يُرسل إليها الرجلَ الكردي ، ذا الهالتين الداكنتين حول عينيه . رفعت كتفيها أمام أبصار صديقاتها بشيء من الحيرة :

- لا أريد اقنية تتقطَّع فيه الصور كشرائح البطاطا المقلية إلى جانب الهمبرغر .

«شرائح بطاطا . نعم . ما العيب في شرائح بطاطا مقلية إلى جوار الهمبرغر؟» ، ساءلتها شتولا .

«ليس للصور المقطَّعةِ شرائحَ كالبطاطا طعمُ البطاطا ، ياشتولا . شرائح الصور المقطَّعة تقع في العينين مباشرة من الزيت المغلي في الصحن اللاقط» ، ردت زليخا .

جاء معصوم . وقف قرب منضدة الطعام ، قريباً من ريحاني : «الشجر أعلى مِمَّا تصوَّرتُ» ، قال .

«أخبرتُك أن الشجر عالٍ ، يامعصوم» ، قالت زليخا .

نقل الرجل عينيه على صحون النساء متفكِّراً . هزَّ إصبعه السبَّابة :

- سأرى . سأرى .

رجع معصوم من باب المطبخ ، المُفضي إلى الصالة ، إلى بابه الآخر ،

المفتوح على الشرفة .

في هدوء عادت الملاعقُ إلى تسوياتها العاطفية مع الصحون . امتزج هسيسُها بهسيس خفيفٍ من احتكاك معادنَ بمعادن ، حيث يعمل الكردي ومساعده الهنديّ على نَصْب الصحن اللاَّقط . تراجعت الصديقات ، تباعاً ، بصدورهن عن منضدة الطعام ، امتناناً لشبَع يُستعادُ شَبعاً بلا استشارة . تحركت الأيدي عجولة لاستخراج علبً التبغ من الحقائب القماش ، والحقائب الجلود ، صغيرةً وكبيرة .

«أين ابنُكِ زَرُوْ وصديقته ، يازليخا؟» ، تساءلت تاسو .

«في رحلة بحرية إلى الدانمارك ، لثلاثة أيام» ، ردت زليخا .

«ماهذا؟» ، تساءلت راوت ، الجالسة إلى جوار تاسو ، فجاءةً . مالت بجذعها على الحقيبة المفتوحة في يد صديقتها ، التي أخرجت علبة التبغ منها على عجل ، وأغلقتها : «ماذا؟» ، سألت تاسو جارتها إلى المنضدة .

«لمحتُ شيئاً» ، قالت راوت .

«لمحتِ مؤخرتي» ، ردت تاسو .

مدت راوت يدها إلى حقيبة تاسو ، متوسلةً :

- أرجوك ، افتحيها .

«دعيني وشأني ، ياراوت خليل» ، قالت تاسو مُبْعِدةً حقيبتَها عن متناول يد راوت .

رفعت الأخريات عيونهن إليها ، وهن يشعلن لِفافات لم يهيِّئها قَدَرُ التبغ إلاَّ لاعتناق دِيْنِ الرماد .

«ماذا رأيتِ ، ياراوت» ، سألتها درخو ، مُتَلفِّتةً تبحث عن نبيذ لقدحها الفارغ .

«مقود كلب . رأيت علبةً واضحة الصورة على سطحها : رأسُ كلب

في مقود» ، ردت راوت .

«أهو المقـود ذاته ، الذي رأيناه عندك ، في البـيت ، مـرَّةً ، ياتاسـو؟» ، ساءلتها شيراز .

لوَّحت تاسو بيدها استياءً تطردهنَّ .

«أتحملين مقود كلب دائماً؟ ما السرُّ ، الذي تخبئينه عنا؟» ، سألتها شيراز .

عـاد الشـاب الهندي إلى الصـالة . اتجـه إلى التلفـاز فـأوصله بالسلك الأبيض . تمتمت تاسو :

- هذه فرصتكن ، يانساء . لا تدعنه يفْلت .

أطاحت سلام بتلميحات تاسو عن اغتصاب الهندي :

- الصـحن اللاَّقط ، عندي يتلقى كلَّ قناة لا أريدها . والتي أريدها تأتي مشوَّشة . أقنية الإعـلان عن المكالمات السـاخنة ، الإيطاليـة ، تأتي مـشوشـة . رجلٌ هندي ، مـثل هذا الشـاب ، نصبَ الصـحن اللاقط على شـرفـة بيـتي . منذ سنة وأنا أتصل به يومـياً ، فـلا يرد . لديه إحسـاس بالذنب .

«تبوَّلي على هاتفك المحمول ، إذاً ،» ، قالت شتولا .

«ماذا؟» ، تساءلت سلام مستوضحةً ، فردت شتولا ، بعد جرعة طويلة من علبة الجعة :

- هاتفك المحمول ثمنه ١٢ ألف كرون ، ياسلام . أليس كذلك؟ .

«نعم» ، ردت سلام بصوتٍ حَذِر .

حدقت شتولا إلى سلام بعينينٍ مليئتين شكاً : «ينبغي على هاتف مثل هاتفك أن تجرَّ كلَّ مكالمة فيه قارَّةً بأكملها إلى حمَّام بيتك . كيف يعجز عن جَلْب رجل؟ . هاتف ثمنه ١٢ ألف كرون ينبغي أن يكون أكبر

من قانون الجاذبية الأرضية : إذا طلبتِ رقمَ شخصٍ يحضر الشخصُ ، وعائلةُ الشخص ، وسكان الشارع ، الذي يعيش فيه ؛ كلهم يأتون رافعين هواتفهم إلى آذانهم ، مردِّدين ، في خوف ، كلماتِ الطاعة ، ياسلام . هاتفك خصيةٌ رباعيةُ الدَّفع مثل سيارة هَامر . هاتفك قاتلٌ . هدِّدي به الكون» .

منذ البرهة الأولى لاقتنائها هاتفاً محمولاً ، ادَّعت سلام أن ثمنه ٤ آلاف كرون ، ثم تضاعف السعر ، وزاد صعوداً إلى ١٢ ألف كرون ، في استقرار خيالها ، على آخر طراز من تلك الآلات الخيالية القُوى ، التي لن يبلغ سعر إحداها ، قط ، ١٢ ألف كرون . رحلةُ سلام مع الهاتف تدبيرٌ من روحها لالتقاط السماء منثورةً ريشاً على وسادتها الأرضية . كل شيء قريب من جِلْدها : الحياةُ ، الأصواتُ ، الثرثراتُ ـ المِلْحُ البحريُّ ، والصخريُّ ، والسَّبْخيُّ . «كلُّ دِينٍ احتكر السماءَ بمكالمة هاتفية بين إنسان وإله . أنا المرأة الأولى ، التي تحتكرُ السماءَ بمكالمة هاتفية مع أي شخص ، حتى لو كان شحَّاذاً» . تتحدث سلام عن النهائي واللانهائي في مكالمة واحدة : تاريخ البشرية ؛ تاريخ الثياب ؛ تاريخ اللاشيء ، في جملة واحدة تترك خلفها أثراً من نار على شبكة الاتصالات الهاتفية ، على طول دول اسكندنافيا ، وجزءٍ من شبكات الدول العالقة بزعانفها . طردتها أختُها الكبرى بُوْزي من بيتها ، بعد إقامة شهرين عندها ، إذ بلغت فاتورة الهاتف سبعة آلاف كرون .

في الخامسة والعشرين هربت سلام من بلدتها عامودا ، بشمال سوريا ، إلى تركيا ، مع زائرٍ كردي حلَّ ضيفاً على خالته في تلك البلدة . أمضت سنة واحدة في نصيبين ، ثم رحلت إلى السويد . أعانتها أختها بُوزي ـ التي سبقتها بست سنين إلى هجرة في اتجاه الشمال الجدير بلقبه ـ

على تحصيل نصيبها من دخول السماء المرصوفة بحجر الأرضِ ـ أوروبا .
كلٌّ مهاجر يصنع ، في عبوره إلى أوروبا ، خُفَّين تعبر بهما أوروبا هرولةً إلى مستقبل عِرْقها الجديد . كذا صنعت سلام ، كشركائها من الأعراق الأخرى ، خُفَّين لتعبر بهما أوروبا إلى ذاتها المنحدرة من أصلٍ كرديٍّ ، في الصيرورة الثانية لنشوء العوالم .

لاشيء واضحاً في سيرة سلام ، المروية بلسانها ، عن تفاصيل هربٍ ، مع زائرٍ كردي ، إلى تركيا ، وهي في السادسة والعشرين . تكون النساء متزوجاتٍ في السادسة والعشرين . أكانت عانساً؟ . ماذا عن عمرها قبل السادسة والعشرين؟ ما تحصيلها في المدارس؟ ماذا كانت تفعل في عمرها ذاك؟ أتزوجت الكردي ، الذي هربت معه؟ أأنجبت منه؟ أأنجبت أولاداً من أحد قبل الهرب معه؟ . حياة سلام تبدأ من السادسة والعشرين . كلٌّ زمنٍ يخصُّها ، قبل ذلك ، مُخْتَزَلٌ إلى مكالمة هاتفية على رقم خطأ .

منذ دخلت سلام السويدَ لاجئةً ، تبادلت ، مع مترجمها الكردي للمحققين السويديين مزاعمَها الموجبةَ لطلب اللجوء ، رقمَ هاتف بيت أختها . لم يكن يتصل بها . لم يكن في حاجة إلى الإتصال بها ما دامت لاتدع له فرصةً . استخدمت هاتفَ بيت أختها حتى تحولت أسلاك الهاتف إلى طُرُق إمبراطورية لعبور القوافل . نبَّهتْها أختها ، مراراً ، تحت بصر زوجها المحتقِن ، إلى تماديها اللامُحتمل . ثم وضعتْها أمام خيارين : إما العودة إلى عامودا ، أو الإقامة في «مساكن المهاجرين» ، التي تتدبَّرها الدولة لطالبي اللجوء ، حتى إتمام تأهيلهم لحياةٍ مَّا لها وقْعُ الحقيقة كمكالمة هاتفية على رقم صحيح ، أو رقم خطأ .

توجهت سلام بحقيبتها إلى شقة مترجمها الكردي أكَدْ رُسْتُم ، واضعةً بين يديه مستقبل ردفيها الممتلئين . لم تَدُمْ مواجهاتُ اللذائذ

بينهما شهرين . بلغت فاتورة الهاتف ، في شقة عشيقها ، سبعة آلاف كرون ، فرمى بحقيبتها ، وثيابها ، خارجاً .

توسلت سلام إلى أختها بقَسَم شمل كلَّ روح ناطقة ، وخرساء ، أنها إن أعادتها أختُها إلى بيتها ، لن تمسَّ الهاتف ، فأعادتها أختُها ـ الأم لطفلين في الخامسة والثالثة ، إلى شقَّتهم عودةً أقسَمَ زوجها مروان حنيف ، بكل روح ناطقة وخرساء ، أنه سيخنق أختَ زوجته بقضيبه إذا مسَّت الهاتف ، متجاهلاً ذهول زوجته من كلماته العارية .

كبحت سلام نفْسَها سنة . أنفقت مخصَّصها المتواضع الممنوح لها من الدولة كلاجئة ، على بطاقات استنفدتْها في أكشاك الهاتف العامَّة ، هي التي لن تمتلك هاتفاً محمولاً ، خاصًا بروحها ، إلا بعد أربع سنين من دخولها السويد ، حين تزوجت طبيب النساء رَجَبْ تَازي المُطلَّق . كانت في الثلاثين ، وهو في الأربعين . السنونُ الأربع ، من إقامتها في شقة أختها حتى زواجها ، سنونٌ متبدِّلة الحقائق ، لا يهم أحداً أن يقع على تفصيلٍ منها . زوجها الطبيب ، والد الأربعة الأولاد المقيمين مع أمهم المُطلَّقة ، من عفرين ـ أوفرينوس القلبِ الصليبيِّ المرتعش خيبةً . زوجها الطبيب ، الدَّمث ، لم يحتمل زوجتَه الجديدة ، ذات العطر القوي ، إلاَّ سنة واحدة أنجبت في نهايتها سلامُ ابنتَها كاميْلا ، وفواتيرَ هاتف عديدة بآلاف الكرونات حلَّقت بها عائدةً إلى شقة أختها ، بعد توسُّلٍ مديد : «سأدفع أجرة الشقة كل شهر» . زوج أختها مروان حنيف لم يخنقها بقضيبه ، إذْ بلغت فاتورة الهاتف ثلاثة آلاف كرون ، بل طلَّق أختَها بُوْزي .

ثلاثة أولاد ؛ ابنتها كاميلا ، وابنا أختها جميل وعادل ، ومُطلَّقتان : كانت تلك هي العائلة الجديدة ، التي لن يلبث أن يشتعل كبريتُ حياتها ، فيتطاير شررُ الحريق إلى ضواحي ستوكهولم ، عبر أسلاك الهاتف المشتعلة .

غادرت سلام ، بابنتها الصغيرة ، شقة أختها إلى شقة في منطقة مُوْرْبي ، لتتزوج نُوري قَادِر ، الذي يصغرها بخمس سنين ، عن يَدَيْ رجل مخوَّل بإنجاز عقود القِران الإسلامي ، عبر تفويض من أئمة لن تحقق السويد في صحَّة تفويضهم أو بُطْلانه . أوهَمَ نوري حبيبتَه أنه يستكمل مشروعاً لافتتاح مطعم بيتزا . عاش معها تسعة اشهر ، مغادراً الشقةَ عائداً إليها ، كل يوم ، بمزاعم من بحثه عن شركاء ، ثم اختفى : عاد إلى زوجته الأصلية في مدينة غوتنبورغ ، بعد تمام الصُّلْح بينهما عقبَ خصام طويل .

زوجها الطبيب رجب تازي أهداها هاتفها المحمولَ ، الأول ، في حَبَلها . وهو الهاتف ، الذي سيقودها ، من جديد ، إلى مترجمها العشيق السابق أَكَد رستم ، في سنتها السادسة من بلوغها السنَّ القانونية للغة السويد ، ليتدبَّر لها ، بوساطته ، عملاً في الترجمة عند أهل التحقيق ، داخل أروقة مبنى الهجرة ، عن الكردية والعربية ، معاً . لم يتردَّد أَكَد في إعانتها ـ هو الذي استحدثت سلام لديه وسواساً إذا رنَّ هاتفٌ خالَ الرنينَ إضافةً إلى فاتورته الخاصة . وفي أروقة دائرة الهجرة تعرَّفت سلام إلى شيراز ، التي تصغرها بخمس سنين . لكن شيرازَ كانت خُبرةَ لسانٍ أنجز الحراثةَ في حقول اليأس المهاجر إلى السويد ، وحصد ماحصده من خيباتٍ للمهاجرين حلوةٍ حامضة ، وخيباتٍ حامضة حلوة ، وخيبات مالحة حلوةٍ ، وخيباتٍ تُقْنع اللهَ بجدوى الحقد عليه ، وخيباتٍ منتصرةٍ ، أخيراً ، على جدوى انتصارها .

ساعاتٌ قليلة ، أسبوعياً ، في الترجمة للمهاجرين ، وساعات أخرى ترتيباً لأسرَّة دار العَجَزة ، في منطقة بيتها ألْفيْك ، مكَّنت المرأةَ الطويلة الأظافر ، والحذاء العالي العقبيْن لرفع عجيزتها المتهدِّلة ، من إدارة الحياة ، بصوتٍ خافت الهاتف ، بينها وبين آلهة الضرورات الصغيرة .

«١٢ ألف كرون» ، تمتمت شتولا ثانيةً ، بعد استرسالها عن سُلْطة هاتف محمول ثمنه ١٢ ألف كرون على البشرية ، في أمسية النساء عند زليخا ، من الأسبوع الثامن للخريف ، فاعترضتها راوت :

- إثنا عشر . أربعة عشر . خمسون ألفاً . لا يهم سعرُ آلة الهاتف ، ياشتولا . المحاورات ، في الهاتف ، هي التي تجعل قيمته عالية في يد المتحدِّث . الوقت المناسب للحديث هو قيمة الهاتف . الهاتف . . .

قاطعتْها تاسو :

ـ ياعزيزتي راوت : هاتف ثمنه ١٢ ألف كرون يعني أن ثمنه ١٢ ألف كرون ، حتى لو كان المتحدثون منه يصفِّرون ، لا أكثر .

جاء معصوم من جهة المطبخ يتبعه مساعده الهندي سُونيل . كان واضحاً أنهما أنجزا نصْبَ الصحن اللاقط متجهاً بقُرصه المعدن إلى كهف الصور في عشائها السحريِّ على مائدة الغيب . جلسا ، معاً ، راكعيْنِ ، في مواجهة التلفاز . بدأت المطاردة الفَلَكية على دروب الحليب المتقاطعة في النور الكليِّ للشاشةِ ـ خندقِ الكرة الأرضية الأخير . بدأت رحلةُ انتشال الأُمم من مأزق تاريخها : «هذه قناة بولندية . إسرائيلية . تركية . إنكليزية . إيطالية . برتغالية . عربية . فنلندية . .» . كان معصوم يتمتم كلما ضبطَ قناةً وأثبتها ، بالأرقام المدرَّبة على الإخضاع ، عبر آلة التحكُّم الخاصة بجهازٍ وضعاه ـ هو ومساعده ـ أسفل رفِّ التلفاز ، مستقلٍّ بذاته ، ذي عقلٍ قوّادٍ .

النساء ، اللواتي كُنَّ متجهات بظهورهن إلى التلفاز ، أدرْن كراسيَّهن ليتتبَّعْنَ رحلةَ المعقول الصغير ، الساخر من المعقول الكبير .

«كم قناةً كردية يمكن التقاطها ، يامعصوم؟» ، سألت زليخا الرجلَ ذا الهالتين الداكنتين حول عينيه ، فلم يردَّ معصوم .

«أمهتمَّة أنتِ ، يازليخا ، بالأقنية الكردية ، أم تفضِّلين أقنية الرسالات الكبرى؟» ، سألتها درخو ، وهي تنضنِض بلسانها كأنما تلعق ذَكَراً من نوّاس ساعتِه اللحم .

«ليتها - الأقنيَةَ كلَّها - ما أستطيع مشاهدته بعينَيْ هذا» ، قالت زليخا مشيرة إلى فرجها .

استدار معصوم بوجهه إلى النساء ، عن مبعدة المتر ونصف المتر عنهن . تفهَّم إشارةَ زليخا من غير أن يرى حركة يدها المشيرة إلى فرجها : «لا تعتمدي على الصحن اللاقط . استئجري أفلاماً» ، قال معلِّقاً بلا ابتسامة .

خفضت زليخا عينيها خجلاً . وضعت الأخريات أيديهن على أفواههن المبتسمة ، إلاَّ شتولا :

- لا تحتاج المرأة إلى استئجار فيلم ، بل إلى استئجار مخيِّلة ، ياسيد معصوم .

«هذا وحيٌ يتحدث إليك ، يازليخا ، من فم شتولا» ، قالت درخو .

«لماذا لم يحضر الوحيُ بنفسه ليحدِّث زليخا؟» ، تساءلت شيراز ، فردت درخو :

- لم يصفِّف شَعره اليوم . لم يحلق لحيته . لم ينم البارحةَ جيداً من وطأة فشله في العثور على امرأة تصلح نبيَّةً ، ياشيراز . لم يحضر لأنه يائس ، فاستعارَ فمَ شتولا .

«يافمَ شتولا» ، تمتمت تاسو .

نظرت درخو إلى تاسو نظرةً تُشْعِرها أنها فهمت مقصدها من العبارة ، فهزت تاسو رأسها مستنكرةً نظرة درخو :

- ماذا؟ .

قطع صوتُ زليخا المُستَشار ذلك الاسترسالَ من النظرات بين درخو وتاسو :

- أريد هذه القناة . أريدها ، يا معصوم .

اجتهد معصوم في ترتيب الطِّلسمات متجاورةً على الشاشة . استحثَّ خواصَّها أن تتبادل المكنونَ الوازنَ كي يحتفظ بالقناة الكردية ، المترجرجة ، تحت السيطرة ، ريثما يستقرُّ بها منتظمةً ، لكنَّ القناة عاندتْهُ . نظر بعينين معتذرتين إلى زليخا ، التي نظرت ، بدورها ، إلى صديقاتها بعينين معتذرتين اعتذاراً ليست مدينةً به لأحد .

توالى ظهور أقنية رجراجةٍ ، متداخلةِ الصور ، متقطعةِ الصوت ، ممزَّقة الألوان ، وسط شتائم خفيضة من فم معصوم ، وغمغمات بالهندية من فم سونيل .

«صحونٌ لاقطةٌ ، مثبَّتة على ظهور كلاب سلوقية ، في مدينة قامشلو ، تفعل أفضل من هذا» ، قالت تاسو . نهضت متبرِّعةً بتقديم لِفافتَيْ تبغ إلى معصوم وسونيل :

- دخِّنا . التدخين ينشِّط العقل .

هزَّا رأسيهما معتذرين عن عدم قبول لفافَتيِّ التبغ ، مع همهمة بالشكر .

«صحونٌ لاقطةٌ ، منصوبة على ظهور اليرابيع في بادية الشام تفعل أفضل من هذا» ، قالت نازلي .

استدار معصوم برأسه إليها ، ثم عاد إلى آلة التحكُّم الصغيرة ، في يده ، يستعطفها في صمت .

توالى ظهور أقنية أخرى متقوِّضة من شقاء انتسابها إلى أبيها المتعثِّر ، المُنْهَك ، العالق كذبابة في الشبكة العمياء ، المضيئة .

«صحونٌ لاقطةٌ ، مثبَّتة على ظهور السحالي ، في خرائب بلدة ديركي ، تفعل أفضل من هذا» ، قالت شيراز ، وهي تغمز نازلي .

أطفأ معصوم التلفاز . كان راكعاً فجلس أرضاً ، محدِّقاً إلى الشاشة القابضة على ذيل اللانهائي . أدار مساعده الهندي وجهه إليه متأملاً ، صامتاً .

«لاأنام إلاَّ ساعة واحدة ، في اليوم ، عند الصباح ، يامعصوم . أعطني أقنيةً تكفي دورةَ الساعات الثلاث والعشرين الباقية . سأتابعها حتى لو لم أكن في البيت» ، قالت زليخا .

بقي معصوم ثابتاً في تحديقه إلى الشاشة المطفأة ، حيث يمكن التقاط ملامح شبحين من صورته وصورة سونيل في العمق البارد .

تواجهت النساء ، ثانيةً ، بعد تشتُّتٍ في اتجاهين ، على جهتي منضدة الطعام . تبارَيْنَ في رصْفِ خيالهن الساخر عن الصحن اللاَّقط رصْفاً رمليًا .

«زليخا . يلزمك صحن لاقط ، منصوب على ظهر ديكٍ ، كي تنامي» ، قالت راوت .

«ما الأقنية المأمولة من صحنٍ لاقطٍ على ظهر ديك ، ياراوت؟» ، ساءلتها زنتانا .

«أقنية نائمة تستيقظ متثائبة» ، ردت راوت .

«بِمَ تنتفع زليخا من أقنية نائمة تستيقظ متثائبةً؟» ، ساءلتها زنتانا .

«لماذا تحاكمينني بجدٍّ إلى هذه الدرجة؟ . لم أقترح نظرية في الفيزياء» ، ردت راوت معتذرةً عن فكرتها اللامتناسقة .

جمعت زليخا الصحون الفارغة متراكمةً صحناً فوق آخر ، تحملها إلى المطبخ .

«صحنٌ لاقطٌ ، منصوب على ظهر سمكة سلمون ، ينفع زليخا أكثر من صحن لاقط على شرفة مطبخها» ، قالت شتولا .

«بل صحنٌ لاقط ، منصوب على ظهر عُقْعق» ، قالت نازلي .
تتالت المُقترحاتُ العابثةُ ، المبتسمة على مضضٍ :
- صحن لاقط منصوب على ظهر خنزير .
- صحن لاقط منصوب على ظهر خروف نيوزيلندي .
- صحن لاقط منصوب على ظهر هرَّة تحت المطر .
توقفن عن الثرثرة إذ نهض معصوم ومساعده ، بعد صمت مُلْغزٍ . قَدِمت زليخا من المطبخ متوجِّهة إليهما بعينين ملؤهما فضولٌ . «الشَجر» ، تمتم معصوم .
«الشجر؟!» ، تمتمت زليخا .
«لو أمكن قطعُ بعض رؤوسها» ، قال معصوم ملقياً إلى قلب زليخا اقتراحَه الخامل .
«من سيقطع لي رؤوس الشجر ، هنا؟ هل أستدعي البلدية من أجل صحنٍ لاقط؟» ، قالت زليخا وقد أحسَّت وخْزاً تحت لسانها .
قرقَعَتْ شتولا بعلبة الجعة الصفيح في راحة يدها مَعْساً :
- حبذا لو نُصِب الصحنُ اللاقط على ردفي زنتانا الكُرَتيْنِ .
علا زئيرٌ من حنجرة معصوم :
- سمعتكنَّ كفايةً . سمعتُ شخيرَ عقولكن .
«ماذا؟» ، ساءلته درخو باستياء ، فرد الرجل ، ذو الهالتين الداكنتين حول عينيه :
- أتعرفن ما الأفضل للخروج من مأزق هذا الصحن اللاقط؟ .
تنصَّتت النساء إليه بترقُّبٍ . نظر معصوم إلى مساعده الهندي ، يخاطبه بالسويدية :
- قُلْ لهنَّ ، ياسونيل ، إنني ذاهب إلى الشرفة لأنزع الصحنَ اللاقط

عن السياج ، وأنصبه على أيري .

دوَّى زعيقٌ ، وشهيقٌ مُسْتنكِريْن من حناجر النساء .

«من أين تعرَّفتِ إلى هذا المعتوهِ ، قليلِ التهذيب ، يازليخا؟» ، قالت نازلي .

دار معصوم نصف دورةً على نفْسِه حَنَقاً :

– أأنا معتوه؟ . تعال ياسونيل .

توجه معصوم ، ومساعده ، إلى شرفة المطبخ . عَلَتْ طقطقاتٌ قوية ، قبل أن يخرجا من باب المطبخ حامليْنِ الصحنَ اللاقط ، والساريةَ ، جارَّيْنِ خلفهما السلكَ الأبيض البلاستيك . فَصَلا السلك عن التلفاز . سحبا الجهازَ الصغير ، المخصَّص لاستقبال الأقنية ، من الرفِّ أسفلَ التلفاز . صرخ الكردي بلغة كردية :

– لا أريد نقودَك ، يازليخا . أضعْتُ وقتاً لا أريد عليه تعويضاً . الزبائنُ كُثُر . لاتتصلي بي .

ارتعش أنفُ زليخا الكبير . ارتجف عطرُها الصاخب منكمشاً . توسَّلت :

– ماذا جرى؟ إنه مُزاح ، يامعصوم .

حمل معصوم ، ومساعده الهندي ، صندوقيْ مستلزماتهما المعدنيين . ارتديا حذائيهما ، وخرجا من الباب بحمْلٍ كانا أدخلاه على دفعتين إلى شقة زليخا .

وَجَمتِ النساء . اتجهت زليخا إلى منضدة الطعام . جلست على كرسيِّها . أفسحت مكاناً بين الكؤوس ، والأقداح ، بيديها ، ثم توسدت ، بخدِّها الأيمن ، سطحَ المنضدة المغطى بملاءة كثيرة التعاريق . تمتمت : «سأنام» .

أريكةٌ واطئةٌ لن يفصِّلها النجارُ. أو:
حُكم الإعدام.

وضعت شيراز يدها على وُرْكها اليمنى، فوق الحرقفة، في الموضع الذي لاتكفُّ عن سرد حكايته: مدينةٌ تركت لعينيها المغمضتين، في رحم أمها، وميضاً لم يتركه برقٌ في عقل الكون. كانت ممتنّةً لصباحها ذاك، من سبت الأسبوعِ التاسع للخريف، الذي ستهيِّيءُ مساءَه للصديقات في شقّتها، بمنطقة أكَالا. لا ألم في وركها. لا ذاكرة للحرقفة: عيناها على ابنتها زَابو فوق الجواد الأسود، تحت سماءٍ تتدفأ غيومُها على ألق الرمادِ في الأعالي.

قبعة سوداء باستطالة مُظَلِّلة. بنطال رمادي منتفخ من الجهتين الخارجيتين في الفخذين، ضيِّق على الساقين. حذاء بني عالي العنقين. قفازان أسودان بخطوط بيض فوق الأصابع. عصا من الصناعات اللّدائن تُتِمُّ الرسمَ النافرَ، المتحرك، لفتاة في الرابعة عشرة، واثقةٍ من خيار جسدها فوق السَّرْج الخفيف، الشديد الرأفة بجلد الجواد وحيائه.

ساحةٌ رملٌ دائرية، مسيجة نصْفاً، من الجنوب، بسورِ شبكِ معدنٍ، ومن الشمال بإسطبلات مرفَّهة التناظر، بحسب القوانينِ المرعيَّة في مذاهب نَفْسِ الحيوان، والموجبات اللائقة بحفظ كبرياء انتسابه إلى عِرْقٍ لم يخذل الآدميَّ في حروبه كلها على جبهات الوجود المُغْفَل. ثمت امرأةٌ مدرِّبة، بقبعة لها امتدادٌ مظلَّةٌ فوق الجبهة، في الوسط المفضي إلى الإسطبلات المتناظرة، ممسكة بعصا من طرفيها، وهي تتابع مخاطبات

السلوك بين جواد وفتاة ممتلئة الردفين كأمها ، عارمة الثديين كأمها ، بيضاء البشرة كأمها . اسطبلات ، وحلبة تدريب على قيادة الجياد ، في ضاحية قريبة من منطقة أكالا ، وسط سَهْلٍ مُمَهَّد ، عُنيَ طويلاً برفاهة الطبيعة من حوله .

بيْتْرا ، إبنة ميْريْت أَنْدرْشْ - صديقة شيراز ، نقلت عدوى الجياد إلى ابنتها زابو ، مصحوبةً بترغيبٍ وإغراء لا يُساوَم عليهما : تتولى أم بيترا إيصال البنتين ، وشيراز أيضاً إنْ شاءت ، صباح كل سبت ، إلى حلبة التدريب ، بسيارتها . وافقت شيراز . منذ سنة وثلاثة شهور وافقت شيراز . وهي منذئذٍ ، تمضي معهن إلى الحلبة أحياناً ، وتعذر نفسَها ، في أحيان أخرى ، فلا تواكبهن .

لاحقت شيراز ، بعينيها ، حركةَ الجواد الأسود . لاحقت إشارات المرأة المدرِّبة أَغْنيتا الرمادية الشعر على طبيعته . صعدت دغدغةٌ من عقْبَيْ قدميها إلى مكان مَّا من أحشائها ، وهي تستعرض ، باستباق من خيال اللذائذ ، لقاءها القادم ، بعد ساعات ، بنوح ، قبل العصر تحديداً . ستودِّع ابنتَها الذاهبة إلى صديقاتٍ لها على الغداء ، وإلى شقة أبيها مساءً لقضاء الليل في منطقة برُمَّا . ستتهيَّأ شيراز بكامل الطبائع الأزلية في ذاكرة جسدها . ستعيد جلدَ عانتها أملسَ ، بلا شَعر ، كراحة يدها ، بآلة حلاقة من نوع venus مثلثة الشفرات . سيبوح لها عطرُها الهادىء ، في رذاذه الذي سيتناثر من رقبتها إلى فخذيها ، بما تريد امرأةٌ أن يبوح لها عطرٌ كلهاث رجل . ستغسل أسنانها بفرشاة آلية . ستغسل لسانَها بالمحلول المُنكِّه liste-rine القوي . ستضع إلى جوار سريرها صحناً من الفريز مغموراً بالقشدة الحلوة . سترتدي تنُّورة هي الأقصر لديها . ليس لديها ثوب قصير . ستستعير شيئاً من ثياب ابنتها زابو . ستستعير سروالاً داخلياً من خزانة

ابنتها زابو . ستستعير كلمات من فم زابو ، كالتي تخاطب بها صديقاتها على الهاتف . لا . سترتدي بنطالها الأسود عارية الردفين بلا سروال . سترتدي حِمالةَ ثديين يستغرق نَزْعُ مِشَدَّاتها وقتاً من يدَي نوح . ستعيقه قليلاً ، بدفاع الرغبة عن بطشها ، من جذْبها إليه إذا عرَّاها ، كي يَسْتَعِرَ جمرُ لحمهما أكثر فيشتمَّا نشيشَ روحيهما ، من شمال السويد إلى جنوب السويد . ستبادله عمرَها بعمره في قُبلة لن تبقى قُبلةٌ ، بعدها ، لأحد . سيصيران ما لا يُستعاد . ستحتضن صديقاتها ، واحدة واحدة ، في قدومهن إلى شقتها أمسيةَ السبت التاسع للخريف . ستُطيل احتضانهن ، بسخاء يدلُّهن على أثر ذَكَرٍ في عبوره جِسْرَ امرأة . ستُغدق عليهن حظوة أن يتشمَّمن ذَكَراً نسي دراهمَ الأبدية تحت جلدها . ستعانق نازلي أكثر من الأُخريات ، حتى لو سمعتْ نازلي لهاثَ ابنها من جوارح شيراز كلِّها . لن تخاف شيرازُ الفضيحةَ . ستتمنى فضائح أكثر اتِّساعاً فلا تُوصف حياةٌ إلاَّ قدْرَ ما تُرى منتشيةً في فضيحةٍ . «يالعذوبة الفضائح» . أسَرَّت إلى نَفْسِها .

وضعت شيراز يديها متصالبتين على صدرها ، تلجم الدغدغة العذبةَ ، المُعذِّبةَ مُتْعةً ، من شَقٍّ جلدها ، والقماشَ الذي يغطي جلدها ، سارحةً ببصرها على خزائن الصور . مشت من وراء الحاجز الخفيض إلى حيث تجلس صديقتها مِيْريتْ منتظرةً أن تخرج ابنتها بيترا ، من جهة الإسطبلات ، بجواد تأخَّر إعدادُه .

«فاتتنا أشياء كثيرة» ، قالت شيراز لميريت .

«ماذا فاتنا؟» ، ساءلتها الشقراء ، المصبوغةُ الشعر أسودَ زُرْقُماً .

تأملتها شيراز . لم يُسعفها خيالُ لسانها في استعراض مافاتَ أناساً مثلها . ابتسمت :

– فاتني أن أدخن كصديقاتي . فاتني أن أشرب كُحولاً مثلهن .

مـدى سـاعـتين ، من مـغـادرة ابنتـهـا زابو للبـيت ظُهـراً إلى غـداء صديقاتها ، كاد الهاتف ، في يد شيراز ، أن يلفظ أنفاسَه من حصار الرقم الأوحد ، الذي تكرَّر كاستنطاق سجينٍ أخير بتهمة إهانة الموت .

هاتف نوح كان صامتاً إلاَّ من صوتٍ مسجَّلٍ تبثه شركة الهاتف عن وجود خلل ، أو أن الرقم المطلوب في قيلولة . تأخر نوح . أنجزت شيراز موعدها معه قبل يومين بدقَّةٍ صارمة . تمَّ ترتيب الحياة ، برمَّتها ، فصولاً من قطراتِ العسل للموعد . هي جاهزةٌ كي تَلْتَهِم ، وكي تُلْتَهَم . وهاهو الوقت يتقوَّض . هاهو الوقتُ يقود صديقاتها إلى شقتها بعقبين يقطران دماً .

كل ثانيتين أو ثلاث ، رفعت شيراز هاتفها الصغير إلى أذنها ، متنقلة من قصعة أفخاذ الدجاج ، في الفرن ، إلى الخضار ـ الخسِّ ، والبصل ، والخيار ، والجرجير ، تُقَطِّعها أجزاءً للسَّلطة بنوعين : واحدة تفخر شيراز بأَخلاطها من زيت الزيتون ، والخل البلسم ، والفلفل الحريف ، والخردل ؛ وأخرى بالزيت ، وعصير الليمون ، وكُسَارة الجوز ، وسمسم مقلي . لكنها أخطأت المقادير مراراً ، وكادت تؤلِّب سَلطة على سَلطة قد تخرج الواحدةُ منهما بحصَّة الأخرى من المُنكِّهات والتابل . فتحت باب الفرن بوسواس من أنها تشم احتراقاً ، فيما نشيش الحريق يتصاعد ، قَطْعاً ، من قلبها متقلِّباً على لهب الصمت ، في الهاتف .

كانت في بنطال أسود ، عارية الردفين تحت قماشه ؛ وفي قميص قطني ضيق ، قصير لايبلغ سُرَّتها ، حُرَّة الثديين من حِمَالتهما .

تصاعد يأسُ شيراز من العثور على صوت نوح . تصاعدت البلبلة في المطبخ ، فلم تعد تفرِّق بين الهاتف على أذنها برنينٍ ما يلبث أن ينقطع ، وبين إعداد كؤوس ، وصحون . تُنْقِصُ حيناً ، وتُزيد حيناً . اعتصر الوقتُ قلبها فغدا جافاً . «يا ابن المحترِقة» ، ردَّدتْ ، وهي تضرب جبينها بهاتفها

حَنَقاً وغيظاً . ذهبت إلى غرفةِ نومها . ارتدَتْ قميصاً طويلاً . ارتدت سروالاً تحت بنطالها . ركلت كومةً من مجلات الأزياء على ظهر سلّةٍ قشٍّ مستطيلة ، ذات غطاء ، موضوعةٍ زينةً دافئةً قرب نهاية السرير .

بكتً شيراز لوعةً بلا دموعٍ ، حين رنَّ جرسُ الباب ، في موعد قدوم صاحباتها . بكى يأسُها . فتحتً الباب للثلاث الأُوْليات ـ زنتانا ، وتاسو ، وزليخا . احتضنتهن ، واحدة واحدة ، قبل أن تنطق جملةً لا سياق لأَمَلها في المخاطبات :

- هل حَلَقتن فروجَكن اليوم؟ .

تفرَّست فيها صديقاتها الثلاث من غير أن يعثرن على دعابة في كلمات شيراز . تمتمت زليخا :

- أَنَبَت لك قضيبٌ ، هذا الأسبوع؟ .

«أووه» ، تنفَّست شيراز . «ساعدنني في ترتيب المائدة . أنا مُنْهكة من مصاحبة ابنتي إلى حلبة قيادة الخيل» .

«هذه أول مرة ، في تاريخ الكرديات ، تتدرب ابنة إحداكن على ركوب الجياد» ، قالت تاسو . غمزت صديقاتها :

- الفُروج تصير مسطَّحةً كممسحة أحذية .

«بل تتقشَّر أيضاً» ، أضافت زليخا .

لم تُعِر شيرازُ تعليقاتِ صاحباتها اهتماماً . بعد لحظات رن الجرس ثانية ، فيما كانت زنتانا ، وتاسو ، وزليخا ، منهمكات في إعداد مائدة الطعام بشرشف ، وبصحون .

دخلت ريحاني ، ودرخو ، معاً .

«شتولا قادمة» ، قالت درخو وهي تخلع حذاءها . «إنها تشتري علبة تبغ» .

حضر نبيذ ريحاني في وعاءٍ بلاستيك سعةَ أربعة ليترات . حضرتِ الأقداح العريضة القواعد ، والكؤوس الرشيقة السيقان . رن الجرس . فُتحَ البابُ . دخلت شتولا حاملة كيساً ثقيلاً فيه اثنتا عشرة علبة جعة ، ووردتان برتقاليتان . رن جرس الباب بعد دقيقتين . دخلت سلام حاملة زجاجة شمبانيا رخيصة : «سنحتفل ببقاء روح راوت معنا ، حتى لو غاب جسمها» ، قالت .

«هل ماتت راوت؟» ، سألتها درخو ساخرة ، فردت سلام :

– غادرت السويد .

تطلَّعت كل امرأة إلى الأخرى كأنما خُدِعتْ .

«غادرت إلى أين؟» ، سألتها درخو .

«إلى الشمال» ، ردت سلام .

«إلى شمال السويد ، كما كانت تهدِّد؟» ، سألتها تاسو .

«السويد في شمال العالم . لكنْ لاشمال في السويد» ، علَّقت درخو بسخريةٍ من ردِّ سلام .

«نعم» ، قالت سلام .

«نعم . ماذا؟» ، سألتها درخو . أعادت سؤال البداية :

– أين راوت ، ياسلام؟ .

«غادرت إلى الشمال ، كما كانت تهدِّد . ابنها مَدَد أخبرني . طلبتْ من زوجها السابق نقلَ أثاث شقتها إلى حيث يشاء ، لأنها أعادت الشقة إلى وكالة تأجير المنازل» ، قالت سلام .

«أكلَّمْتِها ، ياسلام؟» ، ساءلتها زليخا مندهشة .

«هاتفها ميت» ، ردت سلام بلسان بارد .

جاءت شيراز من المطبخ بعد محاولتين حَذِرتين للاتصال بنوح . رأت

عيونهن شاردة قليلاً عن مسارراتهن المعهودة في أمسيات السبت . «ماذا أرى؟» ، قالت تسألهن بإحساسٍ من أن طارئاً مَّا بسط ثقله على العيون .

«لن تحضر راوت» ، قالت سلام . أردفت : «هي في شمالٍ مَّا ، الآن» .

«في شمال ليس في السويد ، وفي سويد ليست في الشمال . شيءٌ مَّا من هذا» ، قالت درخو مختَزِلةً جواباً لا يفي بإسكات فضول شيراز . نظرت صوب الباب :

– أين نازلي؟ أهي عالقة في المصعد ، ياشيراز؟ .

تسلق قلبُ شيراز حنجرتَها إلى لسانها . امتزجت صورة نوح بصورة أمه في خيال لوعتها : «أين نازلي؟» .

«فلْنشرب نخبَ نازلي كأسَنا الأولى كلَّها . إن لم تصل ، بعد ذلك ، نتصل بها» ، قالت شتولا .

«لا يظهر عليكن أي تأثُّر من رحيل راوت» ، قالت سلام في عتب .

غمغمت النساء تِباعاً يُبدين أسفهن . رفعت درخو قدحَها عالياً ، وهي تخرج ورقة من جيب بنطالها الأسود الفضفاض : «سأقرأ عليكن آخر ماكتبتُ» .

«ليس الآن» ، قالت تاسو من فورها ، متبرِّمةً .

«بل الآن» ، هتفت درخو . «أنا زوجة نبيِّكنَّ زرادشت سأقرأ آخر ما كتبتُ ، وستُصغين إليَّ» .

«من أين استعار الكرد هذا النبيَّ؟» ، ساءلت ريحاني ، فردت درخو :

– من المكان ذاته ، الذي تستعير الأممُ أنبياءها .

«لماذا أنت زوجته ، يادرخو؟» ، سألتها سلام مبتسمة .

– أأنت زوجته ، ياسلام؟ .

– لا .

- صدِّقي ، إذاً ، أنني زوجته ، ياسلام .

فتحت درخو ورقة مصفوفة الكلمات بحروف ضوئية . قرأت شِعرها :

«سأغسل قلبكَ بنظرتي الأولى ،
في الفجر ،
إلى وجهكَ المهشّم من رَكْلتَيْ البارحةَ .
كدتُ أقتلكَ .
لم أتوقف لأنني لا أريدك ميتاً ،
بل لأُلقي على وجهك نظرةَ الفجر الأولى ،
في سريري ،
يا ابنَ كلِّ كلبةٍ تنبحُ فجراً» .

دارت درخو بعينيها على صديقاتها اللامكترثات . «هذه قصيدتي الثانية ، كتبتُها بعد الأولى بنصف ساعة» ، قالت فهزّت صديقاتُها رؤوسهن استسلاماً على مضض . قرأتْ :

«اهْربْ متخفِّياً في ثياب أمكَ ،
إن كانت ثيابها على مقاسك .
اهربْ متخفياً في ثياب اختكَ ،
إنْ كانت ثيابها على مقاسك .
أنا قادمة إلى مدينتكَ فجراً ،
يا ابن كلِّ كلبةٍ» .

اغتلى قلب درخو من عدم اكتراث صديقاتها . لوَّحت بيدها : «ارحلْنَ جميعاً . اخرجْن من هنا» ، قالت باستياءٍ خفيف من ذلك التجاهل الواضح في نظراتهن .

«لا تهتمِّي بنا ، يادرخو» ، قالت تاسو مبديةً تضامناً معها . «لكنني

لاأفهم ، يادرخو ، كيف تأمرين رجلاً بالهرب . تشبَّثي به . لو كنتُ في قصيدتك لتشبَّثت به ، وبأمه ، وبأخته ، وبمدينته . في المرة القادمة ، حين تكتبين شِعراً عن رجل ، أوجدي لي مكاناً في القصيدة . أدْخليني إليها . دحرجيني إليها . اقذفي بي ، بكل قواك ، إليها» .

«خفِّفي شحمك قليلاً ، ياتاسو ، كي أستطيع القذفَ بك إلى قصيدتي القادمة» ، قالت درخو .

«نبيُّك هذا ، زرادشت ، هل . .» ، قالت سلام ، فقاطعتها درخو :

- نبيُّ الأكراد زرادشت ـ زوجي .

«حسناً . هل عند نبيِّنا زرادشت ـ زوجكِ ، وعدٌ برجال كثيرين لكل امرأة ، في الفردوس؟» ، ساءلتها سلام ، فردت درخو :

- وعدُهُ أنك لن تعرفي ، طوالَ الأبدية ، متى تنفَّسْتِ آخر مرة . لن يكون عندكِ متَّسَع لتتنفسي بين رَجل وآخر .

«هذا دِيْنٌ للقيامة فيه شكلُ قضيب» ، قالت تاسو .

«نعم» ، ردت درخو . «لكلِ دِيْنٍ قيامةٌ على شكلٍ يخصُّه : فرْج . قضيب . رَدِفٌ مكوَّر مثل أرداف البرازيليات في مهرجان ريودي جانيرو» .

تجرَّعت شتولا ثلث علبة الجعة بلا التقاط نَفَسٍ . انتشى لسانُها فتنفَّست الكلماتُ :

- لماذا يُكافَأُ الإيمانُ ، دائماً ، بأجرٍ هو النَّيك؟ . البعث . الحساب . الجنة . الجحيم : كلُّ شيء فرْجٌ!! .

«ياعصفورة السويد ، وحكمتها ، ياشتولا» ، قالت درخو مستحسنةً .

لم يلحق خيالُ شيراز بكلمات صديقاتها ، مُذْ جثمَ على بيضةِ لوعتها ، في عُشٍّ اسمُه نوح . ظلت ذاهبة إلى المطبخ ، آيبة منه بقدح كبير من القهوة السوداء ـ هي التي لا تدخن ، ولا تشرب كحولاً . أكلت خُمسَ

ما في صحنها مع رشفات من القهوة . أكل قلبُها نصفَ قلبِها : «هلاً اتصلت إحداكن بنازلي» ، تمتمت .

«اتصلي بها» ، قالت زنتانا ، التي تستسيغ رائحةَ دخان التبغ .

ابتلعت شيراز كلمات صديقاتها مريرةً مع جرعة من قهوتها .

«بأية شفرات تحلقن فروجكن؟» ، سألت تاسو صديقاتها .

«من سيرى فروجنا ، يابلهاء؟» ، قالت زليخا .

«أصابعكن» ، قالت تاسو .

صفعت شتولا يدَ تاسو بلطفٍ موبِّخةً . قالت بصوت فيه استياءٌ ملحوظ :

- لماذا عرفت وحدك ، ياسلام ، برحيل راوت؟ .

«مصادفة» ، ردت سلام ، ذات الثديين الصغيرين .

«عَتَبي على راوت لن يخمِّنه أحد» ، قالت ريحاني . «كنا معاً ، سبت الأسبوع الماضي ، أليس كذلك؟ . من منكن لاحظت تخطيطها العاجل لهذه الهجرة الفجائية؟» .

«عَتَبي أيضاً» ، قالت شتولا . «زوجها السابق ، نفسه ، عرف برحيلها» . نظرت إلى سلام : «أنتِ قلت ذلك» . مَعَست علبة الجعة الصفيحَ الفارغة في راحتها : «أين موقعنا في علاقات راوت؟ . لن أفتقدها» .

«حرام عليك ، ياشتولا . لاتكوني قاسية» ، قالت تاسو .

«أأنا القاسية ، أَمْ راوت؟ . كم من السنين هي صديقتنا؟ . الصديقة لا تفعل أمراً كهذا متجاهلةً صديقاتها» ، قالت شتولا .

«هل أنهيتنَّ أكلكن؟» ، تساءلت شيراز بغتةً ، فرفعت درخو حاجبيها تعجُّباً :

- أترين صحوننا فارغة؟ أترين أفواهنا فارغة؟ .
تنبَّهت شيراز إلى خفَّة سؤالها . قالت معتذرة :
- لم أعد أرى .
حدَّقت إليها تاسو ، الجالسة إلى يمينها :
- أهناك ما يُقلقُكِ ، ياشيراز؟ .
«أأبدو قَلقة؟» ، سألتها شيراز . أردفتْ : «تبدين قَلِقة أكثر مني ، ياتاسو» .
«هذا ما عنيتُه» ، قالت تاسو . «أنت لا ترين جيداً» .
أطرقت شيراز برهةً . لم تستطع لَجْمَ أعماقها المُتَّقدة ، المتطايرة الشَّرر إلى لسانها . مدت يدها إلى قدح النبيذ أمام درخو ، الجالسة إلى يسارها ، وأفرغتْه ، بتمامه ، في جوفها . أعادت القدحَ فارغاً إلى المائدة . تنهَّدت حسرةً .
«هل رأيتُنَّ هذا؟» ، قالت درخو مُعجبة مما فعلت شيراز . «فلتملأْ لي إحداكنَّ القدحَ . لقد تحرَّك حُوتُ الكون ، في هذه البرهة ، بعد سباتٍ منذ موت زرادشت - زوجي ، قبل ألفين وستمائة عام» .
«أنت ترين جيداً ، الآن ، ياشيراز» ، قالت تاسو .
«نعم» ، وافقَتْ شيراز . وضعت يدها على الهاتف الصغير في جيب بنطالها الأسود . اعتصرتْهُ . نهضت :
- أتريد إحداكن شيئاً من المطبخ؟ .
«هاتي إبريق النبيذ» ، قالت درخو .
«نبيذ ريحاني ليس في إبريق ، بل في وعاء زيت الزيتون البلاستك» ، قالت شتولا .
«هاتي نبيذاً في صَفَنٍ خصيةٍ ، ياشيراز» ، قالت درخو .

دفعت زنتانا صحنها إلى أمام ، معلنةً شبَعها . مدت قدَحها الفارغ صوب شتولا ، الجالسة قبالها على المائدة :

- ألديك شيء من الجعة في علبتك؟ .

سكبت شتولا جعةً في قدح زنتانا حتى منتصفه .

«تموَّنَّ من التوابل . خبِّئْنها في صناديق لسنين أعماركن القادمة» ، قالت زنتانا من بين شفتيها المطليتين رغوةً من رشفة الجعة .

«هل ستغزو الهندُ الدولَ الأسكندنافية ، وتتقاضى الضرئبَ أكياساً من التوابل؟» ، ساءلتها ريحاني .

«الأمر أسوأ» ، ردت زنتانا . «ستُحرقُ التوابلُ . ستُعْدَم» .

«أوو» ، تمتمت شتولا . «دوَّختك الجعةُ سريعاً ، يازنتانا» .

«دوَّختني أخبارُ إمام مصري في أحد مساجد النروج . أفتى بإعدام التوابل . أسمعتُنَّ به؟» ، ساءلتهن زنتانا بعينين تساوت فيهما نِسَبُ الفضول والاستغراب .

«ضد التوابل السافرة بلا حجاب ، أَم العارية؟» ، ساءلتها سلام ممازحةً .

«يزعم إمام المسجد النروجي أن التوابل تُلهي العقل عن استذكار الله . لمذاق التوابل فتنةُ حَجْبِ الله ، والغفلةِ عنه . التوابلُ بدعة . التوابلُ تُحيلُ الطعامَ هرطقةً . ينبغي أن يظل الطعام فقيراً في مذاقه فلا يُلهي ، أو يُفتِن . الطعامُ خالياً من نكهة التوابل شُكْرٌ خالص . هذا ما يزعمه إمام المسجد النروجي . منطقُ دعواه يلقى صدىً ، الآن ، في ضواحي المدن الأسكندنافية . قرأتُ ذلك على الإنترنت . بعضُ المهاجرين لم يعد يبيع ، في المتاجر ، توابلَ من أيِّ نوع . فُتيا الإمام المصري تقرع أبوابَ السويد» ، قالت زنتانا بتأكيدٍ من إشارات يدها . أضافت ، وسط نظرات صديقاتها المبتسمات :

«بدأ الإمام سعياً جاداً لاستصدار تأييد من علماء الأزهر ، في القاهرة . لا تتهكّمن الآن . قد تجتاح دعوةُ الإمام المصري السويدَ بعد عقدْين . خبِّئْنَ التوابلَ لأحفادكن في أقبية العمارات» .

ضربت شتولا بعقب علبة الجعة الصفيح سطحَ المائدة ضرْباً ليِّناً :

- بدأتْ حروبُ الأرض بفتْحِ طُرُقٍ للتوابل ، وستنتهي حروبُ الأرض بإغلاق طُرق التوابل .

سُمِعتْ قرقعةٌ في المطبخ . شيء مَّا تناثرَ هشيماً . بوغِتتِ النساءُ فأصغين . قامت شتولا تستطلع الصخبَ : كان هاتفُ شيراز المحمول مُلقىً أشلاء صغيرة على الأرض .

«ماذا حدث ، ياشيراز؟» ، سألتها شتولا ، فردت شيراز واضعة يداً على قلبها فوق جزء من ثديها الأيسر ، العارم :

- سقط الهاتف من يدي .

لم يكن توضيح شيراز مُقْنِعاً . قرقعة صاخبة ، وآلة متناثرة أشلاء مسحوقة ، لا تدلاَّن على سقوط هاتف ، سهواً ، من يد . همت شتولا بجمع الأجزاء المتناثرة ، فاستوقفتها شيراز : «سأفعل ذلك» . أشاحت بوجهها القَلِق صوب المغسلة : «هل أساعدك في شيء ، ياشتولا؟» .

عادت شتولا إلى المائدة : «سقط هاتفُ شيراز أرضاً . حمدٌ لله أنه ليس ثميناً كهاتف سلام» .

«حدِّثينْا أكثر عن إعدام التوابل ، يازنتانا» ، قالت زليخا ، فسارعت شتولا إلى الرد :

- لاتخافي ياتابلَ منطقة شيْسْتا .

«لستُ خائفة إلا على تابلٍ مثلك ، ياعصفورة السويد» ، قالت زليخا . تلمَّست حواف قبعتها المخمل ، الأيرلندية ، فوق شعرها العاصفِ خُمرةً .

هَادِيْنْ ، ابنة زليخا ، ترسل إليها ، من لندن ، قبعات أيرلندية . غادرت السويدَ في بعثة صغيرة من مثيلاتها الهائمات بكشوف الأزياء ، إلى بريطانيا العظمى . كانت هادين لمعَةً ، في معهد التصاميم ، بنزوعها إلى المُبْتَكَر . اخْتِيْرَتْ للبعثة . غادرت السويد ، وهي في الثانية والعشرين من عمرها ، ثم لم ترجع إلاَّ زائرةً أمها مع زوجٍ أيرلندي .

هادين باتت أمَّ طفلة ببلوغها السادسة والعشرين . تزود أمَّها ، بلا توقف ، بالقبعات الأيرلندية ، من مكان إقامتها في لندن .

في السابعة عشرة هربت زليخا مع صانع بيتزا تركيٍّ ، من ستوكهولم ، إلى عائلته في مدينة سَانْدسْفال ، بأواسط السويد العليا . تزوجته على عجلٍ ، عند شيخ سويدي الأصل ، اعتنق الإسلام ، تولى تزويجهما على عَجَلٍ . تركتْه بعد أربعة شهور حبلى بابنتها هادين . لم تتوقف أمها عن نعْتها بالقحبة ، حتى في حضور أبيها ، وأخوَيها اللذين يكبرانها .

قدِمتْ العائلة ـ الأب ، الأم ، الأَخَوان ، وزنتانا ـ من القامشلي إلى السويد ، وهي في السادسة عشرة . أتقنت اللغةَ الجديدة سريعاً قبل هربها مع صانع البيتزا ، الذي تجلَّت المماحكات بينه وبينها منذ الشهر الثاني من زواجهما ، باستعلائها عليه في مهارات اللغة ـ هو المقيم قبلها بعشرين سنة .

قوَّضت المماحكاتُ ، باللغة السويدية ، الجسرَ المرصوفَ بأخشاب وجدانيهما . تقطَّعَتْ حِبال الجسر . عادت زليخا إلى أهلها سِباحةً في مجرى طيشها الأول ، عائمةً على بطنها المنتفخ بابنتها هادين .

«لستُ قحبةً ، يا أميَ القحبة» . هكذا بادلت زليخا أمَّها ، سنتين ، نَعْتاً بنعتٍ ، قبل أن تغادر إلى شقة رجل سويدي عنده ابنة من زواج سابق في عمر ابنتها . تدبَّرت زليخا دخلاً من تطريز أغطية لمخدَّات الزينة

بالخيوط المُقصَّبة . مهنة تعلمتها من أمها ، لكنها ابتكرت إضافةً بجلب قماش مقصَّب ، بذاته ، من سوريا ، في رحلتين لم تُضِف إليهما رحلة ثالثة : كانت لا تعبر ضابطاً ، أو جمركيًا صغير الرتبة ، كلما دخلت مطار دمشق ، إلا حظيت بالسؤال ذاته : «أنت مقيمة في السويد . ماذا تحملين إلى أولادنا من هدايا السويد؟ . أرِنّا نقود السويد ما لونُها» ، يقولون بتلميح فظٍّ لا تجد معه بُدّاً من دفع «هدية» لأولادهم .

أضافت زليخا كلَّ ما تحتمل مخدَّة تُزَين بها المقاعد ، والأرائك في المنازل ، من عناصر تزويق تجدها في السويد نفسها : الأزرار الرقائق الذهبية ، والخيوط الذهب ، والشراشيب ، وأشرطة القماش المجدولة حبالاً ناعمة تُخاط بسهولة إلى الحواف العلوية للمخدات . مخداتُها ، تلك ، ستقودها ، في مطلع الألفية الثالثة ، إلى صداقة زنتانا حسن ، بعدما صارت أمًا لصبيين ، أيضاً ، من أب فنلندي ، إضافة إلى ابنتها هادين .

لم تدم علاقة زليخا بصديقها السويدي أكثر من سنة . بهدوء كعبور دراجة ، حمل السويدي ابنتَه ، وأمتعته ، إلى صديقة جديدة ، تاركاً الشقة الصغيرة لزليخا . مِيْكُو لِيْتُونِن ، النجار الفنلندي ، سيملأ فراغ الشقة بعد رحيل صديقها . تعرفت إليه قبل ذلك بعامين ، حين أضاف من علوم اختصاصه جَمالاً إلى دارة اشتراها أخوها وليد حسن ، ذات حديقة تطوقها من ثلاث جهات ، فأنشأ لأطفاله منزلاً خشبياً ، في الحديقة ، وحوَّل المطبخ إلى ما يشبه حانةً في غابة .

استدعت زليخا النجارَ الفنلندي لصُنْع أريكة واطئة في مطبخها ، يلذُّ لها الاستلقاء عليها في مواجهة تلفاز صغير على المصطبة ، قرب نهاية صفيح مَغْسلةِ الآنية . ميكو ، البالغ السابعة والثلاثين ، لم يكن ليلبي طلباً خفيفاً كذاك لأحد . هو رجل المشهد الكبير لخيال الخشب . لكنه ، بضرورة

لا تفسرها مذاهبُ الأقدار المُرْتَجَلة ، هبَّ إلى زليخا بقلم رصاصٍ ، ومترٍ خشبٍ مفصليٍّ الأقسام يُطوى ، كأنما يستعرض ماضي النجارين .

لم يفصِّل ميكو أريكةً واطئة لزليخا ، في مطبخها . نقلها ، بعد لقاء شربا فيه تسع علبِ جعة صفيح من عيار ٥٫٣٪ كحولاً ، إلى شقتهِ مع ابنتها . انجبا طفلاً أول سمَّياه كاريَ ـ بِيْكًّا ، يقيم ـ في أيام زليخا الراهنة ـ عند صديقة له في مالمو ممثلاً مسرحيًا ، وهو ـ بَعْدُ ـ في عامه الثاني والعشرين . ثم أنجبا طفلاً ثانياً سمَّياه زَرُو ، بالكردية ، باتِّفاق تسويةٍ بينهما يجمع الاسم الفنلندي لابنهما الأول ، إلى الاسم الكردي لابنهما الثاني .

بعد ثلاث سنين من انجاب ابنها زرو ، انفصلا . أقامت زليخا ، منذئذ ، في شقة بمنطقة شيسْتا ، في الطبقة الثالثة من مبنى يقع في شارع أولاف فريتيو فيسدوتر .

غادرت ابنتها هادين إلى لندن . غادرها ابنها كاري ـ بيكًا إلى مدينة مالمو . بقي زرو ، البالغ العشرين ، وصديقته مَالِيْن ، الرجراجة الردفين ، معها ، في شقتها .

مخدَّات زليخا ، المتوهجةُ زينةً ، قادتها إلى زنتانا : «أريد واحدة بعرض سرير ابنتي ، مدوَّن عليها اسمها ـ سيرين ، مع الرموز الرياضية الكونية : نايكي ، أديداس ، بوما ، لاكوست ، أمبرو ، تيكينو ، فرِدْبيري» ، هكذا قدَّمت زنتانا عَرْضها إلى زليخا ، في بيت صديقة أسهمت في لقائهما تدعى نُوْرِين ، كثيفةِ الشَّعر . اعتذرت زليخا :

– عندي بعض المخدات المقصبة ، لا أكثر . لا أصنع حسب الطلب . لستُ محترفة . الأمر كلُّه أمرُ دخْلٍ صغير أحصِّله من المعارف ، والأقرباء . صندوق الضمان الاجتماعي يطالِبني بالعمل ، ولا أجد عملاً . لغتي السويدية ، الجيدة لم تشفع لي في إيجاد عمل .

هزت نورين رأسَها استنكاراً . لوَّحت بيديها أمام وجه زنتانا تمادياً في الاستنكار :

- لا تصدِّقيها ، يازنتانا . زليخا لا تبذل جهداً للعثور على عمل . المهاجرون بارعون في الأعذار . كلُّهم يعانون أمراضاً في المفاصل ، أو في أعمدتهم الفقرية . إن لم تنفع أعذار كهذه لدى الدولة ، كي يحصلوا على تقاعدٍ وهم في العاشرة من أعمارهم ، ادَّعوا العَتَاهةَ النَّفْسية ـ الخوفَ من التجمعات ، الصَّرَع ، الإغماءَ المتواصل كلما سُئِلوا عن أسماء أمهاتهم . زليخا متضامنة مع هذا الصِّنف . لغتُها السويدية تكفي للترجمة من السويدية إلى السويدية .

«لست من هؤلاء» ، ردت زليخا دافعةً عن نفْسها تهمةَ ابتزاز الدولة .

«اصنعي مخدة لابنتي . مخدة واحدة بحسب الطلب ، وسأقودك إلى أروقة دائرة الهرة ، يازليخا . الترجمة سهلة بين الأكراد المهاجرين والمحقِّقين . أمْ تُحسنين العربية ، أيضاً؟» ، سألَتْها زنتانا .

«أعرف العربية» ، قالت زليخا .

تلك الأمسية ، في شقة شيراز ، بعد سِجال رقيق بين شتولا وزليخا عن إعدام التوابل ، ساءاتها شتولا ، على نحوْ غيرِ واضحٍ في مقصده :

- أتترجمين عن العربية ، يازليخا؟ .

نظرت إليها زليخا مستغربة :

- منذ بضع سنين تعرفين أنني أترجم عن العربية ، أيضاً . جئت السويدَ في السادسة عشرة . دراستي ، باللغة العربية ، لم تزل فَتيَّةً ، كعُمركِ ، تحت قميصي الطويل هذا . لماذا تسألينني وأنت لا تعرفين العربية؟ .

دخلت شيرازُ الصالةَ ، آتية من المطبخ ، وهي ترمي كلماتها إلى لا أحد :

- هل اتصلت إحداكن بنازلي؟ .
«اتصلي بها» ، قالت زنتانا .
«أكلَّما سألْتُكن عن نازلي تردُّ زنتانا؟ مابك يازنتانا؟ . أليست نازلي صديقتك أيضاً؟ ألا يثير غيابُها فضولك؟» ، قالت شيراز محتدَّةً .
«بلى . يثير أكثر من فضولي . يثير غيابُها قَلَقاً عندي . افترضي ، ياشيراز ، أنني ميتة . اتصلي ، أنت ، بنازلي ، وأريحينا جميعاً من قلقنا عليها» ، ردت زنتانا محتدمةً بدورها .
نقرت درخو قدحَها بإصبعها نقراً عنيفاً . «اسمعنني» ، قالت . «أصارحكن أن لدي انطباعاً غيرَ مريح ، يتراكم أمسية بعد أمسية . ألاحظتُنَّ كأنما نحن ، الصديقات العشر ، امرأة واحدة ، لها تاريخ هزيل واحد ، تعب واحد ، حديث مملٌّ واحد ، يامطلَّقات السويد؟ . ألا ترين أننا حين نكون معاً كأن إحدانا جالسة مع نفْسها ، تكلم نفْسَها ، تخاصم نفسَها؟ . زواج . طلاق . مماحكات . ألسنة سوقية مبتذلة . مناكفة أبدية بين زليخا وشتولا . نحن فروج محكومة بالإعدام في يوم واحد» .
«نحن مختلفاتٌ في أعمارنا قليلاً ، يادرخو» ، قالت شتولا ، فردت درخو ، وهي تُبعد كرسيها عن المائدة زحفاً على قوائمه :
- ما نفْعُ اختلاف أعماركنَّ الآن؟ . فروجٌ متناثرةٌ ميتةً من حولكن : لقد نُفِّذ حُكْمُ الإعدام .
ساد صمت مُرِبك من احتدام درخو غير المعهود ، هي التي عهدْنَها ساخرةً أبداً .
«هذا كله من دلال شتولا» ، تمتمت زليخا . «أنت فتيَّةٌ ، ياشتولا ، لكن دلاَك مترهلٌ كصَفَن خصية جدي» .
«ما الدَّلال ، الذي تتحدثين عنه ، يا ممسوحةَ الردفين؟ . أن أجلس

معك ، في مكان مًّا ، تنازلٌ مني لادلال فيه» ، قالت شتولا .

نهضت زليخا مُنقذفةً من كرسيها مصعوقة : «لن أجلس معك بعد اليوم» ، قالت . «إمَّا أن تخرجي ، الآن ، أو أخرجَ أنا من هذه الشقة» .

«اهدءا» ، صرخت شيراز . «أنتما في بيتي» .

«لم أعد في بيتك» ، قالت زليخا . مضت إلى الردهة تلتقط معطفَها ، وتنتعل حذاءَها ، خارجةً من الباب ، وسط ذهولٍ مشوبٍ باستياءٍ في أعين الجالسات .

«لن أحضر أمسية ، بعد اليوم» ، تمتمت درخو ، وهي تتجرَّع قدحاً مليئاً بالنبيذ على آخره .

«لستِ جادة . قولي إنك لست جادة ، بحقٍّ الله عليك» ، تمتمت سلام بصوت هادىء .

«سترين» ، ردت درخو .

وضعت تاسو الصامتة رأسها بين يديها : «أسْمعيننا أغنيةً ، ياشيراز . لن يصحِّح اللهُ هذه الأمسيةَ السَّلَطةَ إلاَّ بأغنية» ، قالت .

«أغنية؟ . بِمَ تفكرين ، ياتاسو؟» ، سألتها شيراز .

«بِمَ أفكر؟ هل علي أن أخبرك حقًا بِمَ أفكر؟ سيُغمى على بنطالك» ، ردت تاسو . استدركَتْ :

– لِمَ تسألينني بِمَ أفكر؟ أسؤالك دغدغة أمْ لذعة؟ .

«لا أعرف» ، تمتمت شيراز . تطلعت حولها بنظرة نصف دائرية بحثاً عن أجزاء من جسدها غادرت جسدَها . وضعت يدها على كتف سلام :

– أعيريني هاتفك . سأكلم نازلي .

«أهناك خلل في خطوط الهاتف؟» . تساءلت سلام ، في إشارة عفوية إلى هاتف شيراز المنزلي .

ردت شتولا من فورها :

– هاتف باثني عشر ألف كرون ينتقي ، بنفْسِه ، للمتحدِّث منه كلماتٍ لها عقلٌ ربّاني .

«اسكتن» ، قالت زنتانا . وضعت هاتفها المحمول على أذنها : «إنني أتصل بنازلي» .

لم يدم رنينُ هاتفها طويلاً .

«نازلي . جلبتِ لنا قلقاً . اعذرينا . كان علينا الاتصال بك باكراً . تعرفين . ماذا؟» . سكتت زنتانا لحظة مديدة . عادت إلى الكلام ، وهي تجول ببصرها على صديقاتها : «ماالذي ستفعلينه؟» . سكتت ثانيةً . تكلمت : «احتفظي به ، ياجدَّتي» . ضحكت . سكتت تصغي أكثر . هزت كتفيها من غير داعٍ : «سنتحدث ، في الأمر ، باستفاضة غداً . نحن نعاني في أمسيتنا هذه من قراءة البخت في فنجانٍ مكسور» . أقفلت الهاتف .

«فلْتُعطِني إحداكن جرعة جعة . قدحي فارغ» ، قالت نازلي . «صديقتنا نازلي وقعت في فخٍّ نصبه لها زُبٌّ ابنها نوح» .

تخلّعت عضلةٌ مّا في قلب شيراز ، محدِّقة إلى زنتانا في وقفتها قرب سلام الجالسة . استرسلت زنتانا :

– منذ يومين جلب لها ابنُها نوح صديقة سويدية ، في السادسة عشرة ، حبلى . هي حبلى منذ ثلاثة شهور . نازلي تعتقلُهما لتعرف ماذا ستفعل . حطمت كومبيوتر ابنها ، وهاتفه المحمول ، وآلةَ موسيقاه .

«فلْترسل نازلي الفتاةَ إلى تركيا . ستجد من يجهضها بخمسين دولاراً» ، قالت ريحاني ساخرةً .

«هذه هي الدنيا . ستنضم نازلي إلى قافلة الجدَّات» ، قالت درخو .

غادرت شيراز الصالةَ . عادت بعد قليل بعُصابة حريرية الملمس ، حتى لو لم تُلْمَس ، حول رأسها ، يتوسطها عَلَم الدانمارك . وقفت وسط الصالة ، في الفسحة الواقعة بين المائدة والردهة : «ماذا لو أجرينا بعضَ التمارين الرياضية ، معاً ، الآن؟» ، قالت . قفزت عالياً فاتحة ذراعيها كجناحين . مالت بجذعها يميناً ، ثم يساراً . تمدَّدت بجَنبَها الأيمن على الأرض . حرَّكت فخذها اليسرى كالمقصِّ مرات .

قهقهت صديقاتُها . نهضت شيراز . أزاحت العُصابةَ الحريرَ عن رأسها ، ورمتْها قَذْفاً إلى الأريكة الزرقاء ، السميكة القماش . جلست على الكرسي ، الذي غادرتْه زليخا . أمسكت القدحَ المهجورَ ، الممتلىء حتى نصفه بالجعة ـ قدحَ زليخا . تجرَّعتْ ما فيه .

تلك الليلة ، بعد أن غادرت صديقاتُها الشقَّةَ ، نزلت شيراز إلى الحديقة الصغيرة ، على مبعدة أمتار من عمارتها ، حيث مراجيحُ الأطفال ، ومَهَابطُ تزلُّقهم المعدنيةُ المنحدرة . جلست فوق كومةِ رملٍ يلهو بها ، عادةً ، صغارٌ يحفرونها ، كهوفاً ، ويبنون منازل وأهرامات . غرزتْ أصابعَها في الرمل البارِدِ ـ رملِ الأسبوع التاسع من خريف السويد ، تحت الضياءِ الفضيِّ الثرثرةِ منثوراً من أفواه المصابيح العالية .

المساءُ الرَّكْلةُ. أو:
بغالُ الأسبوع العاشر من الخريف.

ثلاث عشرة دقيقة هي المسافة من محطة قطار منطقة آلْفيك إلى شارع ألْبينْ سْترومر، حيث تقيم سلام شيخ غردق. صديقاتٌ ثلاث، قَدِمْنَ في ثلاث مقطورات من غير أن تلحظ إحداهنَّ الأُخرى، تلاقين على باب المَخْرج من المحطة. شيراز، وريحاني، وتاسو، اتَّقيْنَ بالمظلات مطرَ الأسبوع العاشر من خريف السويد.

«هذه الرطوبة ستدمِّر شَعري»، قالت شيراز، ذات الشعر السَّبِط، المقصوص حتى شحمتَيْ أُذنيها.

«لم يعد لديَّ شَعر. إنه يتآكل»، قالت تاسو. توقفت عن المشي متلفِّتة من حولها: «أما من طريق أقصر إلى عمارة سلام؟».

«كم مرة زرت شقة سلام، ياتاسو؟»، ساءلتها ريحاني.

«بعدد شَعر شاربيَّ»، ردت تاسو.

«تعرفين، إذاً، أنْ لا طريق أقصر من الطريق هذه إلى بيت سلام»، قالت ريحاني.

«أعرف»، قالت تاسو، وهي تُخْفِض مظلَّتها لتحمي رأسَها أكثر: «سؤالي موجَّه إلى المطر، لا إليكنَّ».

«يا للكلب»، صرخت شيراز حين صدمها أحد المارة بكتفه. «ألا ترى؟». تلمَّست رأسَها بإحدى يديها: «أزاحت الصدمةُ المظلةَ فابتلَّ

شعري» ، قالت حَنِقَةً .

أبعدت ريحاني مظلّتها ، لبرهة ، عن رأسها :

- قليل من المطر ، على رؤوسنا ، تذكيرٌ بقُبْلة لا تُنسى .

«لاتحتاجين إلى مطر فوق شعرك لتتذكّري قُبلةً . قُبلةٌ لا تُنسى هي قُبلة لا تُنسى ، ياريحاني» ، قالت شيراز .

«قُبلةٌ لا تُنسى ، ياشيراز ، تحتاج - أيضاً - إلى تذكيرٍ بها» ، قالت ريحاني .

«مَنْ تُراكِ قبّلتِ في أيامك هذه؟» ، ساءلتها تاسو .

ابتسمت ريحاني : «سأشرب قليلاً من نبيذي ، الليلةَ» ، قالت وهي تهز الكيسَ ، الذي في يدها ، بما يحوي من الثلاثة الأوعيةِ البلاستك - أوعية بيبسي كولا ملآى نبيذاً .

«سأشرب أنا ، أيضاً» ، قالت تاسو . «سأشعل أرضَ الله في منطقة رِنكبي الأسبوعَ القادم . وداعاً يا اسم شارع كاترينا باركن» .

دمدمت شيراز محتدَّةً ، من جديد : «ماذا يجري؟ . أكُلُّ البشر عميان هذا المساء؟» ، قالت وهي تلتفت ، في غضب ، إلى شخص صَدَم كتفها .

«احْترِسي أنتِ» ، قالت تاسو . «إن كانت البشرية عمياء ، هذا المساء ، فلا تكوني» .

«أأنتِ معي ، أمْ ضدي ، ياتاسو؟» ، قالت شيراز وقد توقفت عن المشي .

«أنا معك» ، قالت تاسو . جرَّتْها من ذراعها : «أنا معك . كوني ، أنت ، مع عينيك» .

أطبقت ريحاني مظلّتها ، تاركةً للمطر الخفيف أن يلتقط حنطةَ السواد ، المفعم صبغةً ، قَدْرَ ما يريد ، من بَيْدر شَعرها المُرسَلِ طويلاً إلى

كتفيها . نظرت شيراز إليها جانبياً بازدراء :

- ما الجسارة ، التي تتصنَّعين أنك تملكينها ، ياريحاني؟ .

«لا جسارة ، ياشيراز . أمرٌ يخصُّ قلبي . تجاهليني . انظري أمامك . أرى الطريقَ ، هذا المساء ، كعكةً تؤكل» ، قالت ريحاني . ضغطت شفةً على شفة في بللهما . قبل خمس ساعات ضغطت شفتيها على شفتَيْ توفو ، ابنِ نازلي ، الذي لا يعرف منَ القُبَلْ إلاَّ إغلاق فمه . فتحت فمهُ عنوَةً . اعتصرت رأسَ لسانه برأس لسانها اغتصاباً لم يستسغه فمُ ابنِ السادسة عشرةَ ، لكنه استسلم له . اعتصرته ثلاث مرات ، نَزْفاً بعد آخر ، في قدح نشيجها لذَّةً ، وهي تحتضن شعرَه المجدولَ أفاعيَ كثيرةً ، على النسق الأفريقي ، بطول خمس سنتيمترات للجديلة الواحدة .

قبل إحدى عشرة دقيقة من مجيء ابنتها رونوش وصديقاتها ، أنجزت ريحاني كمالَ تعبها المُحْيِي . «انزلِ الدَّرَجَ ، ياتوفو» ، قالت له إذْ غادر . «لا تستقلَّ المصعد» . صرفتْهُ في المهلة الأخيرة قبل انتحار الوقت : ابنتُها ، وصديقاتها ، سيقضين أمسيتهن في الشقة حتى عودتها ـ هي التي أعدَّت لهنَّ أُنْسَاً من الطعام تستسيغه أعمارهُن : النقانق ، ورقائق البطاطا المقلية المجفَّفة ، وشرائح من أصناف اللحوم الباردة الجاهزة ، وبعض السَّلطة بلا ثقةٍ في أنهن سيتناولنها .

مستغرقةً في الذي أعادها إلى أصلٍ إلهيٍّ ، بنبوَّة اللحم في سريرها ، قبل ساعات ، أحست ريحاني رعشةً . حتى اللحظة الأخيرة من استنزافها الشابَّ الصغير سَهَتْ عن موعد عودة ابنتها . بل لو امتدَّتِ اللحظاتُ لذَّةً لما أفاقت حتى لو دخلت ابنتُها وصديقاتها الشقةَ صاخباتٍ . ارتعشت ريحاني إذ عبرت الصورةُ خاطرها . ابتسمت . مَنْطقُ جسدهًا لم يترك لعقلها أن يلتقط أنفاسَهُ .

إحدى عشرة دقيقة . مصادفةُ المسافات ، والحركة في المسافات ، أنجزتْ لريحاني كمالَ تَعَبها المُخْيي قبل وصول الفتيات الصغيرات . انصرف توفو على عَجَل بلفافة من النقود في اليد . إحدى عشرة دقيقة ، لا أكثر ، قبل أن يهشِّم صخبُ المراهقات ، في دخولهن الشقة ، تماثيلَ الشهقات المرفوعة من رئتَي ريحاني إلى مجدِ كلِّ جسدٍ كُلِّيٍّ .

المطر يذكِّر شعر ريحاني ببرهة الخوف من الفضيحة ، وبرهة السهوِ عن الخوف من الفضيحة بالبراعة في منطق الجسد إذا اغتلم وَهَاج . إنها في الطريق إلى بيت سلام الآن . لا فضيحة . جسدُها أنجزَ كمالَ تَعَبه المُخْيي : لا بأس بالمطر على شعرها .

لم تكن شيراز ترى الشارع ، بل الظلام النقيَّ متخبِّطاً في شَبكة لوعتها . لا اتصال من نوح ، في الاسبوع الثاني لغياب جسده عنها ، وغياب صوته . كانت عنيفة في تدريباتها الرياضية ، عصرَ هذا السبت ، حتى إن النساء ، اللواتي تدرِّبهن ، في القاعة ، توقفن مراراً لا يقدرن على مجاراتها . وقد كاد تلاسنٌ بينها وبين إحدى الكرديات المتدرِّبات يتحول إلى شِجار .

«مابك ، يالطيفة؟ هل تغذَّيتِ حديداً ، اليوم؟» ، قالت شيراز بالسويدية ، فوضعت لطيفة يديها حول خصرها ، فوق الجلباب الطويل ، تستحضر سخريةً تقايضُها بسخرية . تكلمت بسويدية متخلِّعة :

– نأكل الحديد ، أحياناً ، على الغداء . لكن ، لم نَصِرْ قروداً بعد .

– ماقصدُك ، يالطيفة؟ .

«من تستطيع أن تقفز مثلك ، وتدور حول نفسها مثلك ، ياسيدة شيراز ، تحتاج إلى موهبة قِردة» ، قالت لطيفة بالكردية .

مدت شيراز إصبعها في اتجاه صدر لطيفة متوعِّدةً :

- عودي السبت القادم وقد صرتِ قِردةً .

«لماذا لا أعود السبت القادم بغلةً ، كي أتمكن من التدرُّب مع بغلة ، ياشيراز؟» ، قالت لطيفة .

غمغمت النساء ، في القاعة ، وهمهمنَ بألفاظ التهدئة ، والتروِّي . أبْعَدْن لطيفة أشباراً عن شيراز .

نزعت شيراز العُصابةَ الحريرية الملمس ، حتى لو لم تُلْمَس ، عن محيط رأسها . مزَّقتها بأسنانها ، وجمعتها في راحتها لترمي بها . «أراكُنَّ السبت القادم» ، قالت ، مغادرةً تجمَعُ أمتعتَها .

توقفت شيراز عند واجهة مطعم ـ حانة ، في الطريق إلى بيت سلام . تأمَّلت الجالسين ، من وراء الزجاج ، فُرادى على كرسيٍّ عاليةٍ قبالة الحاجز ، الذي تليه صفوفُ الزجاجات الناطقة بلسان العقل الثاني .

«أتعرفين أحداً؟» ، سألتها تاسو .

«شيراز تنظر إلى انعكاس صورتها على الزجاج ، ياتاسو» ، قالت ريحاني ، التي فتحت مظلَّتها ، بعد بللٍ ألصقَ غُرتها بجبينها . حكَّت كتفَها بكتف تاسو :

- إلى مَ تنظرين أنتِ؟ .

- إلى بناطيل هؤلاء المرتاحين في جلوسهم ، ياريحاني . آه لو أستطيع جمعَها .

- جمْعَ البناطيل؟ ماذا ستفعلين بها ، ياتاسو؟ .

- سآكلها إفطاراً ، وغداءً ، وعشاءً . وسأتخيل أن بعضَها قشدةٌ مجلَّدةٌ فآكلها بين الوجبات الثلاث . إنْ تبقَّى بنطالٌ مَّا ، فائضاً ، سأسهر معه ليليَ كلَّه أسرد له حماقةَ أن يولد الإنسانُ امرأةً .

- أأنت حاقدة على نفْسك إلى هذا الحدِّ ، ياتاسو ، لكونك امرأة؟ .

ـ أنا حاقدة على أيري ، ياريحاني .

– الأمر معقَّدٌ ، إذاً ، ياتاسو . فلْنَمْشِ .

شدت تاسو ذراعَ شيراز فلم تتحرك شيراز ، ثابتةً في نظراتها إلى أعماق المطعم ـ الحانةِ . «فلْنَشربْ كأساً هنا» ، قالت شيراز بما يشبه الهمس .

انفلتت ضحكة ممزَّقة من فم تاسو :

– أسمعتِها ، ياريحاني؟ .

«ماذا؟» ، سألتها ريحاني .

– ستشرب شيراز كأساً من الكحول في هذا المطعم ـ الحانة .

«تمزحين» ، قالت ريحاني . بوغتنا بشيراز تتجه إلى باب المطعم ـ الحانة وتفتحه ، مشيرة بيدها إليهما :

– سأشتري لكما شراباً .

لم تجد تاسو ، وريحاني ، بدّاً من اللحاق بشيراز ، تحاولان إيقافها .

«شيراز» ، قالت تاسو وقد صِرن داخل المطعم . «ماهذه السخرية؟ ألم تجدي أحداً غيرنا ، نحن الثلاث اللواتي لا يتذوَّقن شراباً كحولاً؟» .

لم تردَّ شيراز . تقدمت إلى الحاجز الفاصل بمصطبتهِ بين الجالسين على الكراسي العالية وبين النادل الشقراء ، المحصَّنة بملائكة الزجاجات خلفها . كرسي واحد كان شاغراً . تبارت الثلاثُ في التخلي ، الواحدة للأُخرى ، عن الكرسي . جلست ريحاني ، أخيراً . ظلت شيراز وتاسو واقفتين ، متكئتين بمرفقيهما على مصطبة الشراب .

«ماذا ستشربان؟» ، سألتهما شيراز بصوتٍ محترفٍ . غمغمت تاسو :

– قولي لهذه النادل إنني سأشربها .

«تريد صديقتي أن تشربكِ» ، قالت شيراز للنادل الشقراء ، ذات

الربطةِ الفراشة في عنقها . لم تفهم النادل . ظلت مبتسمةً تنتظر طلباً أكثر واقعية من أن يشربَها ـ هي ـ زبونٌ مًا .

«لا أصدق هذا» ، قالت ريحاني .

«صدِّقي هذا» ، قالت شيراز . «هيَّا . اطلبا شراباً» .

« نبيذ أبيض كنبيذ ريحاني . فلنشرب نبيذاً أبيض» ، قالت تاسو بالكردية .

طلبت شيراز ثلاث كؤوس من النبيذ الأبيض قدَّمتْها إليهن النادل الشقراءُ باردةً .

«سنتأخر على سلام» ، قالت ريحاني ، وهي تربِّت بيدها على عقدها الذهبي السميك .

«وقتُها كرديٌّ . وقتُها واسعٌ كشروالٍ كرديٍّ» ، قالت شيراز .

«فلْنهاتفها لتنضمَّ إلينا ، هي ومَنْ سبقننا إلى شقتها من الإرهابيات» ، قالت تاسو .

«فكرة حسنة» ، قالت شيراز . نظرت إلى ريحاني :

– هاتفيْها .

«حرامٌ عليكما» ، ردت ريحاني . «هي متهيئة لنا بكل شيء في بيتها . لن أخذلها . فلْنشرب هذه الكؤوس ، أو لا نشربها ، ولْنُغادرْ» .

«هذا المكان طريقٌ حقيقي إلى المستقبل» ، قالت شيراز متأمِّلةً المكانَ في كسلٍ ، فردَّت تاسو بعد رشْفة غير مستساغة من الكأس النحيلة الساق :

– لا طريقَ حقيقياً إلى المستقبل إلاَّ الشتائم .

«عجِّلا ، أيتها العذراوان» ، قالت ريحاني .

«لم أدخل حانةً في حياتي» ، قالت شيراز .

حكَّت تاسو بطنها ، فوق النطاق الضيق لبنطالها . هَأْهَأَت :

- ها دخلتِ حانةً ، ياشيراز . لم تعودي عذراء .

«هل كنتِ عذراءَ ، قطُّ ، ياتاسو؟ . لا أستطيع أن أتخيل ذلك» ، قالت شيراز .

- أنتِ على صواب . أنا وطفلاي بدران ، وكمال ، اللذان جئت بهما إلى السويد وأنا في الثانية والعشرين ، وُلِدْنا معاً . لم أوجد ، أبداً ، قبل أن ألِدَهما . ولدَتني أمي وأنا حبلى بها ، وبأبي ، وبطفليَّ ، وبحدائق قامشلو ـ حدائق الزيزان ، وبكل سريرٍ فضَّ فيه رجلٌ فتاةً عذراء . حواء ، نفْسُها كانت مثلي : لم تُخْلَق عذراء .

«أين وصلتِ ، ياتاسو؟» ، ساءلتها ريحاني مستطرفةً استرسالَ صديقتها في الكلام عشواءَ .

«وصلتُ إلى هذا» ، قالت تاسو مشيرةً بالكلمة الناقصة إلى فرْجها . «وصلتُ إلى أيري» .

هزَّت ريحاني رأسَها أَسَفاً : «لا فائدة» ، قالت . تناولت جرعةً من كأسها الباردة ، المغلَّفة برطوبة كبخار النَّفسِ . «فلْنمضِ» ، قالت متوسِّلةً . «أحسُّ بحَرَج من هذا المكان» .

«أحسُّ أنَّني عذراء ، وأنا في السادسة والأربعين ، هنا» ، قالت تاسو .

أخرجت شيراز هاتفها المحمولَ من حقيبتها . نَقَرت ، باسمِ النَّقاءِ العاصف ، بابَ الأرقام ، بأنملة سبَّابتها ، ثم وضعت الهاتفَ في يد ريحاني : «كلِّمي صديقتَنا . اخترعي عذراً عن تأخُّرنا» .

ترقرق صوتُ سلام في الجوف المعدني للآلة الصغيرة قبل أن تكمل شيراز كلماتها : «هلو» .

- هذه أنا ـ ريحاني .

- أين أنتِ؟ .
- مع شيراز وتاسو، في المطعم ـ الحانةِ .
وضعت تاسو راحتَها على فم ريحاني بغتةً :
- قولي، بحقِّ الله عليك، إننا في القطار، الذي تأخر قليلاً .
«في المطعم ـ الحانة؟»، جاء صوت سلام خافتاً في سؤاله، لكنْ مسموعاً للثلاث الصديقات .
«في القطار»، قالت ريحاني مصحِّحةً خطأَ الصوابِ .
«ماالمطعم ـ الحانة؟»، تساءلت سلام في العبور الخافت لصوتها إلى حيث صديقاتُها .
«قطار . قطار»، كرَّرت ريحاني الكلمة . «سنتأخر قليلاً . مَنْ عندك؟» .
«زنتانا»، ردَّت سلام .
«زنتانا، وحدها؟ لا إرهابيّات أخريات؟»، ساءلتها ريحاني .
«لا إرهابيات أخريات . كلَّمْتُهنَّ تِباعاً : لن تحضر درخو . لن تحضر نازلي . لن تحضر شتولا . لن تحضر زليخا . أمَّا راوت فلن يعثر عليها حتى الشيخ محي الدين في شمال السويد»، قال صوتُ سلام الخافتُ في مُعْتَقَلِ الهاتف الصغير .
«سنكون عندكِ قريباً، ياسلام . ماذا هيَّأْتِ من طعامٍ؟»، ساءلتها ريحاني .
«مفاجأة»، ردت سلام .
أقفلت ريحاني الهاتف . أعادتْه إلى شيراز : «أعدَّت سلام لنا طعاماً مفاجأة»، قالت .
«لا مفاجأة تُدعى مفاجأةً إن لم تكن خصيةَ رجُلٍ»، قالت تاسو .

نظرت ريحاني وشيراز إحداهما إلى الأُخرى نظرةَ يأسٍ من خيالِ تاسو .

«فهمتُ . فهِمتُ» ، همهمت تاسو وهي ترتشف بعضاً من النبيذ البارد في كأسها . «الأمرُ سهل . شُرب النبيذ أمرٌ سهل . لماذا لم أشرب نبيذاً من قبل؟» .

«يكفيكِ نبيذُ غُلْمتك . نبيذٌ آخر سيُفسد كل شيء ، ياتاسو» ، قالت شيراز .

«لماذا تَبدين حكيمةً أكثر مني وأنا أكبر منك ، ياشيراز؟» ، ساءلتها تاسو .

«لأنني أكبرُ بشكل عادي ، فيما أنت تساومين الوقتَ على تفاصيل جسدك . أنتِ عالقة في جسدك» ، قالت شيراز ذات الكحل وحيداً تتزين به .

«ما هذا؟ هل فهمتِ شيئاً ، ياريحاني ، مما قالته شيراز؟» ، تساءلت تاسو .

«فهمتُ . نعم . أنْهِيا شرابَكما ، أو سأذهب وحدي إلى سلام . عيبٌ هذا التأخُّر» ، قالت ريحاني . نزلت عن الكرسي العالي ذي السيقان النحيلة ـ سيقان طيور اللقلق . «ادفعي ثمنَ النبيذ ، ياشيراز» .

«دفعتُ قبل أن نشرب الجرعةَ الأولى» ، ردت شيراز .

اتجهت ريحاني إلى الباب : «أنا ذاهبة حتى لو بقيتما» ، قالت .

لحقت بها شيراز ، وتاسو . فتحن مظلاَّتهن خارجاً . تأفَّفت تاسو وهي تتبع ببصرها ثُلَّة من الشُّبَّان :

– لماذا مُنعَ الخطف؟ . إنه حاجة إنسانية .

«هذه فلسفة سروالها» ، قالت ريحاني . التفتت إليها :

– أقصدك ، ياتاسو ، أن يخطف أحدٌ أحداً؟ .

– نعم . هذا قصدي ، ياريحاني . رجل يخطف امرأة . إمرأة تخطف رجلاً .

– ماذا لو خطفت امرأة ، في مثل عمرك ، أولادك الأربعة ، لتلهو بهم؟ .

– هنيئاً لها ، ياريحاني .

– ماذا لو خطفك رجل مترهِّل ، نتن ، مغطى بالشعر من أذنيه إلى عقبي قدميه؟ .

– هنيئاً له ، ياريحاني .

– ماذا لو خطفتْكِ امرأة في عمرك ، ياتاسو ، لتلهو؟ .

– ماذا ستفعل بي ، ياريحاني؟ .

«دعيك من محاورتها على هذا النحو ، ياريحاني . أنتِ تهيِّجينها» ، قالت شيراز . «تاسو مقياسٌ خطأٌ في العلوم كلها . يالتعاسة جسدِها المواطِنِ في جمهورية عقلها» .

ترنَّحت شيراز . صَدَمها عابرٌ بكتفه . أمسكت بها تاسو :

– أنتِ لا تنظرين إلى خطواتك .

توقفت شيراز بإحساسٍ مُباغتٍ من أنها تخطىء ، حقاً ، في تسديد خطواتها بين العابرين ، مساءً السبت ، على عجلٍ ، إلى بيوتهم ، أو لشراء حاجاتٍ من المتاجر في الساعة الأخيرة قبل الإغلاق ، رافعين مظلاتهم مثلها .

كان شارع ألْبِيْن سترومر ، الذي تقيم سلام في إحدى عماراته ، مزدحماً ذلك المساء ، في مسافة المَخْرج من محطة القطار وحتى مطعم البيتزا ، الذي يجاوره محل تأجير أفلام الفيديو .

تنشّقت تاسو رائحةَ الحقائق الجليلة في الأرغفة المطلية برُبِّ البندورة ، والمُزوَّقة بمهارة الجُبنة والزيتون ، وفُطرِ عيشِ الغراب الذاهل عن مرتبته المتواضعة بين أصناف الفُطر . «فلنأخذ معنا بعض البيتزا إلى شقة سلام» ، قالت .

دفعتْها صديقتاها ، كلٌّ بيدٍ ، تحثانها على نسيان فكرتها غير الظريفة ، اللامُسْتساغة .

«سلام تهيِّىء لنا طعاماً مفاجأة» ، قالت ريحاني . «فلنتراهن بعشر كرونات لمن تحزر ما قد يكون» .

«ماذا سيكون غير كتف خروف محشوَّة؟ إنها بارعة في ذلك» ، قالت شيراز .

«أكبادُ دجاج بالطحينة والثوم والخل ؛ وقوانص دجاج باللبن ، والبصل ، والثوم ، والنعناع اليابس ؛ ورقائقُ عجين باللحم المفروم ، والصنوبر ، ورُبِّ الفلفل الأحمر الحرِّيف» ، قالت تاسو . أردفتْ : «أحب لهبَ عجينة الفلفل الأحمر الحرِّيف المغربية؟» .

«عليّ أن أحزر الآن» ، قالت ريحاني . «لقد حزرت ، وانتهى الأمر؟» .

«ربما أخبرتْك سلام بمفاجأتها» ، قالت تاسو .

«هيِّي ، احزري . حرقتِ كَبدَيْنا» ، قالت تاسو .

«هيَّأت لنا سلام مفاجأة» . قهقهتْ . «حزرتُ . ادفعا لي عشرين كروناً» ، قالت ريحاني .

«أين كيسُك ، الذي كان معك ، ياريحاني؟» ، ساءلتها تاسو ، فانتفضت ريحاني ملسوعةً : «ياالله . نسيت أوعية النبيذ في المطعم» ، قالت بارتباك . أطبقت مظلَّتَها . «أكملا طريقكما . سألتحق بكما» . استدارت عائدة إلى المطعم على عَجلٍ كخفْق قلبها .

أطبقت تاسو ، أيضاً ، مظلتها ، وسط استغراب شيراز . «لِمَ أنا خائفة على هذا الشعر ، الذي ليس شَعراً؟» ، قالت . «شعرٌ خفيف أحتفظ به ، كما هو ، منذ كنت في الثانية من عمري . تستطيعين أن تَرَي جلدَ فروتي . شَعري لم يَنمُ . ناعمٌ كوبر على عصعص دجاجة . أمي فعلت بي هذا . شعري شعرُ أمي» .

«سمعتك ، مرة ، ترددين أن شعرك مثل شعر أبيك» ، قالت شيراز .

«أأنا قلت ذلك؟» ، ساءلتها تاسو .

جاءت تاسو إلى السويد في الثانية والعشرين ، بدعوة من ابنة خالتها ، تصحبُ طفلين هما : بدران ، البالغ الثالثة آنذاك ، وكمال الذي يصغره بسنة . زوجها حَليمو غاب في نوبة صَرَع لم يُفق منها . وهي ، الأمُّ الغاضبة أبداً ، لم تفقْ من لوعتها إلاَّ في السويد .

كانت الأمورُ سهلة ، في مطالع الثمانين من القرن الماضي . كان تعبُ العبور بين وثائق إثبات الشخصية ، وإنجاز طلبات الهجرة سهلاً . كان السهلُ سهلاً . كانت تاسو تستطيع أن تنعمَ ، في هدوء لن يعكِّره شعرُها الخفيف ، بزواجيْنِ ، وطلاقين ، تركا في حديقة أمومتها طفلين آخرين هما رَنْد ، وأخوه هُسْ .

ابنها بدران في الخامسة والعشرين ، الآن ؛ موظف في استعلامات فندق فايكنغ ، في ستوكهولم . إبنها كمال في الرابعة والعشرين ، الآن ، عامل في قسم الزهور والنباتات بأحد فروع متاجر بَاوْهاوس . لكلٍّ من بدران ، وكمال ، سَكَنهُ مستقلاً مع صديقته . أما ابنها رند ، البالغ الرابعة عشرة ، الآن ، وهس الذي في الثامنة ، فهما يقيمان مع أمهما .

ظلت الحياة ، بقسيمَتها المضبوطة كاستمارة الضرائب السنوية ، مُحْتَمَلةً بلا رجل في فراش تاسو ، فيما ازدحم فراش خيالها بأساطيل من

الخُصى ، كلَّما سقطت إحداها في الماء غريقةً وُلِدَ من رذاذ سقوطها جِيْلٌ من خُصىً ـ قراصنة ، وجيل من خُصىً ـ سفَّاحين ، وجيل من خُصىً ـ حكماء ، وجيل من خُصىً ـ مُشرِّعيْنَ ، وجيل من خُصى ـ مهرِّجين ، وجيل من خُصىً ـ لواحمَ ، وجيل من خُصىً ـ نباتيِّيْن ، وجيل من خُصىً ـ كَتَبة لهم مهارةُ المفقود ، وجيل من خُصىً ـ صيادين في الرمل ، وجيل من خُصىً ـ عقول تَلُتُّ الكونَ ، كشريحة من صدر البط ، في طحين المآزق ، وجيل من خُصىً ـ زيوت تُقلى بها المآزق محمَّصةً كالبطاطا الفرنسية ، وخُصىً ـ وثائقَ يحملها المهرِّبون إلى الحاميات المتناثرة بجنودها على طريق الحرير .

لايهمُّ . الحياة محتَمَلة في قلب تاسو بنعيمها المهجور ، مادام التبغُ حيًّا في العُلب الورقية لن يقهره قِانونٌ ، أو رادع . تبغٌ وعْدٌ بما لو عرفه الأنبياء القدامى لأضافوه إلى الوصايا كمعجزة .

أشعلت تاسو لفافةَ تبغ تحت المطر الخفيف . «لماذا لا تدخنين ، ياشيراز؟» ، قالت .

بدت شيراز شاردة حين التفتت إليها تاسو مترقِّبةً جواباً . كرَّرتْ : «سألتُك لماذا لا تدخنين؟» .

تجاهلت شيراز سؤالها . قالت : «هل اتَّصلتِ بنازلي ، هذه الأيام ، ياتاسو؟» .

«صديقة ابنها الحبلى مقيمة عندها» ، ردت تاسو . تساءلت :

– ألا تتصلين بها؟ .

ردت شيراز باتجاهٍ آخر :

– أليس للفتاة أهلٌ ، ياتاسو؟ .

– ليست ابنتي كي أعرف ، ياشيراز .

أطبقت شيراز مظلّتها في هدوء، تحت المطر الخفيف، الذي لم يتوقف.

«ماذا تفعلين، ياجميلةَ الشَّعر؟»، ساءلتها تاسو، فردت شيراز:

- بي رغبة أن أكون وحدي هذه الليلة.

«جيدٌ أن يكون الإنسان وحده في هذا الشارع، هذه الليلة»، قالت تاسو. «جيدٌ أن يمتحنني اللهُ بخلوة، في أي شارع من السويد، هذه الليلةَ، مع المحقِّق في دائرة الهجرة أُوْلاف غُوسْتَافْسنْ. لي موعد معه للترجمة يوم الاثنين القادم. يُؤكل ـ ابنُ القحبة ـ من شعره الأشقر الطويل حتى حزام بنطاله. تؤكل نظارته. تُؤكل أظافره غير الطويلة، غير القصيرة، المقصوصة بعناية».

«نعم. نعم»، قالت شيراز. اعتُصِر قلبُها. أكل نصفُ قلبها النصفَ الآخر وهي تستعرض، ببصر الخسارة، جسدَ نوح، كآخر انتصار للوجود.

عادت ريحاني مبتهجة بكيسها كاملاً غير منقوص. ابتهج نبيذُها في الأوعية البلاستك. فوجئت إذْ رأت شيراز منكشفةً للمطر لا تتّقيه بالمظلة. مدَّت مظلتها في اتجاه صديقتها:

- أحدث شيء لمظلتك؟. خذي هذه.

«بل أنتِ خذي مظلتي»، قالت شيراز. وضعت المظلّةَ الصغيرة الحجم في كيس ريحاني. توقفت عن المشي. استدارت نصف استدارة:

- قلبي غير مهيَّأ، هذه الليلة، للسهر مع أحد. بي رغبة أن أظلَّ وحدي.

لم تنتظر تعليقاً من صديقتيها. رجعت، عبر المسار الثابت، إلى محطة القطار.

تاسو، وريحاني، تبلْبَلتا. نقلت، كل واحدة، بصرَها، عدة مرات،

بين شيراز المبتعدة وبين وجه صاحبتها . فتحت تاسو فمها مُسْقِطةً لفافةَ التبغ ، المبتلة ، من بين شفتيها . غمغمت : «لم أفهم» .

تمالكت ريحاني نفْسَها بسرعة أكبر من تاسو : «لم أفهم ، أنا أيضاً . لكنْ ، فلْنمضِ» ، قالت . كان ثُلثا قلبها منشغليْنِ ، بَعْدُ ، بالكمال الذي تسحلُه خلفها منذ أنجز جسدُها ، برعاية الجسد الفتيِّ لتوفو ، حسابَ الأبدية بالقُبَل . عيناه الخجولتان ، الماكرتان في الآن ذاته ، لم تبارحا مخيِّلةَ عينيها . هما فوق وجهها تماماً ، محدِّقتين ، شهقة بعد شهقة ، إلى كلِّ مافاتَها ؛ إليها وقد استعادتْ جمالاً تائهاً يُرْبِكُ الوجودَ .

«أأنا جميلة ، ياتاسو ، هذا المساء؟» ، قالت ريحاني .

تأمَّلتها تاسو بحاجبين مقطَّبين فوق ابتسامة مقضومة :

- مدينتنا قامشلو لا تنجب إلاَّ جميلات مثلي ، ومثلك ، ياريحاني .

«احملي عني هذا الكيس قليلاً . كتفي تؤلمني» ، قالت ريحاني .

عادت إلى سؤالها وهي تضع الكيس في يد تاسو :

- جمالك فوق أية شُبهة ، ياتاسو . لكنْ ماذا عني؟ أأنا جميلة هذا المساء؟ .

رازتْ تاسو الكيسَ برفْعِه وخَفْضِه : «إنه ثقيل» ، قالت . أردفتْ : «حسناً . جمالُك . ماذا تريدين أن تسمعي مني عن جمالك؟».

«قولي : أنت جميلة ، ياريحاني» ، قالت ريحاني ، البدينة ، القوية القوام ، التي لن تغفر لنفسها ، قط ، إن لم تطوِّق كتفيها بشال أصفر .

اقتربتا من عمارة سُكْنى سلام . الثلاث عشرة دقيقةً مشياً ، من محطة القطار إلى عمارة سُكْنى سلام ، استحالت ساعة وثلاث دقائق ، ذلك المساء . كانت ريحاني متوجِّسة من أن يرنَّ هاتفها مُجتاحاً بصوت سلام : «أين أنتنَّ؟» . كانت تاسو متوجِّسة أيضاً . ستكون أمسية الأُنس ،

في سِجلٍّ السبت العاشر من الخريف ، بلا براثن قوية : أربع نساء ـ براثنُ لاتكفي لتمزيق الليل كما اعتَدْنَ أن يُمزِّقن الليلَ ، وينهشْنَهُ .

«ستحسُّ سلام بالخذلان حين ترانا من غير شيراز» ، قالت ريحاني ذلك وهما على بُعد شبرين من باب العمارة ، المحفوظ مُغْلَقاً لايُفتح إلا بطلَّسم من تناظُرٍ متنافِرٍ في أرقام ينبغي استدراجُها ، لْمسَاً ، من اللوح المعدنيٍّ الحاوي أزراراً بيضاء . عشرةً أرقام . همَّت تاسو بإيقاظ السَّاحرِ في المربَّعاتِ الأزرارِ بإصبعها لْمساً ، لكنَّ الباب فُتِحَ ، بغتةً ، من قبل أن تصل إصبعها إلى أيٍّ رقم . خرجت زنتانا من الباب . «بسم الله» ، تمتمت ريحاني . «أأنت جنِّية؟ لم نَرَكِ قادمةً بالرغم من هذا الضوء في مدخل العمارة» .

«جنِّية . شيطانة . سعلاة . لم أعد أحتمل هذه المرأة» ، قالت زنتانا بصوت لاهث .

وجدت تاسو ، وريحاني ، نفْسَيهما خرساوين أمام ذلك الهبوب الصاعق لصديقتهن هاربةً من أشباح . أوقفتاها ممسكتين بجانبَيْ معطفها .

«هذا مساء كرَكْلة بغل ، يازنتانا» ، قالت تاسو . «مَن التي لم تعودي تحتملينها؟» .

«مَنْ تسكن هذه العمارة ، ياتاسو؟ . صاحبةُ هاتف الاثني عشر ألف كرون» ، ردت زنتانا .

«بحق الله عليك ، يازنتانا ، أوضِحي . لم أفهم . لم نعد نفهم شيئاً هذا المساء ـ البغل» ، قالت تاسو .

«أووه» ، تمتمت زنتانا ، موزِّعةً بصرَها على كل شيء من حولها ، بحثاً عن بداية : «من أين أبدأ؟ . تَرَاكَمَ لي دَيْنٌ في ذمة سلام بلغَ أحد عشر ألف كرون . تعيد لي ألفاً وتستدين ألفين . كل شهر تفعل بي هذا . منذ

سنة وهي تَعِدُني بإيفاء الدَّين . هل كلَّمتُ أحداً من صاحباتنا بهذا الأمر؟ . لا . كنتُ صامتة طوال الوقت . لم أعد أحتمل . كذبُ سلام لم يعد يُحتَمَل . أنا في حاجة إلى هذه النقود» . زاد احتدام المرأة الصغيرة العينين : «أنا في حاجة إلى هذه النقود . أنا لست في حاجة إلى هذه النقود . سأتصرَّف بها كما أشاء . سأبذِّرها . سأغير سيارتي . سأشتري جزيرة غارقة في السويد . ماشأنها بما سأفعله بنقودي؟ . تسألُني : ماذا ستفعلين بها؟ . لستِ على عجلة ـ تقول لي . أنا على عجلة» ، صرخت ملء فمها الواسع . دارت حول قامتها القصيرة : «أنا على عجلة . أريد نقودي» . رفعت صوتها في اتجاه إحدى النوافذ .

«سلام لا تسكن في هذه الشقة ، التي تنظرين إلى نافذتها» ، قالت تاسو .

«أعرف» ، ردت زنتانا . «نقودي في هذه العمارة . أريد نقودي» .

«عزيزتي زنتانا» ، قالت ريحاني تحاول تهدئتَها . «عزيزتي . أختي . ضُرَّتي . .» . قاطعتْها زنتانا : «قولي لها : أريد نقودي» . هرولت مبتعدةً وهي تلوِّح بيدها ، من خلف ظهرها ، على نحوٍ لا تُفْهَم إشارتُه .

نظرت تاسو ، وريحاني ، إحداهما إلى الأخرى ، في يأسٍ . ظلَّتا واقفتين أمام باب العمارة . أشعلتا لِفافَتَيْ تبغ ، ثم فتحتا مظلَّتيهما تِباعاً .

دندنت تاسو ، بغتةً ، أغنيةً لم تستقِم لها الإيقاعات :

«الديكُ غاضبٌ .

الدجاجاتُ غاضبةٌ .

لن يستيقظ أحدٌ ، هذا الصباحَ ،

فلا تحملي سلَّتكِ إلى البستان .

الديكُ غاضب .

الدجاجاتُ غاضبة .

البستانُ غاضب .

سلَّتُك غاضبةٌ ، أيضاً .

لكنْ لا تغضبي أنتِ :

هذا الصباحُ ليس غاضباً كصباحِ البارحة» .

الحافَّةُ وأَخواتُها:
تلك الارتباكاتُ الرائعة

- أأنتِ سُحاقية؟ .

«مـاذا تعنين ، يانازلي؟ . أتعنين هذا الصنف من النسـاء ، اللواتي يلعقن فروج النساء؟» ، قالت تاسو من غير أن يتَّضح لها الجِدُّ في سؤال نازلي من المزاح . توقفت عن المشي معتصِرةً تحت إبطها الأيمن رقعةَ قماش سميك مطوية .

دفعتها نازلي بيدها : «لا تتوقفي» .

«ماذا تعنين؟» ، سألت تاسو صديقتها نازلي ، ثانيةً .

«راوت أخبرتني شيئاً عن لسان ابنها مَدَد . قال لأمه إنك قبَّلتِ صديقتَه من فمها» ، تمتمت نازلي مقتربة برأسها من رأس تاسو .

«أنا؟» ، تساءلت تاسو باستغراب . «صديقة مدد؟» .

«له صديقة بولندية تسكن العمارة ، التي تسكنينها» ، قالت نازلي .

«ياالله» ، صرخت تاسو بمزيج من الاستنكار والمرح . «نعم . نعم . نعم .» ، كررت الكلمة . «رأيت ابن نازلي يخرج من عمارتنا ، مرتين ، أو أكثر . لم أفطن إلى مشاغل قلبه . عرفت ، الآن . نعم . نعم . نعم . قبَّلتُ الفتاة البولندية من فمها» .

اختزالاً للمسافة نزلت تاسو ، ونازلي ، أدراجاً خلفية تنحدر من شارع كاترينا باركن إلى مُنتزه شجر الصنوبر ، في طريقهما إلى ساحة رِنكبي ،

ظهيرةَ الخميس من الأسبوع الحادي عشر للخريف .

كانت الشمس جريحةً تنزف ظلالاً مضيئةً من جرحها ، قطرةً قطرةً ، في الصميم الصلب لحجر السويد البازلت ظاهراً ، وحشيًا ، تحت الشجر . أربعة غربان بلقاء تناتشت كيساً ورقاً فيه بقايا بطاطا مقلية . لم تأبه ، في شجارها ، لعبور تاسو ونازلي . اختطف أحدها الكيس طائراً به فوق رأسيهما . أحسَّتا اندفاعةَ الهواء خفيفاً ، متزحلقاً على شعرهما . لحقت الغربان الثلاثة الأخرى بالغراب النَّشَّال .

«ماذا كان في استطاعتي أن أفعل ، يانازلي؟ . حصل ذلك قبل عشرة أسابيع ، ربما . كنتِ في بيتي ، ذلك المساء ، الذي قبَّلتُ فيه الفتاة البولندية . نعم . كنتِ موجودة مع الأخريات . لم تنتبهن ، في الأرجح ، إلى رنين جرس الباب . ادَّعت الفتاة أن صخبَنا لا يُحتَمل . اعتذرتُ . بقيتْ واقفة لا تبارح الباب . اعتذرتُ . اعتذرتُ . ياالله . كانت كذبابة علقت في الدِّبْق . ماذا تتوقعين مني أن أفعل في موقف كهذا ، يانازلي؟» ، سألتها تاسو .

«لا أعرف» ، ردت نازلي .

«قبَّلتُها» ، قالت تاسو .

«لم أكن لأُقبِّل فتاة لا تريد الانصراف» ، قالت نازلي .

«ماالحلُّ ، إذاً؟» ، تساءلت تاسو .

«لا أعرف» ، ردت نازلي .

«لا تعرفين كيف ينبغي أن تتصرَّفي في موقف كذاك ، ولا تريدينني أن أتصرف كما تصرَّفتُ» ، قالت تاسو متحيِّرةً .

«لم تكن لِتَسْكتَ البولنديةُ . لم تكن لِتغادر . فكرتُ أن أصرخ بها . فكرتُ أن أصفعها . فكرتُ أن أركلها . قلت لنفسي : هذا سيزيد الأمورَ

سوءاً . فلأُرْبِكها . نعم ، يانازلي ، وقد أربكتُها . قبَّلتُها من فمها . لم تقاوم . تجمدتْ فسكتتْ ، ثم غادرتْ كهرَّة» . ضربت بيدها اليسرى على حقيبتها المتدلية من كتفها : «أهذا ماقاله مَدَد ، ابن القحبة راوت ، لأمه؟ . سُحاقيَّة؟ . إمرأة تُمصمص بظرَ امرأة؟ . والله لو أن لي زُبّاً لم أنكح غير الرجال . حسناً يا ابن نازلي . إذا وقعتَ بين يدي سأفرغكَ ، في يوم واحد ، من مَنيٍّ ستين سنة» .

«لا تشتمي راوت ، ياتاسو . سنشتاق إليها» ، قالت نازلي .

قَدِمتْ راوت إلى السويد وهي في الرابعة والعشرين ، مع زوجها جناب خَلُّو ، وابنتِها عاليا ، البالغة الرابعةَ من عمرها ، آنذاك ، وابنها مَدَد البالغ الثانية . أنْجبتْ في السويد ابنتها ريبانة ، وأختها روهلات ، إثرَ فترةٍ من صمت بين جسدَيٍّ الزوجين . بعد اثنتي عشرة سنة من وجودهم في السويد ، بشَّر الزوجُ زوجتَه ، وبشَّرت الزوجُ زوجَها ، بطلاق بارد . تزوَّجا ، ثانيةً ، بعد ذلك الطلاق بثلاث سنين ، زواجاً دام أحد عشر شهراً .

قدِمتْ راوت إلى السويد من رُكن الدِّين - إحدى ضواحي دمشق المُطلَّة من جبل قاسيون الأجرد على غَرَقِ الأفق . كانت تتحسَّر ، في السويد ، على مشهدِ كذاكَ المشهدِ الغَرِق ، من الأعالي ، في أفق غريق أسفلَ كل جبل . الشجر ، في السويد ، أفق الغرق في ما لا يليه إلاَّ الشجر . على جانبَيْ كل شارع شجرٌ . على جانبَيْ كل شجرِ شجرٌ . خلف كل عمارة ، أو على جانبيها ، شجرٌ . أسفلَ العمارات شجرٌ ، وشجرٌ في أعالي العمارات : شجرُ البندقِ المُخْبِر ؛ الكستنةِ الفضيحة ؛ الصنوبرِ الحِبْرِ ؛ التَّنُّوب المُجدِّف ؛ البتولا الواشي ؛ الحَوَرِ الرَّجراجِ المنتقم ؛ القَيْقب المؤدِّب ؛ السرخس المتحيِّر ؛ الكرز المُعْتَقَلِ ؛ التفاح المؤرَّق . شجرٌ ليس إلاَّ شجراً . شجرٌ متنكِّرٌ في هيئة شجر . أفقٌ شجرٌ وراء أفقٍ شجرٍ . لا تستطيع راوت ،

منذ تركت نظرتَها خلفها على سفح جبل قاسيون الأجرد ، أن تستدلَّ ، أبداً ، على أفق غير الشجر : «أريد أن أرى عراءً ؛ أن أدحرج روحي على فراغ أجرد» . هكذا تصوغُ الفكرةَ إنْ كلَّمتْ نفسَها ، أو كلَّمتْ روحَ المفقود . بل تُكلِّم صديقاتها عن الغرق في مالا أمامَ من شجرٍ له ، ولا وراءَ من شجرٍ له . «أيتها السويد الشجرُ ؛ البطالةُ الشجرُ ؛ القيلولةُ الشجرُ ؛ العافيةُ الشجرُ ؛ البَطَرُ الشجرُ ؛ الشيخوخةُ الشجر ؛ الحقدُ الشجرُ ؛ الانتقام الشجرُ ؛ البذْخُ الشجرُ ؛ العبثُ الشجرُ ؛ العَدَمُ الشجرُ ؛ الدِّيونُ الشجرُ ؛ القروضُ الشجرُ ؛ البروجُ الشجرُ ؛ الفَألُ الشجرُ ؛ الخططُ الشجر ؛ القهقهات الشجر ؛ اللعبُ الشجرُ بالكلمات ؛ الخيانةُ الشجر ؛ المجدُ الشجر ؛ العدالةُ الشجرُ ؛ الترجمةُ الشجرُ ؛ المهمَّةُ الشجر ؛ الميزانُ الشجرُ ؛ الأرقُ الشجرُ ؛ الخيبةُ الشجر ؛ الهجرةُ الشجرُ ؛ الإقامةُ الشجر ؛ الأبديةُ الشجر» .

لم تتصل راوت بأيٍّ من صديقاتها مُذْ غادرتْ إلى الشمال النازح ، أبداً ، إلى شمالٍ آخر يليه ، سيراً على قدميٍّ العراء الأعظم في قلبها .

«علينا أن نبحث عن راوت قريباً» ، قالت نازلي ، فردَّت تاسو بلسانٍ عَجول :

– كم من صديقاتنا سيحضرن هذه المظاهرة ، في اعتقادك ، يانازلي؟ . اتَّصلتُ بمراسلين في التلفاز .

«بمراسلي التلفاز؟» ، تساءلت نازلي .

«نعم» ، ردت تاسو في رضىً . «ستكون مفاجأةً لم تعهدها السويد من قبل : امرأة تطالب بتغيير اسم شارع بيتها» .

تمهَّلت نازلي في مشيها عبر العشب المنكمش ، محتفظاً بخضرته ضد الخريف ، في الممرات بين شجر الصنوبر ، فاستعجلتْها تاسو :

– منذ أسابيع أهيِّىءُ لهذا الحدث ، يانازلي . لم أعد أُحصي رسائل

التضامن معي لتغيير اسم الشارع ، في بريدي الألكتروني .

تمهَّلت تاسو نفْسُها :

- لم تخبريني ما تتوقعينه . مَن الصديقات اللواتي سيحضرن ، في اعتقادك . ومَنْ لن يحضرن؟ .

«أتدفعينني إلى تحريضك على بعضهن؟ . لا أعرف من ستحضر ومن لن تحضر . عليك أن تتوقَّعي ما لا أعرف كيف أصِفُهُ» ، قالت نازلي .

«أتوقع ماذا؟ . ماالذي لا تقدرين على وصفه لي؟» ، تساءلت تاسو ، فردت نازلي :

- لقد اتصلتِ بهن واحدة واحدة . أليس كذلك؟ .

- نعم .

- ماكان ردُّهن ، ياتاسو؟ .

أكثرَ ثقلاً غدتْ خطواتُ تاسو في صعود خيالها أدراجَ المحاورات بينها وبين صديقاتها عن موعد المظاهرة المأمولة في ساحة منطقة رِنكبي . ردُّ درخو كان مُرْبِكاً ، إذِ استعادتْه في برهتها تلك :

«كنتُ أظنك تمزحين ، ياتاسو» ، قالت درخو .

«لم تُظْهري لي انطباعك هذا ، يادرخو ، كلَّ تلك الأمسيات ، التي حدَّثتكن فيها عن خطَّتي . أنتِ تذبحينني بشفرة صدئة» ، قالت تاسو بصوت مبعوج في هاتفها المحمول .

«رويدك . مهلاً . لن يذبح أحدٌ بقرتَنا الإلهيةَ تاسو» ، ردت درخو؟ .

«إذا ظلت ساحةُ رنكبي في موضعها ، حتى موعد مظاهرتك ، سأكون هناك ومعي تسع شخصيات في داخلي اقتنيتُها ، مرحلةً مرحلةً من عمري كاقتناء الطوابع النادرة» ، قالت وهي تقفل الهاتف ضاحكةً .

تحسَّستْ تاسو ، بيدها اليسرى ، قطعة القماش المطوية تحت إبطها

الأيمن ، مُحَذِّرةً الحروفَ المدوَّنةَ عليها بخط أزرق عريض ، بالسويدية ، من أن تخذلها . سألتْ صديقتَها :

– لماذا قبلت الحضورَ معي إلى ساحة رنكبي ، يانازلي؟ .

«مَنْ تتخلّى عن حمقاء مثلك ، ياتاسو ، تَكُنْ حمقاء . أنا لستُ كذلك» ، ردت نازلي .

أبقت تاسو بصرَها على وجه نازلي الأسمر ، الشاحب قليلاً ، تنتشل من ركودِ لونها معانيَ شاحبةً . تساءلت :

– أأنت مقتنعة ، أم لا؟ .

قضمت نازلي مانَجَا من بقايا أظفر بأسنانها :

– أيهمك أن أكون مقتنعة ، أمْ أن أَحضر المظاهرة معك؟ .

ربتت تاسو على كتف نازلي في رفقٍ : «احْضري معي» ، قالت . صمتت لحظة . نطقتْ : «ماذا تظنين أن شتولا عَنَت بقولها : ستكونين الأُولى ، التي تُغيِّر أوروبا كلَّها بعريضةٍ قماشٍ؟ . أيعني ذلك أنها ستحضر ، أمْ لا؟» .

«ستكونين الأولى ، التي تُضحك أوروبا حتى تنفجر . ذلك صحيح . أمَّا أن تحضر شتولا ، أو لا تحضر ، فهذا يعود إلى مافهمتِه منها ، ياتاسو . ماذا قالت ، تحديداً؟» . سألتها نازلي ، فردت تاسو :

– تظن شتولا أن تغيير اسم شارع بيتي أمرٌ كتدخين لِفافة تبغ . ثم كررت عليَّ كلمة أوروبا ألف مرة : ستكون أوروبا ابنتك ، بأبٍ أو من غير أبٍ ـ قالت . أوروبا ستكونُ مُقَلِّمةَ أظافر قدميك ، ومُصفِّفةَ شعرك ، وحلاَّقة عانتك . أوروبا ستكون طاهية برغل لكِ ولضيوفك ، ولمن تشائين من أهلِ السويد ، أيضاً . أوروبا ستكون هبتَكِ الخيرية لإنقاذ أطفال إمبراطوريات الجوع ، ياتاسو . أنت تُحفة كونية . هذا ما قالته شتولا لي .

«عصفورة السويد تتكلم كما تتكلم درخو بلسانٍ مُحَيِّر» ، قالت نازلي .
«لكن ، هل أخبرتْكِ ، صراحةً ، أنها ستحضر؟» .
«لا أتذكر ، يانازلي . لكنني فهمت من كلامها أنها ستحضر» ، قالت تاسو .
«ستحضر ، أم فهمتِ أنها ستحضر؟» ، ساءلتها نازلي .
«ما الفرق؟» ، ردت تاسو متحيِّرة .
ارتأت زنتانا ، حين هاتفتها تاسو مذكِّرةً بموعد المظاهرة القريب ، أن تُحضِر ابنتها سيرين : «ستحتاجين ، وسط الجمهور المحتشد ، إلى ابنتي . ستحتاجين إلى طولها . سترتفع عريضتك ١٧٢ سم . ستلمس السماء» ، قالت .
«فلْتحضرْ سيرين ، إذاً» ، قالت تاسو جادَّةً .
«وحدها ، أمْ مع صاحباتها؟» ، سألتها زنتانا .
- ماذا ترتأينَ يازنتانا؟ .
- أن تحضر هي وصديقاتها ، ياتاسو . هياج المراهقات سيعزِّز انتصارك في الإعلام . سيكون انتصارك على اسم كاترينا باركن أكيداً .
«سأحضر نبيذاً معي» ، قالت ريحاني . «فلْيشربِ الجميعُ من نبيذي في ساحة رنكبي . نبيذٌ قوي يجعل المظاهرة قوية ، ياتاسو» . هكذا ردت ريحاني على مكالمة صديقتها ، إذْ سألَتْها التضامنَ معها بالحضور إلى الساحة . «الديك صديق مَّا يملك شاحنة صغيرة ، ياتاسو؟ . لديَّ ستون ليتراً من النبيذ . لديَّ ستة آلاف هتاف ضد اسم كاترينا باركن» ، قالت ريحاني ، ثم صرخت : «فلْيَحيَ شارعُ الملاً علي خابوت : فلْيَحيَ الشارع الكردي الأول في أوروبا» .
«ستحضر ريحاني» ، قالت تاسو لنازلي ، بصوت لم تستطع تحديد

علامة يقينه . «ستحضر ، أليس كذلك؟» .

«ماذا قالت ريحاني ، تحديداً؟» ، سألتها نازلي ، فردت تاسو بصبرٍ نافد :

- قالت لي ماقلته لك : النبيذ . الشاحنة . الهتافات .

«أنا واثقة من حضور نبيذها» ، ردت نازلي .

«ماذا عنها ، هيَ؟» ، ساءلتها تاسو .

«سنسأل نبيذَها عن ذلك» ، ردت نازلي .

سلام اعتذرت صراحة : «لن أحضر . لديَّ لقاءان للترجمة ، يوم الخميس» ، قالت . كاد الهاتف في يد تاسو أن ينبح : «لقد أخبرتك ، ياسلام ، عن موعد المظاهرة قبل أحد عشر يوماً» ، فردت سلام مغلوبةً على أمر دَخْلها :

- يستطيع لقاءان للترجمة بين المحقِّقين وطالبي اللجوء ، في يوم واحد ، ياتاسو ، أن يعيدا إلى فراشي رائحةَ رجل . تفهَّمي حالي .

لن تتفهَّم خيبةُ تاسو حالَ سلام : «هذه الخائنة» ، قالت لنازلي . «سلام ولدت من فَرْجٍ خائن» .

«أنتِ لاترحمينً . ماذاً لو لم أحضر معك ، هذا اليوم؟ . قولي لي ، بحقِّ ضميرك عليك ، بمَ كنت ستنعتينني ، ياتاسو؟» ، ساءلتها نازلي ، الأطول قامة بين صديقاتها .

تفكَّرت تاسو قليلاً ، أو ادَّعت أنها تفكر :

- كنت سأسمِّيك مُدَخِّنةَ الخُصى ، في الأرجح» . نظرت إلى نازلي : «ألا ترَيْنَها تسميةً معقولة؟» .

«معقولة جداً» ، ردت نازلي . أضافت :

- مُدَخِّنةُ سلالاتٍ من الخُصى المتفائلة ، والمتشائمة ؛ والخُصى

المتعلِّمة ؛ والأُمية ؛ والخصى الثنائية الدَّفع ، والرُّباعية الدفع ؛ والخصى الفصيحة ، والركيكة ؛ والخصى الطالبةِ اللجوءَ ، والمحقِّقةِ في دعاوى اللجوء ؛ والخصى النهارية ، والليلية ؛ والخصى النهرية ، والبحرية ؛ والخصى البرَّانية ؛ والخُصى الجوَّانية ؛ والخصى . .

قاطعتْها تاسو :

– لم أعد أعرف كيف أمشي على رصيف لسانك ، ياناژلي . دوَّخْتِني . سأصدم أولَ عمودٍ في طريقي بدرَّاجة فَرْجي المُحمَّلةِ أكياساً فارغة .

«أكياس فارغة؟!!» ، تساءلت نازلي .

«نعم» ، ردت تاسو : «لا يحمل الإنسان ، منذ ولادته ، إلاَّ أكياساً فارغة يملأُها بالموت من حوانيت البقَّالينَ» .

«بضاعة جيدة ، إذاً» ، قالت نازلي . وضعت يدها على ردف تاسو ، من فوق سترتها الصوف البنيَّة الطويلة : «هذا يومك ، حقاً : مظاهرة ، وحكمة أيضاً» .

لم تعلِّق تاسو على كلمات نازلي . استرسلت في استعراض تخمينها عن مواقف صديقاتها المُمكنة ، والمُحْتَمَلة : «زليخا قادمة . أنا متأكدة من ذلك . قد تكون وصلتْ قبلنا» ، قالت تاسو ، الملتمعةُ الشعر ، في مواضع الخُصل الشقراء ، بزيت الشمس الأنيسة والصِّبْغ العاصف : «أشمُّ عطرَها» .

«لماذا تستعمل زليخا عطراً قويًا إلى هذا الحدِّ ، ياتاسو؟» ، تساءلت نازلي .

«تحب بولَ الغزال السِّرْلانكي» ، ردت تاسو .

– بول الغزال؟!!! .

– بول الغزال ، الذي لايطعمونه إلاَّ الكمأَ ، ويضيفون إلى البول زيتَ

بزورِ الجَزَر .

- ألبِزورِ الجزر زيتٌ؟ . أنتِ كيميائية ، ياتاسو .

- هكذا تُصنع العطور ، ياناز لي . غداً سيستخدمون رائحةَ الأحذية .

- ماذا عن شيراز؟ . هل وافقت على الحضور ، ياتاسو؟ .

- شيراز غريبة المزاج هذه الأيام ، ياناز لي . تسمعُ كأنها لا تسمع . تتحدث بلا تركيز . أتظنين أن للأمر علاقة باقترابها من الأربعين؟ .

- جاوزتُ الأربعين قبل سنة . لم أحسَّ فَرْقاً . منذ التاسعة والثلاثين عرفت أنني فقدت عذريتي إلى الأبد ، ياتاسو .

- حقاً؟ .

- ماذا حقًا ، ياتاسو؟ .

صحَّحت تاسو وضْعَ قطعة القماش المطوية تحت إبطها . أشعلت لفافة تبغ : «بلوغ الأربعين ، عند المرأة ، يعني بلوغ سَنَة الخرائط» ، قالت .

«تلزم شيراز خريطة للوصول إلى ساحة رنكبي ، إذاً» ، قالت نازلي .

«أنتِ على صواب . تلزمها خريطة للطُّرق على أشكال أيور» ، ردت تاسو .

«ستضيع شيراز ، كليًا ، ياتاسو ، بخريطة كالتي تَصفينَها» ، قالت نازلي . «ستضيع نصف البشرية إذا اعتمدتْ خريطةً كهذه» .

انحرفت تاسو ، قليلاً ، عن الممر بين شجر الصنوبر ، صوب عمود إضاءة . تقرَّتْ ورقةً ممزَّقة ، ملصقة عليه :

- لم أترك عموداً ، من مَخْرج حديقة الصنوبر ، هذه ، حتى المدخل إلى مبنى البريد ، إلاَّ ألصقتُ عليه إعلاناً عن «مفاجأة رنكبي» . منذ ستة أيام وأنا أُلصق عليها إعلاناتي .

«مفاجأة رنكبي؟ ماذا تعنين بذلك؟» ، ساءلتها نازلي .

«أتظنين أنني قد أرتكب حماقةً بالدعوة الواضحة ، الصريحة ، إلى مظاهرة لتغيير اسم شارع كاترينا باركن ، يانازلي؟ . فكرتُ مليًا قبل أن أكتب في الإعلان عن «مفاجأة رنكبي» بلا أي تفسير ، مع تحديد اليوم ، والساعة ، لموعد المفاجأة في الساحة . هكذا أجعل الأمرَ مثيراً للفضول . لكنني كنت أجد ـ كما ترين الورقةَ هنا ـ من ينزع إعلاناتي عن أعمدة الإضاءة ، أو يرشُّها بدهان أسود . أتعتقدين أن هناك من يتتبَّعني؟» ، تساءلت تاسو .

«أإعلاناتك المستنسخة على ناسخة الكومبيوتر أهم من الإعلانات على لوحات مواقف الباص ، والقطار؟ . كلها مرشوشة بالدهان ، ياتاسو» ، قالت نازلي . «حتى لو تتبَّعك أحد ، فما الذي سيفهمه من «مفاجأة رنكبي» غير الواضحة ، هذه؟» .

كان مُقْنعاً منطق نازلي . أكملت تاسو مشيتَها وهي لا تزال ملتفتة بوجهها إلى إعلانها المُمزَّق على عمود الإضاءة . إنها ورقاتُ إعلانٍ معروفةُ المصير . لكنَّ مصير ورقات إعلاناتها الأخرى ، التي حَشرتْها ، مدى أيامٍ ، بين رُزَم صحيفتيِّ الإعلانات المجَّانيتين Metro ، وCity ، لم يكن واضحاً . كانت تختفي مع نُسَخ الصحيفتين المعروضتين في صندوقين معدنيين ، أمام المارَّة ، على مدخل محطة القطار . ذلك يُرضي تاسو : أنْ تختفي ورقات الإعلان ، فذلك يعني وجودَ من التقَطَها .

إنه إعلانٌ على الحافَّة ـ إعلانُ تاسو . «مفاجأة رنكبي» قد تعني استعراضاً ساراً ، أو اغتيالاً أيضاً . صديقة شتولا ، المقيمة معها في الشقة ، الشقراء البُنِّية العينين تَنْدرا بيتر ، كلَّمتهنَّ ، باستفاضة ، في أمسية السبت عندهما ، عن «إغراء الحافَّة» . لم تفهم تاسو شيئاً من حديثها . لم تفهم الأُخريات ، كلُّهن ، في الأرجح ، شيئاً من حديث تَنْدرا

عن «إغراء الحافَّة» . لكنَّ المعاني بانَتْ ، برغم حجابها ، سائرةً بين صور الأسماء : الجُبنةُ العفنة ـ جبنة الخوف من العفن ، طعامٌ على الحافة . البط ، والدجاجِ ، مُعلَّقيْنِ أياماً في الهواء ، حتى يبدأ دبيبُ العَطن فيهما فيُطهيان طعاماً خاصًا ، فريداً ، لايُسمِّم عطنُه : طعامٌ على الحافة .

الأكثر جاذبية من الأسماك ، في مطاعم أرخبيل اليابان ، سمك سامٌّ ، تُستأصل أحشاؤه بمهارة ، وحذْق ، ويُغسل بتأنٍّ . إن لم يكن استئصال الأحشاء ، والغسل ، تامَّيْنِ ، لبقيت فيه سُمِّيَّةٌ تقتل الآكل : سمكٌ طعامٌ على الحافة .

قناديلُ البحر الهلامُ ، السامَّةُ المجسَّات ، فخر المطاعم الخاصة في هونغ كونغ . يَفصِلون خيوطَه المجسَّاتِ عن مظلَّته ، على نحوٍ لو بقي قسْمٌ مَّا عالقاً بقسْم لقتل آكلَه : طعام على الحَافَّة .

المُفسِّرُ الكليُّ ، الذي ليس سوى ارتباكٍ رائع ، هو الحافة . إعلان تاسو على الحافة : «مفاجأة رنكبي» . تاسو على الحَافة :

– أتسمعين أصواتاً ، ياناِزلي؟ .

– أية أصوات؟ .

– من جهة ساحة رنكبي ، ياناِزلي .

«ربما هي أصوات الطناجر في العمارات ، ياتاسو . الناس تطهو ، منذ الظهيرة ، للعشاء . أسمع توابل الصوماليين ، والأتراك ، والكُرد ، والسريان ، والعرب» . تصنَّعت أنها تشمُّ الهواءَ : «لاتوابل سويدية» .

بلغت تاسو ، ونازلي ، الطريقَ المتفرِّعة في اتجاهين ، يؤدي كل منهما إلى أحد مدخلَيْ ساحة رنكبي من جهتيٍّ الشمال والغرب . تنفَّست تاسو بعمق . انقبضت عضلتا رِبْلتَيْ ساقيها توجُّساً مما لا تعرف . تاسو ، نفسُها ، مفاجأةُ نفْسِها . الأمتار القليلة ، الباقية على دخولهما الساحةَ ، من الممرِّ

بين المَتْجر الكبير ، والمطعم المقهى ، كانت لاذعةً ؛ حقلاً شوكاً تحت قدمي تاسو الحافيتين في خيالها الحافي .

انكشفت الساحةُ حقلاً إسمنتاً لدخولهما ، مرصوفاً بمكعَّباتٍ من أرَقِ المُمكن . دارت المرأتان بعيونهما تستجليان حضورَ صديقاتهما .

ما مِنْ صديقة كانت هناك . ما مِنْ متضامنين أغرقوا بروجَ الضوء ، في بريد تاسو الألكتروني ، كانوا هناك : حركة عادية على مدخل محطة القطار دخولاً وخروجاً . حركة عادية على باب المَتْجر دخولاً وخروجاً . بضعة أفريقيين ، من مِلَّة الصومال ، يجلسون على مقعد مستطيل ، ملاصق لجدار السوق الداخلي المسقوف .

تبادلت المرأتان شرراً بارداً من عيونهما المتجلِّدة خيبةً .

«فلْنفتح العريضةَ القماشَ» ، قالت نازلي .

حرَّرت تاسو قطعةَ القماشِ ، من تحت إبطها المتعرِّق قَلَقاً ، في بطءٍ ثقيل :

- فلْنَنْتظِرْ قليلاً ، يا نازلي .

انتظرتا واقفتين وسط الساحة ، التي تتحول صيفاً إلى خيام مصارفَ للخُضار والفاكهة ، ومأدب زهورٍ ، وورود ، يتولاَّها الباعةُ الترك ، والكرد ، والعرب ، عادة .

«ليتني جلبت معي علبة جعة» ، قالت نازلي .

«أتشربين جعة في مكان مكشوف للعموم ، يانازلي؟» ، ساءلتها تاسو .

«وقفتي هنا ، في هذا الموقف ، الذي لا معنى له ، يناسب امرأةً سكرى» ، قالت نازلي . لمست كتفَ صاحبتها : «ألا تجدين هذا الأمرَ ، برمَّته ، يدعو إلى التريُّث ، ياتاسو؟ . أجِّلي إعلان عريضتك اليوم» ، قالت

نازلي بهمسٍ فيه انكسار، وتوسُّلٌ، وحَرَج أيضاً.

ارتبكت تاسو. إحساسُها بالخيبة أربكَها. أربكتْها الظهيرةُ غيرُ المواتية: «أنا متعَبَةٌ، يانازلي، من كوني متعَبةً»، قالت المرأةُ الضخمة، الخفيفة الشعر، بصوتٍ من مفاوضاتِ النَّفْس مع الألم. تحسَّست القماشَ المطوي بلمْسِ المتردِّدة. دارت ببصرها على الممرَّات الأربعة إلى ساحة رنكبي: «وعدتْني ابنةُ القحبة، مصوِّرةُ صحيفة إكسبرسِّن، بالحضور»، قالت. «أخبرتُ صحافيًا من قناة التلفاز الثانية شوَّقتْه الفكرة». أشعلت لفافة تبغٍ امتصتْها بفمها وفم أعماقها المتعثرة في الوقوف على قدمين.

«فلنَرجعْ ياتاسو. فكِّري في اختيار يوم آخر بعد دَرْسٍ. أقنِعي واحدةً أخرى، سواي، بالحضور أيضاً. ربما هنالك سوء فهم، فلم يحضر أحد. فكِّري قليلاً»، قالت نازلي.

أطرقت تاسو منكسرةً. عادت فرفعت عينيها الصغيرتين، العسليتين، إلى عينَي نازلي الدعجاوين الكبيرتين. بَدَتْ مستسلمةً، مقتنعة بالعدول عن فكرةِ مظاهرةٍ لا متظاهرينَ فيها. أومأت برأسها إيماءةً خرساء موافَقَةً على مغادرة الساحة. اتجهت صوب الممر المجاور للمَتْجر. انحرفت في مشيتها: «فلْنشتَرِ بعضَ الجعة، يانازلي، نشربها معاً في البيت».

«سأغادر من هنا، ياتاسو»، قالت نازلي. «فمي جافٌّ. اشتري لي علبة واحدة من الجعة، سأشربها حتى لو تفرَّج عليَّ أبي». استدارت بوجهها صوب المدخل الجنوبي إلى الساحة: «من هؤلاء؟»، تساءلت في فضولٍ مداهم.

التفتت تاسو إلى حيث تنظر نازلي: جماعة من الصوماليين دخلت الساحةَ، ناشرةً عريضةً من القماش بطول أربعة أمتار، يتولىَّ عرضَها ثلاثةُ رجالٍ وامرأتان، ممسكيْنَ بها من وسطها والطرفين، يتبعهم الآخرون.

مصورٌ سويدي الملامح واكبهم بآلة تصوير كبيرة للتلفاز ، وكذلك امرأة شقراء ، نحيفة ، بآلة تصوير يدوية ، صغيرة .

استدارت تاسو ، ونازلي ، متجهتين إلى ذلك الجمع ، الذي يربو على اثني عشر نفراً . اقتربتا فتوضَّحتْ لهما خطوط الكلمات بالسويدية : «لا شارع كاترينا باركن ، بل شارع مَغَديشو ـ عائشة» .

ضربت تاسو صدرها براحة يدها مصعوقة . فتحت القماشة المطوية : «أمسكي بطرفها ، يانازلي» ، قالت بصوت مُعْوِلٍ . تقدَّمتا مهرولتين صوب جَمْع الصوماليين بعريضتهما الواضحة الكلماتِ ، بالسويدية :

«وداعاً كاترينا باركن .

تذكَّري اسمَ شارعنا الجديد :

علي خابوت . الملاَّ علي خابوت» .

وقفت تاسو ، ونازلي ، في مواجهة عريضة الصوماليين ، الذين بدت عليهم السخرية والاستغراب مما تفعلانه . توقف المصوران عن التصوير ، بتساؤل في سيمائهما ، وهما ينقلان بصريهما بين العريضتين القُماشتين .

أشارت امرأة سوداء ، من حَمَلةِ العريضة الصومالية إلى تاسو ، ونازلي ، بالابتعاد ، صارخةً بصوت لم تفهما كلمةً منه . جاراها أصحابُها الآخرون ، ذوو القبعات الرمادية العالية ، والخُمرِ البِيْضِ المرقَّطة . لوَّحوا بأيديهم يطردون المرأتين ، المتطفِّلتين ، فجاءةً ، بلعبة عريضتهما ، على المشهد ، بحسب ما خمَّنوا . تركت تاسو طرفَ العريضة القُماشة من يدها . لم تُطِقْ ماتراه . لم يتمكن خيالها من تفسير الهتك الغامض ، الذي قَلَبَ أسافلَ خطَّتها على أعاليها . اندفعت جامحةً ، بصوت يتضرَّع إلى النهار أن يمحو المشهدَ الفاحشَ في كيده اللامُحْتَمَل . أطبقت أصابعها على عريضة الصوماليين . شدَّتها ، فجرَّت الثلاثةَ الرجالَ ، والمرأتين حتى تعثروا ،

لايكادون ينتزعون العريضة من قبضتيها . أنجد الواقفون وراء الصفِّ المسك بالعريضة أصحابَهم ، فاندفعوا صوب تاسو بشتائم تُرمى من شرفات أرواحهم الصارخةِ استهجاناً .

لم تُفلِت تاسو عريضةَ الصوماليين . ترنَّحت من نهش الأيدي ليديها ، ومن دفْعهم لجسدها الضخم بضراوة ، كي تتراخى قبضتاها عن العريضةِ القماش فلم تتراخيا . سقطتْ أرضاً . هرولت إليها نازلي ، وهي تجرُّ عريضةَ صديقتها خلفها كَعَلَم منكَّس . زمجرتْ . عوتْ . نفخت ما تستطيع نَفْخَه من أبواق حنجرتها الثَّمانية . انكشف الصوماليون عن تاسو وقد استخلصوا عريضتهم من قبضتيها . ابتعدوا عنها مذهولين . أعانت نازلي صديقتها على الوقوف . همَّتْ تاسو بهجوم جديد ، فطوَّقتها نازلي من وسْطها : «ماذا تفعلين؟» ، صرختْ يائسةً .

خرجت حشرجة من صدر تاسو : «لن تنهبوا فكرتي ، ياقراصنةَ الصومال» .

جرَّتها نازلي مواسيةً ، وقد أفلتت العريضة تماماً من يدها : «لن ينهب أحد فكرتَك ، ياتاسو» .

وقف الصوماليون على بُعد مترين ، أو أكثر ، من المرأتين ، يرتِّبون المشهدَ المُداهِمَ ، في نَسَقٍ مَّا . وقفت تاسو ، ونازلي ، قبالة الصوماليينَ ترتِّبان المشهدَ ، المُداهِم ، في نسقٍ مَّا . وقف عالَمٌ ، يأخذ الكلُّ منه حصَّتَه من الخطأ بتساوٍ ، بين أهل العريضتين المتقابليْنَ : عريضة منصوبة ، وأخرى متهاوية أرضاً .

لجمت تاسو نفْسَها عن بكاء كاد يشقُّ صدرَها ، وهي تتحسَّس خَدْشاً في زاوية فمها : «شارع كاترينا باركنْ هُوَلي» ، قالت بلسانٍ معذَّب ، في ضراعة .

جمعت نازلي العريضةَ القماشةَ عن الأرض جَمْعاً بلا ترتيب ، على

عَجَل . ضمَّتها تحت إبطها . شدَّتْ صديقتَها من طرف سترتها الطويلة : «تعالي ، ياتاسو . لم أعدْ أحتمل الوقوف هنا» . نظرت إلى وجه صديقتها : «هناك جُرح في زاوية فمك» .

جاوز الصوماليون المواجَهةَ اللامحسوبةَ مع تاسو وصديقتها . حادوا عنهما قليلاً ، وأكملوا سيرَهم بالعريضة صوب مدخل محطة القطار ، يواكبهم المصوِّران بآلتيهما .

بسطتِ نازلي العريضةَ القماشَ ، المضمومةَ مشوَّشةً ، ثم أعادت طيَّها بتأنٍّ لِفافةً ممعوسةَ الجوانب . قدَّمتها إلى تاسو : «سأغادر . القطار قادم بعد ست دقائق» ، قالت وهي تنظر إلى ساعة يدها . استدركتْ ، بتأسٍّ لحال صاحبتها : «أتريدين أن أصاحبك إلى البيت ، ياتاسو؟ . لا مانع عندي إن كنتِ راغبة في ذلك» .

«لا» ، ردَّت تاسو بصوت مشدوخ . «يكفيك مارأيتِ ، يانازلي . سأشتري خبزاً ، وحليباً ، وأعود إلى البيت» .

أومأت كل واحدة إلى الأخرى مودِّعةً بلا كلمات . اتجهت نازلي صوب مدخل المحطة ، وأكملت تاسو عبورَ الساحة إلى المَتْجر . خرجتْ منه بكيس فيه خبز ، وعلبة حليب ، وعريضتُها القماشُ أيضاً ، ظاهرةً برُبْع لِفافتها . سلكتِ الممَّر بين المَتْجر والمطعم ـ المقهى ، خارجة من الساحة إلى الطريق الواسع .

شيء مَّا من مذاق البطيخ الأحمر ، في الشهر الأول من الخريف ، كان تحت لسان تاسو . لايشبه طعمُ البطيخ الأحمر طعمَ الخيبة . لكنها ، في عبورها المُنتزَهَ الرثَّ ، المكسورَ المقاعد ، أو المنهوبَ خشب المقاعد ، بين شجر الصنوبر ، لمستْ بلسانِ خيالها شريحةً من البطيخ الأحمر ، باردةً ، سُكريَّةَ الطعم . قضمتِ الشريحةَ بأسنان السكَّريٍّ في خيالها . بطيخ

الشهر الأول من الخريف مُتَرَفٌ بحلاوته ، في الشمال السوري . الجفافُ ، الذي يخلخل نسيجَ كُرة البطيخ ، من الداخل ، يُبقي على سُكَّرٍ كثيف . باعةُ البطيخ الأحمر ، المتأخرون في عروضهم ، بعد انقضاءِ الصيف ، يُحضِرون ما أدرَّتِ الحقولُ فائضاً عن حاجة الصيف ، بسعر رخيص ، فيكوِّمون بطيخهم أهرامات صغيرة على أرصفة الطُّرق في الضواحي . يسهرون مع بطيخهم في الليل الجافِّ البارد . ينامون في فُرُشٍ إلى جوار بطيخهم حُرَّاساً ، في الليل البارد ، تحت الفوانيس .

البطيخ ، بنوعيه ، الأحمر والأصفر ، المتأخرُ القطافِ حتى الخريف ، يحتكر طَعْماً هو الأشدُّ في سُكَّريته . حلاوةٌ مكثفة في أليافٍ قليلة العُصارة ، مُعَتَّقة ، تترك على اللسان لحمَ الثمرة الحمراء متحبِّباً كرملٍ لَدِن . تاسو مولعة ببطيخ الخريف الأحمر : بطيخٌ بارد ، وخريف بارد ، يجتمعان على ترتيب ذاكرة لِّلسان .

تاسو تتذكَّر بلسانها : بطيخٌ لايشبه البطيخ الأحمر في مَتَاجر السويد . خريفٌ لايشبه خريفَ السويد ، في أسبوعه الأول أو الحادي عشر . تاسو تتذكَّر بلسانها بطيخاً هو الخريفُ بذاته ؛ بطيخاً هو المكانُ بذاته .

جلست تاسو على مقعد في مُنتزه شجر الصنوبر ذي خشبٍ ناقص ، مسروق . لم يكن جلوسُها مريحاً ، لكنها كانت تحتاجُه لاسترداد أنفاس قلبها المخذول . أشعلتْ لفافةَ تبغ . أدخلت يدها في كيسها فاقتطعت من رغيف الخبز الدائريِّ ، المنتفخ ، ما يكفي لقمتين ، مضغتهما على مهل ، وسط نفْخ من فمها لدخان التبغ : «أيتها الساحرات ، الشريرات ، ياصديقاتيّ» ، تمتمتْ مبتسمةً للمُنتزَه الفارغ في خميس الأسبوع الحادي عشر من الخريف . نهضتْ . دعكت بحذائها عقبَ لِفافتها .

صعدت تاسو الدَّرجات القليلة ، المجاورة للمصعد ، في عمارتها ، إلى

الطبقة الأرضيَّة . همَّت بصعود الدرجات الأخرى ، من الردهة بين الشقق في الطبقة الأرضية إلى الطبقة الأولى ، حيث شقَّتُها . توقفت . تراجعت خطوة ليتضح لبصرها ، في الظلِّ الغامرِ أعماقَ الردهة ، ماتراه على باب شقة تقع ، مباشرةً ، تحت شقتها : كانَ مَدَد ، ابن راوت ، الشبيه بأبيه جَناب خلُّو ، يُقبِّل ابنةَ جارتها البولندية مودِّعاً ، في الأرجح .

لمحتها الفتاةُ ، ذاتُ الشَّعر المفرط في دهانه القرمزي ، بعينيها الثابتتين في التحديق . لمستِ النظرةُ الميتةُ ، في عينيها ، قلبَ تاسو ، فحدَّقتْ تاسو إليها . انتبه مَدَد إلى نظرة صديقته المنحرفة عن عينيه في اتجاهٍ آخر . التفت بدوره . رفع إحدى يديه مُحيِّياً صديقة أمه ، التي لم يعرفها عن قرب أبداً ، بوجهٍ خالٍ من أيِّ ودٍّ . مشت تاسو صوبهما مسافةَ أربعة أمتار . صارت على بُعدِ شبرٍ ، لا أكثر ، منهما ، على نحوٍ كأنها ستقتحمهما . أومأت برأسها تحيةً إلى الفتاة البولندية : «هَاي» ، قالت ، ثم حدَّقت إلى وجه مَدَد ، الذي لم ينتبه إلى يدها اليسرى تمتدُّ ، في هدوء ، لتلمس بنطاله ، فوق قضيبه تماماً : «سلِّم على أُمكَ راوت» ، قالت تاسو .

صُعق مَدَد . تبلبلَ . اختَبلَ . تفتَّت صوتُه ذهولاً وارتباكاً : «ماذا تفعلين؟» .

لم تنتظر تاسو أن ترى صُداعَ قلبه منعكساً على كلماته المختنقة . استدارت عائدةً صوب الدَّرج تصعده إلى الطبقة الأولى .

لاتعرف تاسو لماذا خطر ببالها ، وهي تفتح دُرْجاً في خزانة صغيرة قرب سريرها ، أن تهاتف شتولا ، الظاهرة السُّرَّة ، أبداً ، تحت قمصانها القطنِ القصيرة . أخرجت أطواقاً موصولة بمقاودِ للكلاب من الدُّرْج . وضعتها فوق السرير . أخرجت هاتفها من حقيبة يدها الموضوعة فوق الخزانة الصغيرة ، قرب ساعة على شكل تفاحة حمراء . نقرتِ الأرقامَ

بأنملة أصبعها السَّبابةِ اليمنى . وضعت الهاتف على أذنها . جاءها صوت شتولا بالسويدية : «اتركي لي رسالة رائعة . أنا شتولا» .

أقفلت تاسو الهاتف . رمت به إلى السرير . جمعت أطواقَ الكلاب ومقاوِدَها حُزمةً : «أتريدين أن تقولي لي شيئاً ، الآن ، ياشتولا؟» ، همست لنفسها بصوت مسموع . استعادت على خيالها إرْثاً من طرائف مصكوكات لسان صديقتها الأصغر سنّاً بين صديقاتها : «أوروبا - إمبراطورية المهاجرين . لا تنظرن إليّ . في عيني صورةُ قضيب مصاب بسكتة قلبية» .

«ماذا أيضاً ، ياشتولا؟» ، تسأل تاسو نفْسَها .

«فروجٌ عاطفيةٌ تبكي من أول لمسة ، ياتاسو» ، تقول شتولا الغائبة .

– ماذا أيضاً ، ياشتولا؟ .

– فُروجٌ ، ياتاسو . فروجٌ لها طِباعُ الحدائق .

فروج لها طِباع العمارات .

فروج لها طباع الشوارع .

فروج لها طباع الشواطىء .

فروج لها طباع خزائن الثياب .

فروج لها طباع رفوف المطابخ .

فروج لها طباع الدراجات الهوائية .

فروج لها طباع محطات القطار .

فروج لها طباع مطاعم السُّوشي .

فروج لها طباع البواخر السياحية .

فروج لها طباع الحمَّامات .

فروج لها طباع ملاقط الغسيل لتثبيت العالم منشوراً كالجوارب على حبلٍ من السويد إلى قامشلو .

فروج لها طباع المؤامرت ، والانقلابات العسكرية .
فروج لها طباع ضغط الدم .
فروج لها طباع ألْزهايمر .
فروج لها طباع الشكّ .
فروج لها طباع الجعة .
فروج لها طباع محقّقٍ غير سويدي في دائرة الهجرة .
فروج لها طباع المقاعد في باصٍ مزدحم .
فروج لها طباع مقاعد أمام بِرْكة يسبح فيها البط .
فروج لها طباع نقود مزوَّرة من فئة عشرين كروناً .
فروج لها طباع الأعلام في مهرجانِ أنصارِ البيئة .
فروج لها طِباعُ دفترٍ مدرسيٍّ .
فروج لها طباع المسَّالا ، والكاري ، والوسَّابي ، وعُصارة الصُّويا .
فروجٌ لها طباعٌ قُطبيَّة .
فروج لها طباع الشرطة وهي تطوِّق تظاهرة للعُنصريين .
فروج لها طباع الصحف المجَّانية .
فروج لها طباع الكومبيوترات المحمولة في الجيوب .
فروَج لها طباع القطارات المتأخرة عن مواعيدها .
فروج لها طباعُ مطاعم الخدمة الذاتية .
فروج لها طباع الوثائقِ .
فروج لها طباعُ جيرانٍ يستيقظون باكراً فجرَ الأحد .
فروج لها طباع الانشقاق في حزبٍ .
فروج لها طباع الخَدَمِ في مطاعم لاتفيا لا يبتسمون للغرباء .
حسناً ، ياتاسو . لاتسَأليني عن أنواع تصرُّفات الفُرُوج . لكنْ سأصف

لكِ القليل منها :

فروج تتصرَّف كطلباتِ شراء الألبسة على الأنترنت .

فروج تتصرَّف كحقول غاز .

فروج تتصرَّف ككاسحات ألغام .

فروج تتصرف كسُكَّرٍ لايذوب في شاي فاترٍ .

فروج تتصرف كأُمة حقيقية ، لها دِيْنٌ واحد ، ولغة واحدة ، وتاريخ واحد .

فروجٌ تتصرف كحدود الجغرافيا .

فروج تتصرف كمخافر على الحدود .

فروج تتصرف كطائرات تُقْلعُ بوقودٍ ناقص .

فروج تتصرف كأنوف .

فروج تتصرف كستائر في شتاء السويد .

فروج تتصرف كإعلانات عن دهون البشرة .

فروج تتصرف كشامبو .

فروج تتصرف كنبيذ ريحاني .

فروج تتصرف كقناة تلفاز مشوَّشة .

فروج تتصرف كمتْجَر ألبسة مستعملة .

فروج تتصرف كصالون حلاقة .

فروج تتصرف كأحزاب معارضة .

فروج تتصرف كطاولة محجوزة في مطعم فخم .

فروج تتصرف كتذاكر سفر إلى بلدان بلا سياحة .

فروج تتصرف كعملٍ في سوق سوداء .

فروج تتصرف كانتقال من بيت سيء إلى بيت أسوأ .

فروج تتصرف كهجرة غير شرعية :
فروج تتصرف كدكاكين بيع المعلَّبات الشرقية .
فروج تتصرف كرغوة حليب فائرة .
فروج تتصرف كآلات جزٍّ العشب في الحدائق .
فروج تتصرف كبرك سباحةٍ خاصَّة .
فروج تتصرف كشواءٍ في يومٍ عاصفٍ .
فروج تتصرف كصناديق البريد .
فروج تتصرف كسكك حديد لم تعد تُستخدم .
فروج تتصرف كأضواء كاشِفة فوقَ أسوار السجون .
فروج تتصرف كأغطية صيفيَّة للأسرَّة .
فروج تتصرف كجُملٍ بكماء في أشعار صديقتنا درخو .
فروج تتصرف كاستعراضٍ عسكريٍّ .
فروج تتصرف كخطابٍ سياسيٍّ هادىء .
فروج تتصرف كرأس مال يجمعه عازفو الكمانات في أنفاق القطارات .
فروج تتصرف كمراهنين على الخيول .
فروج تتصرف كمشاجرةٍ .
فروج تتصرف كسقوف يدلف منها الماء .
فروج تتصرف كأسوارٍ عالية .
فروج تتصرف كآلة التَّحكُّم في التلفاز عن بُعْدٍ .
فروج تتصرف ككتبٍ أكثر مبيعاً .
فروج تتصرف كمكتباتٍ عامَّة .
فروج تتصرف كَمَن يشربُ ، أوَّلَ مرة ، كحولاً قويًا .

فروج تتصرف كسيارات لاتتقيَّد بإشارات المرور .
فروج تتصرف كقرية في شمال سوريا .
فروج تتصرف كعَتبٍ .
فروج تتصرف كآلة سحب النقود .
فروج تتصرف كفواتير مطاعم البيتزا .
فروج تتصرف ككلماتٍ متقاطعة .
فروج تتصرف كعُلب الفول .
فروج تتصرف كمعصرة جزرٍ .
فروج تتصرف كتحية بين جارين .
فروج تتصرف ككشوف مواعيد الباصات في ستوكهولم .
فروج تتصرف كجمهور في ملعب كرة القدم .
فروج تتصرف كوصيَّةِ ميِّت .
فروج تتصرف كعروض الأزياء .
فروج تتصرف كسفرٍ بلا حقيبة .
فروج تتصرف كأوروبا .
فروجٌ تتصرَّف كأنها لاتعرف أنها فُروجٌ .

– ماذا ايضاً ، ياشتولا؟ .

– . . .

لماذا لاتردِّين ، ياشتولا؟ .

– . . .

أتظن تاسو أنها اختزنت ، في ذاكرة خيالها ، هذا القَدْرَ من مصكوكات المَرح على لسان عصفورة السويد ـ شتولا ، أمْ هُوَ لسانُها ينسب إلى شتولا سِجلاً من تأليف فطرته؟ . لايهم ، الآن . ما اعترى تاسو ،

فجاءة ، من رغبةٍ في دَحْضِ الخيبة ببعض الحلوى من مصكوكات الطرائف ، خَمَدَ وهَمَدَ . سمع قلبُها ، بأُذنيٍّ الدم الذي فيه ، صوتَ الصُّور متكسِّرةً في ساحة رِنكبي . غصَّت تاسو بجرعة الجفاف متسرِّباً قطراتٍ تراباً إلى مَرِئها .

حملت تاسو أطواقَ الكلاب الموصولة بمقاوِد ، مجتمعةً ، وقد ضمَّتها إلى صدرها بيدٍ ، وحملت بالأخرى سلسلة مفاتيح . وضعت علبة التبغ ، والقدَّاح ، في جيب بنطالها . خرجت من الشقة . أقفلت البابَ خلفها . نزلتِ الدرجَ وهي تغني ، بصوتٍ خافت ، ما يتعثر بلسانها من مَلْحُونٍ على عواهنه :

«أَخْرِجْ من صدري قلبَ الحمامة .
ضعْ مكانَه قلبَ الذئب :
لا أريد أن أنقركَ ، إذا أحببتُكَ ،
بل أن آكُلَك .

أَخْرِجْ من صدري قِدْرَ العدس ، التي تغلي .
املأْ صدري ثلجاً لأجعلكَ ترتجف آن أضمُّكَ إليَّ .

بعثِرْ متاعيَ كلَّه : ما أملكه ، وما أعطيتَنيْهِ .
بعثِرْ جَمَالي ، الذي لي ،
والذي منحتَني :
سأعود بكَ إلى بيتك فارغاً مِنِّي كما كنتَ ،
وفارغاً منكَ» .

نزلت تاسو الدَّرجَ إلى الطبقة الأرضية . ألقت بصرَها إلى باب شقة الجارة البولندية المغلق : لا أحد هناك . أكملت عبورها إلى المَخْرج الخلفي

للعمارة . نزلت أدراجاً قليلة إلى بابٍ موصد . فتحته . نزلت دَرَجاً أكثر إلى ردهة سُفلية ، حيث قاعة الغسَّالات الآلية ، يتناوب أهلُ العمارة على حَجْز مواعيدَ لغسيلهم هناك ، ككل عمارة في السويد . اتجهت إلى باب آخر ، مغلق ، في آخر الردهة . فتحتْهُ ـ فتحتْ باب القبو المستودع ، المقسَّم مكعَّبات بشبكٍ حديدٍ قوي ، كقبو كل عمارة في السويد . لكل شقة مكعَّبُها من المستودع الشبيه بأقفاص متجاورة يُودِعُها الساكنون متاعَهم الفائض ، أو القديم المُهْمَل ، أو ما ينتظر فرصةً للتخلص منه ، أو استخدامه للطوارىء كالكراسي المُنْطبِقة ، والصناديق الورق المقوَّى استعداداً لانتقالٍ مَّا .

أزاحت تاسو ، بمفتاح صغير ، قُفلاً نحاساً عن باب المكعَّب الشَّبك ، الشبيه بقفص من متر ونصف المتر طولاً ، وكذا عرضاً . لم يكن في مستودع تاسو الشبكيِّ غير صندوق من الورق المقوَّى يخص جهاز تلفازها ، فيما كانت مستودعات أهل الشقق الأخرى ملآى أثاثاً منبوذاً ، وآلاتٍ لم يَعُدْ يفي سلوكُها بالمطلوب من أدب الخدمة .

وضعت تاسو أطواق الكلاب ومقاوِدها على الأرض الإسمنت . مدَّدتِ الصندوقَ الفارغ ، في هدوء ، على جنبه العريض متَّجهاً بفتحته إليها . خشخش شيء في أعماق الصندوق . جلست تاسو على الأرض ، قربَ أطواق الكلاب ومقاوِدِها . مدَّت يدها إلى أعماق الصندوق . أخرجت إطاراً مهشَّمَ الزجاج لصورة أبيها ، وأمها ، بالأبيض والأسود . أبعدتِ الهشيمَ جانباً ، بتأنٍّ ، حتى لا يخدش الزجاجُ يدَها . أخرجت هاتفها الصغير من جيبها . استنطقتِ الأرقامَ فاعترفتِ الأرقامُ بمخابىء الصوت : «شتولا . هاتَفْتُك قبْلاً» ، قالت ، ثم أقفلت الهاتفَ .

استنطقت تاسو أرقاماً أخرى ـ أَرقامَ صديقاتها ، اللواتي خذلْنها ، فاعترفتِ الأرقامُ بمخابىء أصواتهن :

«درخو . زليخا . شيراز . سلام . زنتانا . ريحاني» . لم تتعَدَّ مهاتَفاتُ تاسو إلى صديقاتها أكثر من ذِكرِ أسمائهن . كانت تقفل الهاتف عند سماع صوت كل واحدة منهن ، كأنما اكتفَتْ بسماع الصوتِ جواباً .

وضعت تاسو هاتفها على الأرض الإسمنت قربها . رنَّ الهاتف . رنَّ طويلاً . رنَّ مراراً رنيناً كئيباً في المستودعِ الشَّبكِ الكئيب ، المضاء بمصباح خافت ينير القبو بظلال شاحبة .

«لستُ هنا» ، ردَّدت تاسو ، بعد كل رنينٍ من غير أن تلمس الهاتف . أحصتْ أطواقَ الكلابِ ومقاوِدَها بإشارة من إصبعها تعبر بها طوقاً إلى آخر : «أحد عشر . أحد عشر» . أعادت إحصاءَ الأطواق الموصولة بمقاود ، من اليسار إلى اليمين ، ومن اليمين إلى اليسار ، متراصفةً ، واحداً إلى جوار الآخر ، بألوانٍ شتَّى . مالت بجذعها قليلاً تستطلع أعماقَ الصندوق الفارغ بعينيها :

«أنا هنا» ، قالت .

طقطقت بأصابعها تستدعي ما في أعماق الصندوق الفارغ : «اخْرُجي . هَيّا اخْرُجي . أفي كل مرة عليَّ أن أذكِّركِ بي؟ . ستةً وأربعين عاماً ذكَّرتُكِ بي ـ سنة بعد سنة . بلغتُ السادسةَ والأربعين ، كما ترين . اخْرُجي» .

رنَّ الهاتف . ضربتْهُ تاسو براحتها ضربة انحدرت براحتها من أعلى إلى أسفل ، في قوة ، كأنما ستسحقه .

«اخْرجي . كفى . لم أعُدْ أحتمل . اخْرُجي» ، قالت تاسو .

رنَّ الهاتف .

انحدرت راحةُ يد تاسو من أعلى إلى أسفل ، بقسوة ، على الهاتف صَفْعاً .

«اخْـرُجي . كلمـا اسـتطلعتُ أعـمـاقَ هذا الصندوق لم أركِ : لكنك هناك . اخرُجي» ، قالت تاسو .

رنَّ الهـاتف . كـان في مـستطاع تـاسو تفادي رنينَ هاتفهـا بإقفاله . لـم تفعل تاسو ذلك . حملتْهُ . خبطتْهُ بيدها فوق رضفة رُكبتها اليمنى ستَّ مرات . ضربتْهُ بجبهتها ستَّ مراتٍ ضَرْباً عنيفاً ، ثم وضعتْه ، في رفقٍ ، على الأرض الإسمنت .

خُـدِشَ جبـينُهـا . انحـدرتْ قطرةً من الدم ، رقيـقـةً ، إلى حـاجـبهـا الأيسر .

«لن تخرجي . أفهم ذلك» ، قالت تاسو . نهضت واقفةً . قفزت أعلى قَدْرَ ما يستطيعُ ثقلُ جسمها الضخم ، لتستقرَّ فوق الصندوق بقدميها . أشـبعَتِ الصندوقَ دَعْـساً . سـوَّتْهُ بـالأرض الإسـمنت : «اخـرجي أيتـهـا الكلبة» ، صرختْ لاهثةً . انحنت فوقَ الصندوق ، الذي تحوَّل رُقعةً مستويةً من الورق المُقوَّى . وسَّعتْ ، قليلاً ، بين جدرانه المُنطبقة كدفترٍ لاورقَ فيه . نفختْ في الجوف المُعتم : «أنا هنا . اخْرُجي . لا أحدَ ، في السويد ، جَلَبَ لكلبة مثلك أحدَ عشر طوقاً بألوانٍ شتَّى سواي . لا أحد . اخْرُجي» ، قالت مختنقةَ الصوتِ ، يائسةً . أسقطتِ الصندوقَ ، المنطبقة جدرانه بعضها فوق بعض ، من يدها جثَّةً من ورق مُقوَّى ، ذي صخبٍ في سقوطه . جلستْ على الأرض الإسمنت ثانيةً . أسندت ظهرها إلى الجدارِ الشَّبَكِ المعدنيِّ ، ثم أشعلت لِفافةَ تبغ في الضيـاء الشـاحب ، الموحش ، للقبوِ الموحش ، المقسَّم مستودعاتٍ منطوية على تواريخها كآثارٍ .

سكوغوس

مملكة السويد

٢٠٠٩

صدر للمؤلف

* كل داخل سيهتف لأجلي ، وكل خارج أيضاً	(شعر)
* هكذا أبعثر موسيسانا	(شعر)
* للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك	(شعر)
* الجمهرات	(شعر)
* الجندب الحديدي (سيرة الطفولة)	(سيرة)
* الكراكي	(شعر)
* هاتِه عالياً ؛ هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصبا)	(سيرة)
* فقهاء الظلام	(رواية)
* بالشِّباك ذاتها ؛ بالثعالب التي تقود الريح	(شعر)
* أرواح هندسية	(رواية)
* الريش	(رواية)
* البازيار	(شعر)
* الأعمال الشعرية	(شعر)
* معسكرات الأبد	(رواية)
* طيش الياقوت	(شعر)
* الفلكيون في ثلثاء الموت : عبور البشروش	(رواية)
* الفلكيون في ثلثاء الموت : الكون	(رواية)
* الفلكيون في ثلثاء الموت : كبد ميلاؤس	(رواية)
* المجابهات ؛ المواثيق الأجران ؛ التصاريف ، وغيرها	(شعر)
* أنقاض الأزل الثاني	(رواية)

* الأقراباذين (مقالات في علوم النَّظر)
* المثاقيل (شعر)
* الأختام والسديم (رواية)
* دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
* كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس (رواية)
* المعجم (شعر)
* ثَاذْرِيْمِيْسْ (رواية)
* موتى مبتدئون (رواية)
* السلالم الرملية (رواية)
* شعب الثالثة فجراً من الخميس الثالث (شعر)
* لوغة الأليف اللاموصوف المُحير في صوت سارماك (رواية)
* ترجمة البازلت (شعر)

A G I T A T I O N   O F   T H E   G E E S E



هياج الإوزّ

لن يقوّض أوروبّا (الإمبراطوريّة الراهنة) ما قوّضَ الأمّهات الكبرى منازَعةً في التاريخ، بل سيعيد المهاجرون صوغ قواعدَ موازيةٍ ، من الداخلِ ، كتسوية تغدو معها أوروبّا « شرقَ الغرب » . وهذه الرواية عَرضٌ في حلبةٍ يقدّمه نموذجٌ ممّن ستوقّع سلالاتهم ، بالترجيح ، عقد المجتمع الجديد في (إمبراطوريّة التنازلات المتبادلة) .

ISBN 978-9953-36-352-8



